ديستوفسكي

المثل

من ضمن الاعمال الكاملة

المجلد الاول

ترجمة د. سامي الدروبي

اعادة تنسيق وفصل

مكتبة الرمحي أحمد

عدد الصفحات ٢٤٥

المثل
١٨٤٦

« المثل » (Dvoinik) ،
كتبت هذه الرواية سنة ١٨٤٤ ـ
١٨٤٥ ، ونشرت سنة ١٨٤٦ فى
« حوليات الوطن » ، المجلد ٤٦ ،
فى شهر شباط (فبراير) ١٨٤٦

الفصل الأول

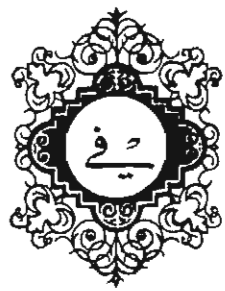

نحو الساعة الثامنة استيقظ ياكوف بتروفتش جولدياكين ، الكاتب فى احدى الادارات الحكومية، بعد نوم طويل • فتثاءب ، وتمطى ، ثم فتح عينيه تماما اخر الأمر • ومع ذلك ظل مستلقيا على فراشه دقيقتين ، ساكنا لا يتحرك ، وكانه لا يعلم علم اليقين اهو استيقظ حقا أم هو لا يزال نائما ، ولا يعلم علم اليقين اكل مايراه حوله هو جزء من العالم الواقعى ام هو امتداد الرؤى المضطربة التى راها فى حلم •

غير أن حواس السيد جولياكين أخذت تستوعب شيئا فشيئا، بمزيد من الدقة والحدة ، مجال ادراكاته المالوفة • فها هو ذا يرى ما ألف أن يراه من نظرات محدقة اليه : نظرات جدران الغرفة التى يغشاها الغبار والدخان ، ويميل لونها الى خضرة متسخة ، ونظرات منضدته المصنوعة من خشب الأكاجو ، ونظرات كراسيه التى هى تقليد لكراسى خشب الأكاجو ، ونظرات منضدته المصبوغة باللون الأحمر وديوانه التركى

المغطى بقماش مشمع يضرب لونه الى حمرة وتزينه زهيرات خضراء ؛ ونظرات ثيابه التى خلعها بالأمس على عجل ورماها على الديوان كتلا مكورة • وها هو ذا يرى آخر الأمر ، من خلال نافذته ، نظرة حزينة كابية يلقيها عليه نهار عكر حائل اللون من نهر الخريف ، فتثقل هذه النظرة على صدره : ان فى هذه النظرة كثيرا من العبوس ، وان فى التقطيب الذى يصاحبها كثيرا من الحدة والشراسة ، فلم يبق فى ذهن السيد جولياداكين أى شك : ليس هو الآن فى عالم محدد من عوالم الرؤى والأحلام ، بل هو حقا فى العاصمة ، فى مدينة سان بطرسبرج ، فى شارع « الدكاكين الستة » ، فى مسكنه بالطابق الثالث من عمارة كبيرة• فلما اكتشف السيد جولياداكين هذا الاكتشاف الهام ، عاد يغمض عينيه ، كأنه يأسف على رؤى حلمه الأخير ويتمنى أن يرتد اليها ولو لحظة • ومع ذلك لم يلبث أن وثب عن سريره بعد هنيهة ، ربما لأنه اهتدى الى الفكرة المركزية التى كانت تدور حولها تهاويل فكره مضطربة مشوشة حتى ذلك الحين • وسرعان ما هرع نحو مرآة صغيرة مستديرة كانت موضوعة على المنضدة • ان الوجه الذى يتراءى فى المرآة رث بعض الرثاثة ، وعيناه اللتان تشبهان أن تكونا مغمضتين قد تورمتا من النوم • انه وجه من تلك الوجوه التى ليس لها طابع يميزها ، فلا يمكن أن تلفت النظر من أول وهلة • ومع ذلك فقد بدا على صاحب الوجه أنه راض عنه كل الرضا بعد أن تفرس فيه •

قال السيد جولياداكين بصوت خافت : « الحمد لله ! لو قد حدث لى شىء فى هذا الصباح ، لو قد وقع لى ما يزعج ، كأن تنبت فى أنفى دمل أو شىء من هذا القبيل ، اذن لكانت قصة سخيفة ••• ما ينبغى التشكى• ليس هنالك دمامة ؟ وكل شىء يجرى على خير ما يُشتهى حتى الآن » •

ابتهج السيد جولياداكين من حسن سير أموره ، فأعاد المرآة الى مكانها المالوف • ورغم أنه حافي القدمين ، ورغم أنه ما يزال في ملابس الليل ، هرع نحو نافذة غرفته التي تطل على فناء العمارة ، وأخذ ينظر الى ما يجري فيها ، بكثير من الاهتمام •

وقد لاح أنه راض كل الرضى عما رأى ، فقد أشرق وجهه بابتسامة غبطة • ثم اقترب من المائدة على رءوس الأصابع • وبعد أن ألقى نظرة على ما وراء الحاجز ، حيث يوجد مخدع خادمه بتروشكا ، فتاكد أن بتروشكا ليس هناك ، فتح أحد أدراج المائدة ، ومدّ يديه الى أعماقه ، فأخرج من تحت كومة من الأوراق المصفرة المتسخة محفظة خضراء اللون بالية بعض البلى ، وفتحها بكثير من الحذر والتأني وألقى نظرة عجلى على جيبها الخفي • لا بد أن كدسة الأوراق النقدية الخضراء والشهباء والزرقاء والمتعددة الألوان ، قد أنعش منظرها نفس السيد جولياداكين ، اذا صدق ما ارتسم على وجهه من معنى حين وضع المحفظة مفضوضة على المائدة • وها هو ذا يفرك يديه منشرح القلب فرحا أشد الفرح •

وأخيرا أخرج كدسة الأوراق النقدية هذه التي كانت له موضوع آمال خفية كثيرة ، فأخذ يعدها مرة أخرى ، بعد أن عدها قرابة مائة مرة منذ أمس ، جاسا كل ورقة منها بالابهام والسبابة في كثير من الجد والاجتهاد •

وتمتم يقول بعد أن فرغ من حسابها : « سبعمائة وخمسين روبلا ، أوراقا نقدية ••• يميناً انه لمبلغ عظيم ••• مبلغ جميل ممتع » • كذلك تابع يقول بصوت مرتجف يكسره انفعال اللذة ، قابضا على الكدسة بيديه ، مبتسما ابتسامة الجد والوقار « نعم ، مبلغ جميل جدا ••• مبلغ يسر له قلب كل انسان • وددت لو أرى انسانا يحسب مثل هذا المبلغ

تافها ، فى هذه اللحظة ! ان مبلغا كهذا يمكن أن يمضى بالمرء بعيـــدا بعيدا ... »

« ولكن ماذا جرى ؟ أين ذهب بتروشكا اللعين » . كذلك تساءل السيد جولياديكين ، ثم مضى بملابسه تلك نفسها يلقى نظرة على ما وراء الحاجز مرة أخرى . ليس بتروشكا هناك . ولكن ، فى مقابل ذلك ، ها هو ذا السماور الموضوع على الأرض ، المهجور ، يغلى غضبا ويهـدد فى كل لحظة بأن يطفح ، حتى لكأنه يريد أن يقول للسيد جولياديكين ، بلغته السرية اللثغاء الموشوشة ، شيئا من هـــذا القبيل : « هـلا تناولتنى يا سيدى الشهم . أنا مستعد . أنا مستعد كل الاستعداد » . قال السيد جولياديكين لنفسه : « لعنه الله ... هـذا الكسلان ، هـذا الأحمق الذى يثير الحنق . أين ذهب يتسكع ؟ » .

استاء السيد جولدياديكين استياء له ما يسوغه ، فمضى الى حجـرة المدخل ، وهى ممر بسيط صغير ينتهى بباب يطل على السلم ، فشق الباب فرأى خادمه عندئذ وقد أحاط به جماعة من سكان المنزل وأناس ممن يضيعون وقتهم فى الثرثرة . كان بتروشكا يقص عليهم حكاية وكانوا هم يصغون اليه . ولا بد أن الموضوع الذى كان يجرى عليه الحديث ، بل وجريان هذا الحديث أصلا ، لم يعجبا السيد جولياديكين قط ، لأنه سرعان ما نادى بتروشكا وعاد الى غـرفته مستاء استياء شـديدا بل قولوا غاضبا حانقا . قال لنفسه : « ان هذا الوغد لا يتورع أن يبيع انسانا فى سبيل كوبك واحد ، ولا سيما مولاه ... وقد فعل ذلك وانتهى الأمر ... باعنى ... أراهن على أنه باعنى بأقل من كوبك » .

سأل السيد جولياديكين خادمه :

ـ ماذا هناك ؟

ـ جيء بالبذلة يا سيدى •

ـ البسها وتعال •

ارتدى بتروشكا بذلته ودخل غرفة مولاه مبتسما ابتسامة بلهاء • كانت بذلته غريبة الى أبعد حدود الغرابة • انها البذلة العادية التى يلبسها الحجاب ، ولكنها مهترئة كثيرا ، خضراء اللون ذات شرائط مذهبة ، قد تنسلت خيطانها ، وبدا واضحا انها فصلت لرجل أطول من بتروشكا بنصف متر •

وكان بتروشكا يحمل بيده قبعة مزدانة بشرائط مذهبة وريش خضراء • وعلى فخذه يتدلى سيف له غمد من جلد • ويجب أن نذكر، اكمالا للوحة ، أن بتروشكا ، على عادته الراسخة المتأصلة ، وهى عادة التجول بملابس المنزل التى تستحق أن توصف بأنها أكثر من مهملة ، كان حافى القدمين •

فتش السيد جولياداكين خادمه من جميع النواحى ، فبدا راضيا عن هذا التفتيش • واضح أن البذلة قد استؤجرت لمناسبة ذات أبهة • ومن جهة أخرى كان بتروشكا ، أثناء هذا التفتيش ، يتابع بكثير من الانتباه ، كل حركة من حركات مولاه ، دالا على استطلاع شديد واهتمام غريب ينبىء بنفاد الصبر ، ولا شك فى أن هذا قد أربك السيد جولياداكين كثيرا •

ـ طيب • والعربة ؟

ـ العربة وصلت أيضا •

ـ للنهار كله ؟

ـ نعم للنهار كله • خمسة وعشرون روبلا •

– هل حذاءاى موجودان أيضا ؟

– نعم •

– يا أبله ! ألا تستطيع أن تتكلم بأدب ؟ ألا تستطيع أن تقول : نعم سيدى ؟ هات الحذاءين ••

لاح على السيد جـــوليادكين أنه مبتهج أشـــد الابتهاج بحذاءيه الجديدين • وأمر لنفسه بعد ذلك بشاى ، وطلب الى بتروشكا أن يعد له ما يجب اعداده للاغتسال والحلاقة • وأنفق فى الحلاقة وقتا طويلا ، ثم أنفق فى الاغتسال وقتا أطول ، واحتسى الشاى على عجل ، من أجل أن يفرغ بعد ذلك للمهمة الكبرى ألا وهى الباس شخصه • ارتدى سرواليه اللذين يشبهان أن يكونا جـديدين ، ولبس قميصـا ذا أزرار مذهبة ، وصديرة تزينها أزهار جميلة زاهية الألوان ، وعقد على عنقه ربطة من حرير مبرقش ، ثم ارتدى ردنجوته ، الجـديد أيضـا ، الذى أحسن تنفيضه بالفرشاة •

وكان وهو يرتدى ثيابه ما ينفك يلقى على حـذاءيه نظـرات حب وحنان • فهو فى كل لحظة يرفع هذا أو ذاك منهما ليعجب بشكله، مدمدما بين أسنانه بكلام متصل لا يتوقف ، ومضيفا الى هذا الحديث الداخلى من حين الى حين علامات فى وجهه تفيض رضى •

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جولياديكين كان فى ذلك الصباح ذاهلا بعض الذهول ولا شك ، لأن البسمات وحركات الوجه التى كان يرشقه بها بتروشكا وهـو يساعده فى ارتداء ثيـابه قد غابت عن انتباهه تماما • حتى اذا فرغ من ملبسه من القدمين الى الرأس ، وبعد أن أصلح زيه دون أن يغفل عن أيسر التفاصيل ، وضع محفظة نقوده فى جيب

ردنجوته • وكان بتروشكا أثناء ذلك قد دس قدميه فى حذاءيه وأصبح على أتم تهيؤ •

فلما تأكد السيد جولياديكين من أن جميع الاعدادات قد تمت ، وأنه لا شىء يوجب أن يبقيا فى الغرفة بعد ذلك ، خرج يهبط السلم بخطى محمومة سريعة ، وقلبه يخفق خفقانا شديدا من فرط الانفعال •

وتقدمت نحو باب المبنى عربة زرقاء مزدانة بأشعرة الشرف والنسب، محدثة ضجة كبيرة • تبادل بتروشكا بضع غمزات متواطئة مع الحوذى ومع المتسكعين الذين كانوا هنالك ، وهو يساعد مولاه فى ركوب العربة؛ ثم صاح بالحوذى ، وهو لا يكاد يستطيع حبس ضحكة بلهاء ، قائلا له : « هيا » ، ووثب يستقر على الدكة فى خلف • تحركت العربة وسط هدير الجلاجل وزمزمات العجلات متجهة نحو شارع نفسكى • فما ان تجاوزت العربة الزرقاء باب المنزل حتى أخذ السيد جولياديكين يفرك يديه بحركات متشنجة ، وحتى أفلتت منه ضحكة طويلة صامتة هى ضحكة رجل ذى مزاج مرح استطاع أن ينجح فى تدبير مكيدة موفقة ، فهو مبتهج بذلك من أعماق قلبه •

غير أن اندفاعة الفرح هذه قد انتهت بسرعة ، وظهر على وجه السيد جولياديكين تعبير غريب يفيض قلقا •

وها هو ذا ، رغم رطوبة الجو ورغم الضباب ، ينزل زجاج الباب، ويأخذ يتفرس المارة على جانبى الطريق وقد بان فى وجهه الهم • ولكنه ما ان أحس أن الناس يلاحظونه حتى اصطنع هيئة الثقة بالنفس وتقنع بمظهر الوقار • فلما وصل الى ملتقى شارع ليتانيايا وشارع نفسكى أحس بقشعريرة لعل سببها أن يكون احساسا مزعجا ، فاذا بوجهه يتصعر تصعر وجه رجلٍ شقىٍ داس أحد الناس على دمل فى قدمه سهوا ، ثم اذا

هو يرتمى الى أبعد ركن مظلم من العربة بحركة مباغتة تشبه أن تكون خائفة جزعة •

ذلك أن السيد جولياديكين قد رأى اثنين من زملائه هما موظفان شابان يعملان فى الدائرة التى يعمل هو فيها •

وقد أحس السيد جولياديكين احساسا واضحا بأن زميليه قد دهشا هما أيضا دهشة شديدة من الالتقاء بزميلهما فى ظروف كهذه الظروف، فهذا أحدهما يشير الى السيد جولياديكين بيده • وقد بدا للسيد جولياديكين أيضا أنه يسمع الآخر يناديه باسمه بصوت عال ، وذلك أمر لا محل له فى الشارع طبعا •

بقى صاحبنا فى ركن العربة دون أن يجيب • قال لنفسه : « يالهم من صبية صغار ! أى عجب فى هذا كله • رجل فى عربة ، فأى عجب فى هذا ؟ رجل فى حاجة الى الذهاب بعـــربة ، فذهب بعربة ••• أمر بسيط ••• حقا انهم لمزبلة ، هؤلاء الصبية ••• أنا أعرفهم ••• صبية يستحقون السوط . كل ما يهمهم هو أن يقبضوا أجورهم ويتجولوا هنا وهناك • لو كان الامر بيدى لوضعتهم حيث يجب أن يكونوا ، ولكن حتى يكون لهذا نفع •••

ولم يكمل السيد جولياديكين جملته ••• فانه قد ذعر حتى كاد يموت ذعرا حين رأى عربة فخمة تمر على يمين عربته ، يجرها حصانان من قازان ، وقد ألف أن يراها • ان الشخص الجالس فى هذه العـربة قد لمح وجه السيد جولياديكين الذى كان فى تلك اللحظة قد أخرج رأسه من باب العربة طيشا • فبـــدا على السيد أنه دهش دهشـــة كبـيرة لهذه المصادفة التى لم تكن فى الحسبان ، فمال ما استطاع الميل وأخذ يتفحص

بكثير من الاستطلاع والانتباه الركن الذى أسرع صاحبنا يقبع فيه من العربة .

كان هذا السيد هو اندره فيليبوفتش ، الرئيس الادارى للقسم الذى يعمل فيه جولياديكين مساعدا لمدير المكتب . فلما رأى جولياديكين أن آندره فيليبوفتش قد عرفه تماما وأنه يتفرس فيه بكل عينيه ، ولما أدرك من جهة أخرى أنه لا يستطيع الاختباء احمر احمرارا شديدا حتى الأذنين . قال فى نفسه : « أيجب علىّ أن أحييه ، أن أرد على علائم الاهتمام التى يبديها ، أن أكشف له عن نفسى ... أم الأفضل أن أتظاهر بأننى لست أنا بل شخص آخر يشبهنى شبها قويا ، وفى هذه الحالة أنظر اليه كأن لم يكن شىء ؟ ... » . ان السيد جولياديكين ما ينفك يلقى على نفسه هذه الأسئلة وقد تملكه ذعر لا يوصف . انه يدمدم قائلا : « نعم نعم ، لست أنا ، طبعا ، لست أنا » ، نازعا قبعته أمام آندره فيليبوفتش ناظرا اليه لا يحول بصره عنه ؛ وهو يتمتم بصوت يشبه أن يكون مختنقا: « أنا ، أنا ، ما أنا ، لا شىء ، يميناً لست أنا ، لست أنا حتما » . ولكن العربة الفخمة كانت قد تجاوزت عربة السيد جولياديكين ، وكانت الجاذبية المغناطيسية فى نظرة رئيس السيد جولياديكين قد غابت . ومع ذلك فان جولياديكين الذى ما يزال أحمر الوجه مبتسما ، ظل يدمدم ... وقال لنفسه أخيرا :

« ما كان أغبانى حين تظاهرت بأننى لم أعرفه ... كان يجب علىّ أن أحييه ، نعم ، أن أحييه صراحة ، من مستوى واحد ، بل بشىء من الرفعة والنبل .. تحية يمكن أن تقول له : « نعم يا آندره فيليبوفتش ، أنا أيضا مدعو الى العشاء ... الأمر بسيط جدا كما ترى » . وتعاوده ذكرى غلطته ، فيحترق شعورا بالخجل والعار ، ويقطب حاجبيه ، وينظر

الى مقدمة العربة كأنه يلتهمها بنظراته التهاما ، حتى ليحس من يراه يريد أن يسحق بهذه النظرات جميع أعدائه وأن يحيلهم الى رماد وأوحى اليه بفكرة على حين فجأة ، فها هو ذا يشد الحبل المثبت فى كو الحوذى ، فيأمر الحوذى بوقف العربة والعـــودة القهقـرى الى شار ليتاينايا • وكان سبب هذه الرجعة بسيطا : فقد شعر جولياديكين فى تل اللحظة برغبة لا سبيل الى مقاومتها فى أن يبوح بشىء هام جدا لطبيب كريستيان ايفانوفتش • وهو على كل حال لا يعرف طبيبه هذا الا منـ زمن قصير جدا ، أو قل اذا شئت الدقة انه لم يره الا مرة واحدة ، وذا فى الاسبوع الماضى • لقد استشاره يومئذ فى أمر طبى تافه • « ولـ ألا يشبه الطبيب الكاهن من حيث أن على المرء أن يعترف له بكل شىء ان من الحماقة أن يخفى المرء عن طبيبـه أى شىء (كذلك كان بطلنـ يقول لنفسه وهو يخرج من العربة أمام مدخل منزل مؤلف من خمسـ طوابق بشارع ليتاينايا) « نعم ••• هو كذلك ••• أليس الأمر كذلك هل الأمر كذلك ؟ هل يجوز هذا ؟ هل هذا مناسب ؟ ولكن ••• أى ض فى هذا ؟ » • هكذا استمر جولياديكين يدمدم وهو يصعد السلم متقـ الأنفاس لا يستطيع أن يهدىء دقات قلبه الا بكثير من العناء ، وهو قا ألف أن يدق دقا قويا جدا متى كان بطلنا يصعد الى أحد الناس •• نعم ـــ ـــ ـــ ؟ أنا آت اليه من أجل صحتى • لا لوم علىّ فى هذا أكون غبيا اذا أخفيت عنه • سأتظاهر بأننى جئت اليه عابرا ••• وسو يرى ما هو الأمر » • وفيما كان جولياديكين يفكر هذا التفكير وصـل ا الطابق الثانى ووقف أمام باب الشقة رقم ٥ : هذه لوحة جميلة من نحاـ قد نقش عليها :

كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس

دكتور فى الطب والجراحة

واستفاد بطلنا من زمن التوقف هذا ليشكل لنفسه وجها باشا ، هاشا ، بل ولطيفا محببا • وهم أن يشد حبل الجرس • غير أن فكرة برقت فى ذهنه فى هذه اللحظة نفسها، وهى فكرة فى محلها جدا على كل حال • أليس من الأفضل تأجيل زيارته الى الغد ؟ ما من حاجة اليها فى هذا اليوم نفسه فى الواقع ••• ولكنه سمع وقع خطوات على السلم فجأة ، فاذا هو ينفذ نقيض ما نواه ، فيدق جرس كريستيان ايفانوفتش ، وقد بدا فى وجهه العزم والتصميم •

الفصل الثاني

كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس ، الدكتور فى الطب والجراحة ، رجل قوى البنية جيد الصحة وان يكن متقدما فى السن • ان حاجبيه الكثيفين ولحيتى وجنتيه قد أخذت تشيب • وان نظرة عينيه المعبرتين الساطعتين تبدو قادرة وحدها على أن تستأصل جميع الامراض • وهو يحمل على صدره وساما رفيعا • كان فى ذلك الصباح جالسا على مقعد مريح فى مكتبه يشرب فنجانا من القهوة جاءته به امرأته ، ويحرر فى الوقت نفسه وصفات لمرضاه • لقد أمر منذ هنيهة بمرهم لرجل عجوز يعانى من البواسير ، فبعد أن شيعه حتى الباب ، عاد يجلس على مقعده منتظرا الزيارة القادمة • وفى تلك اللحظة انما دخل عليه السيد جولياداكين • ان كل شىء يحمل على الاعتقاد بأن كريستيان ايفانوفتش لم يكن يتوقع هذه الزيارة قط ، بل وأنه لم يكن يرغب أبدا فى رؤية السيد جولياداكين أمامه ، فهذا ما يدل عليه الاضطراب المفاجىء الذى ظهر فيه ، والتعبير

الغريب بل الغاضب الذى لاح فى وجهه • والسيد جولياديكين ، من جهته ، يشعر دائما بكثير من الضيق والحرج حين يكون عليه أن يواجه أحد الناس وأن يحدثه فى شئونه • واذ لم يتسع وقته لتحضير مقدمة يبدأ بها كلامه ـ وذلك يشكل عنده عقبة كبيرة دائما ـ فقد اضطربت حاله فدمدم ببضع كلمات مشوشة يعتذر بها عن مجيئه ؛ ولم يعرف بعد ذلك أى وضع يتخذ ، فجلس على كرسى ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أحدا لم يدعه الى الجلوس ، فشعر بأن عمله غير لائق ، فأراد أن يصلح ما اقترف من مخالفة للآداب الاجتماعية ، فأسرع ينهض عن الكرسى المغتصب ، ويقف على قدميه ؛ ثم ثاب الى رشده فشعر مضطربا بأنه قد ارتكب غلطتين متلاحقتين فاندفع يرتكب غلطة ثالثة • وأملا فى تبرير نفسه أخذ يجمجم بأقوال غير مفهومة تصاحبها ابتسامة شاحبة • وأخيرا احمر وجهه احمرارا شديدا ، واضطرب اضطرابا كبيرا ، فصمت ، وعاد الى مكانه على الكرسى ثم لم ينهض عنه • ومع ذلك فانه من أجل أن يسترد ثقته بنفسه لم ينس أن يرشق صاحبه بنظرة من تلك النظرات الثاقبة التى تمتاز بمزية خارقة هى أنها تسحق جميع أعدائه وتحيلهم رمادا • وفوق هذا ، فقد كانت تلك النظرة تدل على استقلال بطلنا استقلالا كاملا ، فهى تؤكد تأكيدا فصيحا أن السيد جولياديكين انسان سوى ، أنه رجل عادى ، كسائر الناس ، راض عن مصيره ولا يطلب المزيد •

تنحنح كريستيان ايفانوفتش ، علامة الاستحسان لسلوك بطلنا ، ثم حدق اليه بنظرة فاحصة • فقال جولياديكين مبتسما : « انما جئت يا كريستيان ايفانوفتش أطلب منك رحابة الصدر مرة أخرى ••• »

كان واضحا أن السيد جولياديكين يجد مشقة فى الاهتداء الى كلماته •••

قال كريستيان ايفانوفتش وهو ينفث نفثة كثيفة من الدخان ويضع سيجاره على المائدة :

ـ همم ... نعم نعم ... عليك مع ذلك أن تواظب على استعمال الدواء الذى وصفته لك . ولقد سبق أن اوضحت لك ان علاجك انما يكون بتغيير عاداتك ... أنت فى حاجة الى تسليات تسرى عنك . أنت فى حاجة الى أصدقاء تتردد اليهم ... أنت فى حاجة الى معاشرة الناس ومخالطة المجتمع . وعليك فى الوقت نفسه أن لا تكون عدو الزجاجة وأن تصاحب أناسا يحبون الحياة ويقبلون عليها ويغرفون من مباهجها .

فأسرع السيد جولياديكين يقول ، وهو لما يزل مبتسما ، انه يرى أن سلوكه سوى جدا ، شبيه بسلوك الآخرين ، وان تسلياته هى التسليات التى يتعاطاها الآخرون ؛ وانه يستطيع خاصة أن يذهب الى المسرح ، وانه يملك ما هو فى حاجة اليه من مال كسائر الناس ؛ وانه يعمل صباحا فى مكتبه ويبقى مساء فى بيته ؛ أى انه انسان كسائر البشر . حتى لقد انتهز السيد جولياديكين هذه الفرصة فألمع الماعا خفيا الى اعتقاده بأنه ليس دون غيره من الناس ، فهو يملك شقة فى عمارة مناسبة ، حتى أن فى خدمته خادما هو بتروشكا . ولكن السيد جولياديكين ، حين وصل الى هذا الموضع من حديثه ، توقف عن الكلام فجأة .

قال الطبيب :

ـ همم .. لا .. لا .. أنا لم أتكلم عن هذا .. ليس هذا ما أردت أن أطلبه منك . وانما أردت أن أعرف هل أنت على وجه العموم تحب صحبة الناس وتحب أن تنظر الى الحياة من جانبها الجميل ؟ ... أى بكلمة واحدة : هل سلوكك فى الحياة هو سلوك انسان سوداوى أم هو سلوك انسان متفائل ؟

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش ...

قاطعه الطبيب قائلا :

ـ همم ... أكرر : أنت في حاجة الى تغيير طراز حياتك تغييرا جذريا . ان عليك أن تتغلب على « طبعك »

شدد كريستيان ايفانوفتش تشديدا قويا على كلمة «تتغلب» ، وتجمع على نفسه في وضع ممتاز جدا ثم أردف يقول :

ـ عليك أن لا تهرب من التسليات ، عليك أن تختلف الى المسارح والحلقات ، وعليك خاصة أن لا تهمل الزجاجة . اياك والبقاء في بيتك ، فليس ينفعك في شيء أن تلازم بيتك .

دمدم جولياديكين يقول وهو يرشق محدثه بنظرة مفهومة ويبدو عاجزا عن العثور على الكلمات التي يفصح بها عن فكره :

ـ أنا أحب الهدوء يا كريستيان ايفانوفتش . نحن في البيت اثنان فقط : أنا وبتروشكا ... أقصد خادمي يا كريستيان ايفانوفتش . أريد أن أقول بذلك يا كريستيان ايفانوفتش انني أسير في طريقي ، نعم ، في طريقي الخاص ، يا كريستيان ايفانوفتش . أنا مكتف بنفسي ، ولست رهنا بأحد ، هذا اذا لم يخطىء ظني . على أن ذلك كله لا يمنعني من التنزه يا كريستيان ايفانوفتش .

ـ ليس التنزه في هذه الأيام بالممتع كثيرا ، فان الجو أقرب الى أن يعد رديئا .

ـ صحيح يا كريستيان ايفانوفتش . ورغم أنني بطبعي شديد التحفظ والانكماش على نفسي ، كما سبق أن تشرفت بايضاح ذلك لك فيما أعتقد ، فانني أتابع طريقي ، وهو طريق انعزالي . أنا أعرف أن

دروب الحياة واسعة ... أعنى ... أقصد ... معذرة يا كريستيان ايفانوفتش ، لست قديرا فى مجال فصاحة اللسان .

ـ همم .. هكذا ؟

ـ أقول هذا يا كريستيان ايفانوفتش من أجل أن تعذرنى اذا لم أعبر عن نفسى بفصاحة كافية .

كذلك نطق السيد جولياديكين بلهجة فيها شىء من المطالبة ، وكان واضحا أنه يجد مشقة فى العثور على كلماته . وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ من هذه الناحية ، لست كسائر الناس يا كريستيان ايفانوفتش . أنا لاأجيد الخطب الطويلة والجمل الرشيقة . ولكنى ، فى مقابل ذلك ، يا كريستيان ايفانوفتش ، أعمل ، نعم أعمل يا كريستيان ايفانوفتش ...

ـ همم ... طيب ... وماذا تعمل ؟

ساد الصمت لحظة . نظر الطبيب الى السيد جولياديكين نظرة فاحصة مرتابة . كما ألقى السيد جولياديكين على محدثه نظرة مثقلة بالحذر والشك .

تابع بطلنا يقول بلهجة شاكية تنم عن انزعاجه ، وقد بدا عليه الاضطراب ازاء هذا العناد القوى لدى محدثه :

ـ أنا يا كريستيان ايفانوفتش ... أنا يا كريستيان ايفانوفتش ... أنا ... أنا أحب الهدوء والسكون والركون ... وأكره ذلك التحرك الكثير الذى يتحركه المرء فى المجتمع بغير طائل . فهناك ، أقصد فى المجتمع الراقى ، يجب على المرء أن يعرف كيف يصقل خشب الأرض بنعليه (هنا ظهر على جولياديكين أنه ينقر الأرض بكعب حذائه) ...

نعم ... ذلك أمر مطلوب هناك ... ويجب على المرء هناك أن يحسن استعمال الجناس ... أن يعرف كيف يجامل وكيف يمدح بحذق وبراعة ... نعم ... كل ذلك لا بد منه هناك . وأنا يا كريستيان ايفانوفتش لم أتعلم شيئا من هذا كله ... لم أتعلم فى حياتى هذه الحيل ... لم يتسع وقتى لتعلمها ... أنا امرؤ بسيط ، بلا مكر ولا دهاء ، ولا طلاء خارجى . فى هذا المجال ، يا كريستيان ايفانوفتش ، ليس لى قدرة ؛ أنا هنا ألقى سلاحى وأتركه تماما .

نطق السيد جولياديكين بهذه الأقوال الأخيرة بلهجة تدل دلالة بليغة على أنه لا يأسف أى أسف لالقاء سلاحه فى ميدان الترهات السخيفة ، وعلى أنه لا يأسف أى أسف لكونه غير حاذق فى حيل المجتمع ومكر الناس . وكان كريستيان ايفانوفتش يصغى اليه مطرقا وقد أطال شفتيه تعبيرا عن عدم الاستحسان . كان كمن يتوجس شرا . وأعقب كلام بطلنا المسهب صمت طويل .

قال كريستيان ايفانوفتش أخيرا بصوت خافت :

ـ أحسب أنك ابتعدت قليلا عن موضوعك . أعترف لك بأننى لم أستطع أن أتابع تفكيرك الا بكثير من العناء .

ـ لست قديرا فى مجال الفصاحة يا كريستيان ايفانوفتش . لقد سبق أن تشرفت بذكر ذلك لك يا كريستيان ايفانوفتش . لا ... لست قديرا فى ميدان الفصاحة (كذلك ردد السيد جولياديكين بلهجة غدت على حين فجأة قاطعة جازمة مستبدة) .

همهم الطبيب :

ـ همم ...

واستأنف بطلنا كلامه يقول بصوت مخنوق لكنه وقور رصين ، متوقفا على كل جملة :

ـ كريستيان ايفانوفتش ، حين دخلت عليك بدأت كلامي معتذرا . والآن أريد أن أكرر ما سبق أن قلته ، ومن أجل ذلك أسألك التسامح ورحابة الصدر . ليس هناك ما أخفيه عنك يا كريستيان ايفانوفتش . أنا انسان ليس له شأن يذكر يا كريستيان ايفانوفتش ، وأنت تعلم ذلك . ولكنني لا يؤسفني ، لحسن حظي ، أنني انسان ليس له شأن يذكر . بالعكس يا كريستيان ايفانوفتش . ومن أجل ان افصح عن كل فكري أقول لك انني فخور بكوني انسانا ليس له شأن يذكر . ما أنا بالرجل الماكر الذي يدبر المكائد ... وهذا أمر أعتز به أيضا . لا أقوم بعمل من الأعمال خفية ، بل أعمل صراحة ، في وضح النهار ، دون احتيال . ورغم أنني قادر ، نعم قادر ، أنا أيضا ، على الايذاء ، فانني لا أريد الايذاء يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أريد أن ألطخ نفسي ، بل أفضل أن تبقى يداي طاهرتين . ومع ذلك فأنا أعرف وسائل الايذاء ... لكنني لا أريد أن أوذي يا كريستيان ايفانوفتش . أقول لك على سبيل الحقيقة والمجاز معا ، انني أغسل يديّ وأطهرهما .

كان السيد جولياد كين منتعشا . وفي هذا الموضع من حديثه لزم لحظة من صمت بليغ جدا ، ثم أردف يقول :

ـ أنا أسير في طريقي قدما يا كريستيان ايفانوفتش ، في وضح النهار ، لا أبحث عن دروب ملتوية ، لأنني أحتقر الأساليب الملتوية وأتركها لغيري . ولست أرغب في اذلال أناس لعلهم أشرف منك ومني ... عفوا ... أقصد أشرف مني ومن غيري يا كريستيان ايفانوفتش ، لا أشرف منك ومني . انني أكره الفخر . انني أحتقر النفاق الدنيء ،

وأحتقر الوشايات والأقاويل والنمائم • انني ألبس قناعا فى حفلة تقنع ، لا فى جميع الأيام ، تجاه جميع الناس • وأريد فى الختام أن ألقى عليك سؤالا يا كريستيان ايفانوفتش ، سؤالا واحدا : كيف تنتقم أنت من عدو، من عدو رهيب ، أو من عدو تعده رهيبا على الأقل ؟

هنا توقف جولياديكين عن الكلام راشقا كريستيان ايفانوفتش بنظرة تحد • لقد صب كلامه المسهب المطنب بوضوح وجلاء وثقة لا يدانيها وضوح ولا جلاء ولا ثقة ، فكان يزن كل قول من أقواله ساعيا الى احداث أقوى تأثير ممكن • ولكن ما ان أنهى خطابه حتى أخذ يتفرس فى محدثه وهو يشعر بقلق شديد ، بقلق عظيم • انه يلتهمه الآن بنظراته التهاما ، ينتظر جوابه خائفا وجلا مشوشا نافد الصبر تفيض نفسه هما وغما • فما كان أشد استغرابه وذهوله حين لم يزد كريستيان ايفانوفتش على أن دمدم ببضع كلمات بين أسنانه ؟ ثم قرب كرسيه من المائدة وقال له بلهجة جافة ولكنها لا تخلو من أدب وتهذيب ، ان وقته ثمين جدا ، وانه لايفهم هذه الأقوال كلها فهما واضحا ؟ وانه يظل مع ذلك فى خدمته وتحت تصرفه ، ولكن فى حدود اختصاصه ، أما فى كل ما عدا ذلك فلا يتحمل أية تبعة • قال الطبيب ذلك ثم أخرج ريشة ، وتناول ورقة فتناها ثم قطعها على قد الورقة التى تكتب عليها الوصفات الطبية ، ثم أعلن لبطلنا أنه سيصف له علاجا مناسبا •

تمتم جولياديكين وهو ينتصب على قدميه ويخطف يد الطبيب اليمنى:

ـ لا •• لا •• يا كريستيان ايفانوفتش ••• لا حاجة الى هذا•• لا حاجة الى هذا البتة • حقا يا كريستيان ايفانوفتش لا ضرورة لهذا •

ولكن بينما كان السيد جولياديكين يقول هذا الكلام كان شخصه يعانى تحولا غريبا • ان بروقا عجيبة تومض فى عينيه الرماديتين ، وان

ارتجافا اختلاجيا يهز شفتيه ، وان عضلات وجهه ترتعش • ان جسمه كله ينبض • واستطاع بالاستمرار فى حركته الأولى أن يوقف يد الطبيب ، ثم تسمر فى مكانه جامدا لا يتحرك ، ولاح عليه أنه يتردد منتظرا أن يوحى اليه بما يجب عليه أن يفعله •

مشهد غريب جرى عندئذ بين الرجلين • الطبيب متحير لحظة ، مسمر على كرسيه ، ثم فاقد صبره ، محملق فى السيد جولياداكين • وجولياداكين يحدق الى الطبيب هو أيضا بهذه الشدة نفسها وهذا العنف نفسه • وينتصب كريستيان ايفانوفتش أخيرا ، متشبثا بياقة ردنجوت زبونه • فيقف الرجلان وجها لوجه لحظات ، جامدين صامتين ، لا يحول أحد منهما بصره عن صاحبه • وعندئذ يظهر الرد الثانى لدى السيد جولياداكين ، يظهر ظهورا مباغتا غريبا ليس فى الحسبان • ان شفتيه تختلجان ، وان ذقنه ترتجف ارتجافات عنيفة ، وها هو ذا ينفجر آخر الأمر باكيا • انه يشهق ، ويهز رأسه ، ويلطم صدره بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى متشنجة على ياقة سترة كريستيان ايفانوفتش • أراد أن يتمتم بضع كلمات ، أراد أن يقدم بعض الشروح ، ولكن ما من كلمة أمكن أن تخرج من فمه •

واستطاع كريستيان ايفانوفتش أخيرا أن يثوب من ذهوله الطارىء وأن يعود الى صوابه •

دمدم يقول وهو يدفع السيد جولياداكين الى المقعد :

ـ كفى ، أرجوك ، هدىء نفسك ، أقعد •

قال السيد جولياداكين بصوت أصم مهموم :

ـ لى أعداء يا كريستيان ايفانوفتش ، نعم ، لى أعداء • أعداء عتاة آلوا على أنفسهم أن يضيعونى •••

ـ هيا ... دعك من هذا ! ... أى أعداء هم هؤلاء ! ما ينبغى لك أن تفكر فى أعدائك . اقعد اقعد ..

بذلك ختم الطبيب كلامه وقد استطاع أخيرا أن يقعد السيد جولياديكين .

كف بطلنا عن الهيجان . ولكن عينيه ما تزالان ثابتتين على وجه كريستيان ايفانوفتش . وكان واضحا أن كريستيان ايفانوفتش منزعج فهو يذرع الغرفة طولا وعرضا . وساد صمت طويل .

قال السيد جولياديكين أخيرا ، وهو ينهض منكسر النفس مغلوبا :

ـ أشكرك يا كريستيان ايفانوفتش ، أشكرك شكرا لا حدود له . اننى متأثر أشد التأثر بكل ما صنعته من أجلى اليوم . لن أنسى فضلك ما حييت ، وسأظل معترفا بجميلك أبد الدهر .

فكان رد الطبيب على هذه المحاولة الجديدة من السيد جولياديكين أن قال له :

ـ كفى .. أقول لك كفى .. هدىء نفسك .

ثم أضاف وهو يدفعه مرة أخرى الى الكرسى :

ـ قل لى الآن : ما الذى يشغل بالك ، ما الذى يقلق نفسك ؟ حدثنى عن متاعبك .. وقل لى قبل كل شىء : من هم هؤلاء الأعداء الذين تشير اليهم ؟ ما الذى يجرى على غير ما تحب ؟

قال السيد جولياديكين مطرقا الى الأرض :

ـ لا .. يا كريستيان ايفانوفتش ، لا .. دعنا من هذا كله الآن .. سنتحدث فيه مرة أخرى .. دعنا من هذا كله ليوم آخر ، ليوم

أنسب من هذا اليوم يا كريستيان ايفانوفتش ، ليوم يصبح فيه كل شيء واضحا ، ليوم تسقط فيه الأقنعة عن بعض الوجوه .. نعم ، ليوم ينجلى فيه كل شيء . أما الآن ... أقصد ... بعد كل ما جرى بيننا ... تعرف ذلك بنفسك يا كريستيان ايفانوفتش ... فاسمح لى أن أتمنى لك يوما سعيدا يا كريستيان ايفانوفتش ..

بهذا ختم السيد جولياديكين كلامه ناهضاً متناولا قبعته ، وقد لاح فى وجهه الحزم .

ـ لك ما تشاء .. همم ..

وصمت الطبيب لحظة ثم أردف يقول :

ـ اعلم على كل حال أننى ، من جهتى ، سأفعل كل ما يمكننى أن أفعله ... اعلم اننى أريد لك الخير صادقا كل الصدق .

ـ أنا أفهمك يا كريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك . نعم ، أفهمك كل الفهم اليوم ... ومهما يكن من أمر ، فأرجوك أن تغفر لى ازعاجى اياك يا كريستيان ايفانوفتش ..

ـ همم ... لا ... ليس هذا ما أردت أن أقوله . على كل حال ، افعل ما يحلو لك . وواظب على العلاج كالعادة .

ـ سأواظب على العلاج ، كالعادة ، كما أمرتنى ياكريستيان ايفانوفتش ، نعم ... سأواظب ... وسأشترى الدواء من الصيدلية نفسها ... ليست الصيدلة فى أيامنا هذه بالتجارة البسيطة ياكريستيان ايفانوفتش .

ـ بأى معنى تقول هذا ؟

بالمعنى العادى يا كريستيان ايفانوفتش ، أريد أن أقول بذلك ان الأمور تجرى على هذا النحو فى هذه الأيام ..

ـ همم ...

ـ نعم ، وان أيسر شاب رقيع ، لا الصيادلة وحدهم ، يسمح لنفسه اليوم بجميع الوقاحات فى معاملة انسان خير .

ـ همم ... ماذا تقصد ؟

ـ أقصد يا كريستيان ايفانوفتش شخصا بعينه نعرفه جميعا يا كريستيان ايفانوفتش ، نعرفه حق المعرفة ، أنا وأنت ... أقصد فلاديمير سيميونوفتش ، اذا شئت أن أسميه ...

ـ ها ...

ـ نعم يا كريستيان ايفانوفتش ، ولكننى أعرف كذلك أناسا لا يتورعون عن مجافاة آداب المجتمع من أجل أن يقولوا ما يفكرون فيه.

ـ ها .. كيف ذلك ؟

ـ الأمر بسيط . ولكن هذه الحالة حالة خاصة فى حقيقة الأمر . هناك أناس يعرفون ، عند اللزوم ، أن يقدموا لك طبقا من الطعام هو حسك بالقشدة !

ـ حسك بالقشدة ؟

ـ نعم .. حسك بالقشدة ... ياكريستيان ايفانوفتش ... هذا تعبير شعبى ... نعم ، هناك أناس يعرفون كيف يخفون خبثهم وراء ستار من الملاطفة ... هناك أناس من هذا القبيل ياكريستيان ايفانوفتش .

ـ الملاطفة ؟

ـ نعم ، الملاطفة .. التهنئة .. اليك المثال : كان على أحد أصدقائى الحميمين ، فى هذه الأيام الأخيرة ...

ـ ماذا كان عليه ؟

كذلك سأل الطبيب وهو يتفرس وجه السيد جولياديكين بانتبـــاه شديد :

ـ نعم ، كان على أحد أصدقائى الحميمين أن يهنىء صديقا آخر من أصدقائى ، وهو رجل محبب جدا ، لطيف جدا ، يمكن أن يسمى صديقا ممتازا . لقد رقى هذا الصديق الثانى الى درجة أعلى فى الادارة التى يعمل فيها ، فاليك العبـــارات التى قالها له الصـديق الأول مهنئا : «يسعدنى أعمق السعادة يافلاديمير سيمينيوفتش أن أقدم اليك تهانى ، أن أقدم أصدق تهانى ، ومما يزيدنى سعادة أن الزمان الذى نعيش فيه ، كما لا يجهل ذلك أحد ، هو زمان أبناء ذوى الغنى والنفوذ » .

كان السيد جولياديكين يشفع كلماته الأخيرة هذه بتحريك رأســه تحريكا يفيض بمعانى الدهاء ، ويشفعها بغمزات مكر يوجهها الى محدثه :

ـ همم ... اذن هذا ما قاله له ؟

ـ نعم هذا ما قاله له ياكريستيان ايفانوفتش ، قاله له بهذا النص نفسه ، قاله وهو يحدق أيضا فى عينى آندره فيليبوفتش ، عمّ صاحبنا ، عمّ فلاديمير سيمينوفتش .

وفى الواقع يا كريستيان ايفانوفتش ، فيم يهمنى أن يرقى الى رتبة معاون قاض ، فيم يهمنى ذلك ؟ وأكثر من هذا أنه يريد أن يتزوج ، على أن حليب مرضعته لما يجف على شفتيه ، اذا أذنت لى بهذا التعبير ..

نعم ... لقد قلت لهذا الفلاديمير سيمينوفتش ... هاقد ذكرت لك كل شيء ... فاسمح لى أن أنصرف .

ـ همم ..

ـ نعم ياكريستيان ايفانوفتش ، اسمح لى الآن أن أنصرف . وبعد الالماع الى أبناء ذوى الغنى والنفوذ ، أردت أن أصيب بحجر واحد طائرين . كنا عند أولسوفى ايفانوفتش . وكان ذلك أول أمس . فالتفت نحو كلارا أولسوفيفنا التى كانت قد غنت أغنية عاطفية ، وقلت لها : « لقد غنيت هذه الاغنية بكثير من العاطفة فى الواقع، ولكن الذين استمعوا اليك لم يعجبوا بك بقلب نقى جدا . » . كانت غمزتى واضحة جدا جدا يا كريستيان ايفانوفتش . أنت تفهمها حق الفهم . لقد أفصحت لها بهذه الغمزة افصاحا واضحا عن أن الذين يستمعون اليها لا ينشدونها هى ، بل ينشدون من ورائها شيئا آخر .

ـ آ ... وماذا فعل هو ؟

ـ بلعها ... ياكريستيان ايفانوفتش ... على حد التعبير الشعبى .

ـ همم ...

ـ نعم .. تماما ياكريستيان ايفانوفتش . أما الشيخ ، أبو الآنسة ، فقد قلت له : « أولسوفى ايفانوفتش ، أنا أعرف كل ما أدين لك به ، وأقدر ما أسبغته علىّ من حسنات منذ طفولتى حق قدره . ولكننى أرجوك أن تفتح عينيك يا أولسوفى ايفانوفتش . انظر حواليك ! أما أنا فأحاول أن أخرج المسألة الى الضوء يا أولسوفى ايفانوفتش » .

ـ آ ... هكذا ...

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش .. هكذا ..

ـ وهو ، عندئذ ؟

ـ هو ؟ ماذا تتوقع أن يعمل يا كريستيان ايفانوفتش ؟ لقد أخذ يهرف ويخبط فى كلامه خبط عشواء •• قال لى : « أنا أعرفك جيدا ••• ان صاحب المعالى انسان يفيض كرما وجودا ••• » ، ثم استرسل فى حديث غامض مبهم : ماذا تتوقع ؟ لقد أخرفت السنون عقله كما يقال •

ـ ها ••• اذن هكذا جرت الأمور •

ـ تماما يا كريستيان ايفانوفتش • ونحن جميعا كذلك • هو شيخ عجوز ، قلت لك ذلك • احدى قدميه فى القبر ، كما يقال ، ولكن يكفى أن تسترسل أمامه فى نمائم حتى يصبح آذانا مصغية •

ـ نمائم ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش • انهم يحيكون الآن مؤامرة • والدب الكبير ، العم ، أسرع يضع يده فى العجين ، وكذلك ابن الأخ ، صاحبنا الصبى ، طبعا ! ••• لقد تواطئوا مع عدد من النساء العجائز ، ولا شك أنهم طبخوا طبقا على طريقتهم ••• هل تعرف ماذا اخترعوا من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ من أجل أن يغتالوا انسانا ؟

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، من أجل أن يغتالوا انسانا • من أجل أن يغتالوه معنويا • أطلقوا شائعة ••• ما زلت أقصد صديقى الحميم فى الواقع ••• فهمته ؟

أنغض كريستيان ايفانوفتش رأسه ، علامة التأييد •

ـ نعم ••• روجوا عنه اشاعة ••• أعترف لك ياكريستيان ايفانوفتش أننى أستحى أن أذكر لك الاشاعة التى روجوها ••

ـ همم ...

ـ أشاعوا عنه أنه قد تعهد تعهدا رسميا بالزواج .. أنه قد خطب أخرى ... هل تتصور هذه الأخرى التى أشاعوا أنه خطبها ؟

ـ صحيح ؟

ـ صاحبة معطم حقير ، ألمانية ، امرأة عامية ، يتناول وجباته فى مطعمها . زعموا أنه خطبها .. سدادا لديونها عليه .

ـ هم الذين يحكون هذا ؟

ـ هل تصدق يا كريستيان ايفانوفتش ؟ هذه الألمانية ، الحقيرة ، الدنيئة ، التى لا حياء لها ، هذه الكارولين ايفانوفنا ... أتعرفها ؟

ـ أعترف أننى من جهتى ...

ـ أفهمك ياكريستيان ايفانوفتش ، أفهمك . أنا أيضا ، من جهتى، أحس أن ...

ـ قل لى من فضلك : أين تسكن الآن ؟

ـ أين أسكن ياكريستيان ايفانوفتش ؟

ـ نعم .. أريد أن أعرف .. أظن أنك كنت فى الماضى تعيش ..

ـ صحيح ياكريستيان ايفانوفتش ، كنت أعيش ، كنت أعيش ... نعم ، كنت فى الماضى أعيش ... هذا واقع ... كنت أعيش ...

كان السيد جولياديكين يجيب بذلك مرفقا كلماته بضحكة نحيلة . ولاح أن جوابه قد بث القلق والاضطراب فى نفس محدثه .

قال الطبيب :

ـ لا ... لقد أسأت فهم سؤالى ... أردت أن أقول اننى من جهتى ...

ـ أنا أيضا أردت أن أقول ياكريستيان ايفانوفتش ، انني من جهتي ...

كذلك قال السيد جولياديكين ضاحكا . ولكن يظهر أنني أطلت زيارتي يا كريستيان ايفانوفتش . آمل أن تأذن لي بالانصراف الآن ..

ـ همم ...

ـ تماما ياكريستيان ايفانوفتش ، أنا أفهمك ، أنا أفهمك كل الفهم ... وأخيرا اسمح لي أن أتمنى لك يوما سعيدا .

هكذا ردد السيد جولياديكين بغير أي كلفة أو حرج ازاء محدثه . ثم انحنى محييا وخرج من الغرفة ، تاركا الطبيب في ذروة الذهول .. هبط السلم وهو يبتسم ابتسامة مشرقة ، ويفرك يديه فرحا مرحا . حتى اذا صار عند باب العمارة استنشق الهواء النقي ، وشعر بتحرر وانطلاق. وأوشك أن يعد نفسه أسعد انسان على وجه الأرض ، وهم آن يتجه نحو مكتبه ، لولا أنه سمع فجأة قرقعة عجلات ورنين جلاجل ... انها عربة واقفة أمام الباب . فرفع عينيه وتذكر كل شيء . وفتح بتروشكا باب العربة . فشعر السيد جولياديكين في هذه اللحظة باحساس غريب أليم . واصطبغ وجهه بحمرة بضع لحظات . لكأن قلبه قد طعن .. ووضع قدمه على درجة العربة ، ثم التفت ينظر نحو نوافذ كريستيان ايفانوفتش . لقد حزر ! كان الطبيب واقفا هنالك يرقبه مستطلعا متعجبا ، يلاعب لحيته بيده اليمنى . قال جولياديكين لنفسه وهو يرتمي في ركن من العربة : « هذا الطبيب غبي . نعم ، غبي جدا . قد يكون بارعا في معالجة مرضاه . ولكن ذلك لا يمنع أنه غبي كأوزة » .

استقر السيد جولياديكين في العربة أخيرا . وعوى بتروشكا يقول للسائق : «هيا» . ودرجت العربة من جديد متجهة نحو شارع نفسكي.

الفصل الثالث

ذلك الصباح فى حركة جهنمية •

فحين وصلت العربة الى شارع نفسكى ، امر السيد جولياداكين بالوقوف على مقربة من جوستينى دفور ، ثم قفز من العربة وأسرع يدخل تحت القناطر يحاذيه خادمه الوفى بتروشكا ، وماهى الا لحظة حتى كان فى أحد مخازن المصوغات الذهبية والفضية ، ولم يلبث ، وقد بدا مرهقا بالهموم والتبعات الثقال ، يساوم على طقم كامل للمائدة ، وعلى طقم للشاى ، فاستطاع أن يحصل عليهما بألف وخمسمائة روبل ، وبهذا السعر نفسه حصل على علبة سيجار أخاذة المظهر وعلى طقم كامل من أمواس الحلاقة بالفضة ، واهتم أيضا ببعض الأشياء المفيدة والجميلة ، ووعد وعدا جازما فى آخر الأمر بأن يعود غدا ، بل بأن يرسل أحدا بعد الظهر لاستلام هذه المشتروات ، وحرص على أن يسجل عنوان المخزن دقيقا ، وأصغى بانتباه الى البائع الذى أثار مسألة العربون ، فوعده بأن يدفعها فى الوقت المناسب ، ثم ودع البائع المشدوه مسرعا وخرج • طاف

السيد جولياديكين الشارع دون أن يحول بصره عن بتروشكا، يتبعه رهط من أصحاب الدكاكين . وكان واضحا أنه يبحث عن مخزن آخر . وفيما هو يطوف الشارع توقف عند أحد « الصرافين » ، فأبدل أوراقه المالية الكبيرة بأوراق مالية صغيرة ، وبدا ، رغم خسارته فى التبـــديل ، مغتبطا بهذه العملية اغتباطا كبيرا ، لأنها ضخمت حجم محفظته تضخما واضحا . وبعد ذلك دخل مخزن أقمشة للسيدات ، فأوصى هنالك أيضا على أشياء كثيرة ، متعهدا تعهدا قاطعا بأن يعود فى الغداة ، وسجل كذلك العنوان ، وأجاب على سؤال البائع عن العربون بأنه سيدفعه فى حينه . ثم دخل دكاكين أخرى ، فسأل عن أسعار أشياء شتى ، مساوماً فى كل مكان ، تاركا مخزنا من المخازن ليعود اليه بعد قليل ، مناقشا التجار حول الأسعار مناقشة طويلة لا تنتهي ، باذلا نشاطا كبيرا على وجه العمـــوم . حتى اذا ترك حى جوسيتينى دفور ، اتجه الى مخازن عرض الأثاث ، فسأل عن اثاث كامل لست حجرات ، وتلبث طويلا أمام مقعد طريف من المقاعد التى تعد « آخر صيحة » من صيحات الموضة ، ثم خرج من المخزن بعد أن تعهد للبائع بأن يرسل من يستلم هذه الأشياء كلها حالا ، وبعد أن وعد بدفع عربون على عادته .

وزار مخزنا آخر من مخازن عرض الأثاث أيضـا ، فأوصى على أشـاء أخر . كان يبدو أن حاجته الى هذا النشاط لا ينضب لها معين . ثم هذا المكر كله . حتى لقد
، لا يدرى الا الله لماذا .. وهو ،
لحظة ، على أية حال من الأحوال ، أن يجد
نفسه وجها لوجه امام اندره فيليبتش ، أو حتى أمام كريستيان ايفانوفتش .. وفى أثناء ذلك دقت الساعة الثالثة . فاستقر الســـيد جولياديكين فى

عربته • لقد أنهى أعمال الشراء التى سعى فيها ، فلم يشتر بعد نهار من البحث الا قفازين وزجاجة عطر بروبل ونصف روبل •

ولا يزال أمامه متسع من الوقت • لذلك أمر الحوذى أن يمضى به الى مطعم مشهور فى شارع نفسكى كان لا يعرفه الا بالاسم • فلما وصل الى المطعم خرج من عربته وأسرع يدخل قاعته ، بنية الاستراحة قليلا ، وتناول أكلة خفيفة ، وانتظار « ساعته » خاصة • أكل كما يأكل امرؤ ينتظر عشاء هاما دسما ، فيقرر أن يطعم شيئا يخادع به الجوع • وشرب كذلك كأسا صغيرا من الفودكا ، ثم قبع فى أحد المقاعد ، وبعد أن أجال بصره فى القاعة ، استغرق بهدوء فى قراءة جريدة وطنية صغيرة •

قرأ سطرين أو ثلاثة أسطر ، ثم نهض ينظر الى نفسه فى المرآة ، فرتب شعره وهندامه قليلا ، ثم اقترب من النافذة فألقى نظرة ليتأكد من أن عربته لا تزال فى مكانها ••• وعاد أخيرا الى مقعده وتناول جريدته من جديد ••

كان واضحا انه قلق مضطرب • وألقى نظرة على الساعة المعلقة فى الحائط فعلم أن الساعة هى الثالثة والربع • لا يزال عليه أن ينتظر مدة طويلة • وقدر السيد جولياديكين أنه ليس من اللائق كثيرا أن يبقى أمام مائدة خالية ، فأمر لنفسه بفنجان من الشوكولاتة ، رغم انه لم تكن به أية رغبة فى احتساء شىء من الشوكولاتة فى تلك اللحظة والحق يقال• شرب الشوكولاتة • فلما لاحظ بعدئذ أن عقرب الساعة قد قطع مسافة طويلة نهض ليدفع الحساب • وفى تلك اللحظة نقره أحد على كتفه • فالتفت فرأى أمامه اثنين من زملائه هما اللذان التقى بهما صباحا فى شارع ليتاينايا ـ وهما شابان مبتدئان فى الحياة وفى الوظيفة الحكومية ، وكانت

علاقة بطلنا بهما علاقة ملتبسة ، فلا هى علاقة مودة ، ولا هى علاقةعداوة صريحة •

كان الطرفان كلاهما يحاولان أن يراعيا قواعد اللياقة ، ولكن كان يبدو أن قيام تقارب وثيق بينهما أمر مستحيل • أما فى اللحظة الحاضرة فقد لاح أن هذا اللقاء قد أزعج السيد جولياديكين كثيرا ، فهو يقطب حاجبيه ، بل يبدو مضطربا خلال بضع لحظات •

وسرعان ما أخذ الشابان الموظفان يزقزقان قائلين :

ـ يا كوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ يالهـا من مصادفة !

فأسرع السيد جولياديكين يقاطعهما وقد انزعج قليلا بل استاء من هذه الدهشة التى أظهرها الموظفان على هذا النحو الفج ، وبهـذه الطريقة التى ليس فيها تحرج ولا كلفة ، أسرع يقاطعهما قائلا :

السيدان •

هجة انطلاق كاذب وجرأة زائفة ، فقال :

ذن هاربان أيها السيدان ! هه هه هه !

أجل أن يبرز المسافة بينه وبينهما ، ومن أجل أن يرد هذين ين الطائشين الى مكانهما ، حرك يده بحركة من يريد أن يربت على كتفى واحد منهما • ولكن طابع الألفة الملاطفة التى أراد أن يطبع به حركته لم يوفق ، فبدلا من أن يقوم بحركة هادئة محتشمة فعل شيئا آخر تماما • وسأل الشابين :

ـ وبعد ••• ألا يزال صاحبنا الدب فى المكتب ؟

ـ من تقصد يا ياكوف بتروفتش ؟

ـ الدب ... ألا تعرفان من يطلق عليه اسم الدب ؟

قال جولياديكين ذلك وأخذ يضحك. والتفت نحو المستخدم يتناول باقى الدراهم ، ثم أضاف :

ـ هو آندره فيليبتش طبعا !

وضع النقود فى جيبه ، ثم كرر سؤاله بلهجة جادة جدا هـــذه المرة . فتبادل الموظفان نظرة ذات دلالة ، وقال أحدهما يجيبه :

ـ نعم يا ياكوف بتروفتش ... انه لا يزال فى المكتب ، حتى لقد طلبك .

ـ ها ... لا يزال هناك .. طيب ... فليبق هناك . وقد طلبنى اذن ؟

ـ نعم طلبك يا ياكوف بتروفتش . ولكن ماذا جرى لك ؟ أراك متعطرا متدهنا ... أنيقا كل الأناقة !

ـ نعم ، أيها السيدان ، نعم ... الخلاصة ...

قال السيد جولياديكين ذلك وحول عنهما بصره محاولا أن يبتسم .. واذ رأى الموظفان انه يبتسم أخذا يضحكان مقهقهين قهقهة صاخبة . فقطب السيد جولياديكين وعبس ، ثم قال بعد لحظة صمت ، عازما ، فيما يظهر ، على أن يكشف لهما عن حقيقة هامة :

ـ أحب أن أقول لكما ، أيها السيدان ، على مودة وصداقة ، انكما لم تعرفانى حتى الآن الا فى ضوء معين ... ولست ألوم آيا منكما على ذلك . ولعلنى أنا المسئول عنه .

زم السيد جولياد كين شفتيه وتفرس فى محدثيه وقد بدا فى وجهه الجد والوقار • فتبادل الشابان مرة أخرى نظرة عجلى مختلسة •

ـ انكما ، أيها السيدان ، لما تعرفانى بعد • وليس من المناسب فى هذه الساعة وفى هذا المكان أن أشرح لكما من أنا • ولكننى أحب أن أقول لكما بضع كلمات عابرا • ان هناك ، أيها السيدان ، أناسا لايحبون الطرق الملتوية كثيرا ، ولا يلبسون قناعا الا حين يذهبون الى حفلة مقنعة، أناسا يؤمنون بأن حياتهم يجب ألا تنقضى فى تعلم اتقان تلميع البلاط بنعالهم • وان هناك أيضا ، أيها السيدان ، أناسا لا يعدون أنفسهم فى ذروة السعادة حين يرتدون سراويل جميلة التفصيل • وان هناك ، آخر الأمر ، أناسا يكرهون أن يتحركوا كثيرا فيما لا طائل تحته ، ويحتقرون الاستعراضات والدسائس والتملق ، ويتحاشون فوق ذلك كله ، أيها السيدان ، أن يحشروا أنوفهم حيث لا يجب أن تكون • والآن اسمحوا أن أستأذنكم بالانصراف •

توقف جولياد كين عن الكلام • وبدا على الشابين الموظفين أنهما مسروران بكلامه المسهب كل السرور، لأنهما لم يلبثا أن انفجرا ضاحكين فى كثير من الوقاحة • التهب السيد جولياد كين غيظا وقال :

ـ اضحكا أيها السيدان •• اضحكا ما اتسع وقتكما للضحك ••

ثم أضاف مستاءً وهو يتناول قبعته ويتجه نحو الباب :

ـ من يعش ير ••

ولكنه عاد يلتفت نحوهما مرة أخيرة ليقول :

ـ ومع ذلك أيها السيدان ، أحب أن أقول لكما أيضا ، أحب أن أذهب الى أبعد من ذلك ، مادمنا هنا بين أربعة جدران ، فأقول لكلما :

هذه مبادئى فى الحياة : « الصمود عند الاخفاق ، رباطة الجأش عنـد النجاح ، والامتناع عن الاضرار بأحد على أية حال من الأحوال» . لست بالرجل الذى يحسن تدبير المكائد ، وانى بذلك لفخور . لست أصلح للدبلوماسية . يقال أيها السيدان ان الطائر يطير نحو الصياد قدما . الا أن فى هذا القول نصيبا من صدق ، وانى لأصدقه على كل حال . ولكن قولا لى : من الصياد ومن الطائر فى عالمنا هذا ؟ ... تلكما مسألة يجب أن تناقش أيها السيدان .

وبعد لحظة من صمت يفيض بلاغة ، اصـطنع السيد جولياديكين هيئة أخرى جادة وقورة الى أبعد حدود الجد والوقار ، ثم حيا محدثيه مقطب الحاجبين مزموم الشفتين ، وخرج تاركا صاحبيه على أشد حالة من الذهول .

سأله بتروشكا بلهجة قاسية ، وقد بدا عليه السأم من التجـول فى هذا البرد القارص :

ـ الى أين نذهب الآن ؟

وكرر سؤاله ، فاذا هو يلتقى بنظرة رهيبة صاعقة ، بتلك النظـرة التى سبق أن استعملها السيد جولياديكين مرتين فى الصباح ، ولجأ اليها الآن مرة أخرى وهو يهبط درجات باب المطعم .

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى .

صاح بتروشكا :

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى . هيا ! ...

«المفـروض ألا يبـدأ العشـاء عندهم قبل الساعة الرابعة ... وقد لا يبدأ قبل الخامسة ... ألست اذن ذاهبا قبل الأوان ؟ ولكن ماذا لو

وصلت قبل الموعد ! هذا عشاء عائلى • نعم ••• أستطيع أن أسمح لنفسى بالمجيء دون التقيد « بالرسميات » ••• « بغير كلفة » كما يقال فى أوساط الناس المهذبين • لماذا لا يكون من حقى أن أتصرف «بغير كلفة» ؟ لقد أنبأنا الدب أن كل شيء سيكون « بغير كلفة » فى منزلهم ••• فلماذا لا أستعمل أنا هذا الحق ؟ ••• » ذلك كان مجرى خواطر السيد جولياداكين أثناء الطريق • ومع ذلك كان اضطرابه ما ينفك يزداد • كان واضحا أنه يتهيأ لمواجهة موقف حرج شائك ، اذا لم نقل أكثر من ذلك • كان السيد جولياداكين يهمس ، ويلوح بيده اليمنى ، وينظر من خلال باب العربة بغير انقطاع •

حقا ان من يراه فى هذه اللحظة على حالته تلك ، لا يمكن أن يتصور أنه ذاهب الى عشاء ، الى عشاء عائلى ، « بغير كلفة » ، كما يقال فى أوساط الناس المهذبين • ووصل أخيرا قرب جسر اسماعيلوفسكى ، فعين للحوذى احدى العمارات ، فاجتازت العربة باب العمارة مقرقعة ، وتوقفت عند سلم الجناح الأيمن من المبنى • ولمح السيد جولياداكين على نافذة الطابق الثانى وجه امرأة ، فبعث اليها بقبلة على راحة يده • والحق أنه لم يكن يدرك هو نفسه ماذا يفعل ••• كان فى تلك اللحظة لا ميتا ولا حيا • وخرج من العربة ، شاحب الوجه ، مضطرب النفس ، وصعد درجات المدخل ، ونزع قبعته بحركة آلية ، وعدل ثيابه واندفع يصعد السلم مصطك الركبتين •

سأل الخادم الذى جاء يفتح له الباب :

ـ هل أولسوفى ايفانوفتش فى بيته ؟

فأجابه الخادم :

ـ نعم هو فى بيته ••• بل ليس هو فى بيته ••

ـ كيف ؟ ماهذا الذى تقوله ياصديقى ؟ أنا آت للعشاء أيها الرجل الشهم • ثم انك تعرفنى •

ـ طبعا • ولكنى أُمرت أن لا أدعك تدخل •

ـ أنت ••• أنت مخطىء ••• ولا شك • هـذا أنا •• أنا مدعو ••• مدعو الى العشاء يا صاحبى ••

كذلك قال السيد جولياد كين متدفقا فى الكلام ، نازعا عنه معطفه ، عازما على الدخول الى الصالون •

قال الخادم :

ـ معذرة • ممنوع • لقد أُمرت بأن لا أستقبلك ••• أمرت بأن أمنعك من الدخول • هذا كل شىء •

امتقع لون السيد جولياد كين • وفى هذه اللحظة فتح باب احدى غرف البيت ، وأقبل منها الى حجرة المدخل الخادم العجوز الذى يعمل عند أولسوفى ايفانوفتش •

قال الخادم الأول يخاطب العجوز :

ـ يا ايميليان جيراسيموفتش ••• أنظر الى هـذا السيد ••• انه يريد الدخول ، وأنا •••

ـ أنت غبى يا ألكسى • امض الى الخـدمة فى الصالونات ، وابعث الىّ بذلك الوغد سيميوفتش •

قال جيراسيموفتش ذلك ، ثم التفت الى السيد جولياد كين ، فأعلن له بلهجة مهذبة ولكنها قاطعة :

سيدى • مستحيل استحالة مطلقة يا سيدى • مولاى ، انه لا يستطيع أن يستقبلك •

دقة أنه لا يستطيع أن يستقبلنى ؟

بن خجلا • ثم أضاف :

موفتش ••• ولكن لأى سبب هـذه الاستحالة

•• مستحيل استحالة مطلقة •• لقد أعلنت وصولك ، فقيل له أن يعذرنا » • الخلاصـــة ••• لا يستطيع مولاى أن

ـ ولكن لماذا ؟ كيف ؟ كيف ؟

ـ عجيب ! اسمح لى •••

ـ ولكن لماذا ؟ هذا غير ممكن • قل لى ••• ولكن ••• لماذا ؟ أنا مدعو الى العشاء ••• « على كل حال اذا كان يطلب أن أعذره فذلك أمر آخر •• وعلى ذلك يا جيراسيموفتش ••• اشرح له ••• أرجوك •

ـ عفوا ••• اسمح •••

قال جيراسيموف ذلك وهو يبعد بيده السيد جوليـادكين جازما ، فاتحا بذلك ممرا عريضا لسيدين دخلا الدهليز • انهما آندره فيليبوفتش وابن أخيه ، فلايمير سيميونوفتش • تفرس الرجـلان كلاهما فى السيد جولياركين مذهولين • وأراد آندره فيليبوفتش أن يقول شيئا ، ولـكن السيد جولياركين كان قد عزم أمره، فها هو يغادر حجرة المدخل خافض العينين ، محمرّ الوجه ، مشعث الهيئة ، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة •

ـ سأمر فيما بعد يا جيراسيموفتش • سأجيء أشرح الأمر ••• لا شك فى أن كل شيء سيتضح فى حينه •

دمدم بذلك وهو يجتاز العتبة منتقلا الى فسحة السلم •

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش •••

كذلك نادى آندره فيليبوفتش وهو يهرع وراء بطلنا • وكان بطلنا قد أصبح على فسحة الطابق الأدنى • فالتفت بقوة نحو آندره فيليبوفتش• سأله بصوت قاطع :

ـ ماذا تريد يا آندره فيليبوفتش ؟

ـ ما الذى جرى يا ياكوف بتروفتش ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شيء يا آندره بتروفتش • لقد جئت الى هنا من تلقاء نفسى • هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش •

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان هذا شأن من شئون حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش، وأحسب أنه ليس لأحد أن يأخذ علىّ شيئا من سلوكى فيما يتصل بعلاقاتى الرسمية •

ـ ماذا تقول ؟ فيما يتصل بعلاقاتك الرسمية ؟ ••• ولكن ماذا بك أيها السيد ؟ ماذا بك ؟

ـ لا شيء ••• يا آندره فيليبوفتش • لا شيء اطلاقا • بنيّة وقحة •• ولا شيء غير ذلك •

ـ كيف ؟ كيف ؟

اضطرب آندره فيليبوفتش ، وذهل ، فأصبح لا يعرف ماذا يقول

•• وكان السيد جولياداكين أثناء ذلك الحوار ما يزال واقفا على فسحة سلم الطابق الأدنى ، محدقا ببصره الى رئيسه ، وكأنه يهم أن يثب عليه فى كل لحظة • واذ أدرك بطلنا اضطراب محدثه خطا خطوة الى أمام ، بغير شعور تقريبا • فتراجع آندره فيليبوفتش خطوة أيضا • فتقدم جولياداكين مزيدا من التقدم ، فنظر آندره فيليبوفتش حواليه وقد بدا فى وجهه القلق • وفجأة أخذ السيد جولياداكين يصعد السلم بخطى سريعة •• ولكن خصمه وثب أسرع منه ، فدخل البيت ، وأغلق الباب وراءه •

لبث السيد جولياداكين وحيدا على السلم • زاغت عيناه • ظل واقفا هنالك ، مصعوقا ، مسمَّرا ، يجتر خواطر غريبة • عادت الى خياله ذكرى • انها ذكرى تتصل بموقف عجيب وجد فيه منذ مدة قصيرة •

دمدم يقول وهو يحاول أن يبتسم :

ـ هه هه •••

وفى تلك اللحظة سمع وقع أقدام وصوت كلام فى الطابق الأدنى •• لا شك أنهم مدعوون آخرون من ضيوف أولسوفى ايفانوفتش • ثاب السيد جولياداكين الى رشده ، فأسرع يرفع ياقة فراء معطفه ، ويخفى وجهه فيها ما استطاع اخفاءه ، ثم أخذ يهبط السلم بخطى سريعة ، متواثبا متعثرا ، يوشك أن يسقط عند كل خطوة • كان يشعر بوهن ، ويحس بنوع من الخدر • وقد بلغ من الاضطراب أنه حين وصل الى درجات المدخل لم ينتظر أن تتقدم العربة اليه ، بل اتجه هو اليها مجتازا الفناء الموحل • وحين همَّ أن يصعد الى العربة أحس فجأة برغبة قوية فى أن يغور تحت الأرض أو أن يختبىء هو وعربته فى جحر من جحور الفئران • خيِّل اليه أن جميع من كانوا فى هذه اللحظة عند أولسوفى

قد وقفوا ينظرون اليه ، أحس أنه لو التفت لحظة واحدة لمات على الفور في مكانه .

ـ ما الذى يضحكك أيها الغبى ؟

كذلك سأل بتروشكا بعنف بينما كان بتروشكا يساعده فى ركوب العربة :

ـ أنا ؟ لا شىء ! لست أضحك ... الى أين نذهب الآن ؟

ـ الى البيت . بسرعة .

صاح بتروشكا وهو يستقر فى مؤخرة العربة :

ـ الى البيت !

« بوز غراب » . كذلك قال السيد جولياديكين فى نفسه .

وتحركت العربة ... وقطعت جسر اسماعيلوفسكى ، فاذا بالسيد جولياديكين يشد الحبل شدا قويا بعد مدة على حين فجأة ، ويأمر الحوذى بالعودة القهقرى . فيدير الحوذى الحصانين ، ويصل بعد دقيقتين مرة أخرى الى الفناء من العمارة التى يقع فيها منزل أولسوفى ايفانوفتش .

صاح بطلنا :

ـ قف . لا داعى . اخرج .

وكأن الحوذى كان يتوقع أن يصدر اليه هذا الأمر الجديد ، فلم يحتج ، بل دار فى الفناء دون أن يتوقف وخرج الى الشارع .

لم يأمره السيد جولياديكين بأن يعود به الى منزله ، بل أمره بأن يقطع جسر سيميونوفسكى ، ثم أمره بدخول شارع صغير ، ثم بالتوقف

عند حانة حقيرة المظهر • هنالك نزل من العربة ، فنقد الحوذى أجره ، وأمر بتروشكا أن يمضى ينتظره فى البيت • أما هو فقد دخل الحانة ، فاتخذ لنفسه مكانا خاصا وأمر بعشاء • كان فى حالة نفسية سيئة • ان رأسه مقر سديم لا يصدّق • سار فى الصـــالون زمنا ، وهو نهب قلق شـديد • وجلس آخـر الأمر دافنا جبينه فى يديه ، وأخـذ يفكر بكل ما أوتى من قوة باحثا عن حل للمشكلة التى يطرحها الموقف •

الفصل الرابع

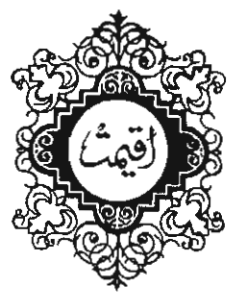

فى ذلك اليوم الرائع الفخم ، وهو عيد ميلاد كلارا أولسوفيفنا ، البنت الوحيدة لمستشار الدولة بيرنديف ، الذى كان فى الماضى حاميا للسيد جولياديكين، أقيمت فى ذلك اليوم حفلة عشاء ذات أبهة وعظمة وجلال لم يُشهد لها مثيل منذ زمن طويل فى منازل كبار الموظفين من حى اسماعيلوفسكى وغيره ، حفلة عشاء لها مظاهر وليمة من ولائم بلتازار ، يذكر بذخها وترفها وتنسيقها بالمآدب البابيلونية الكبرى • لم يعوز هذه الحفلة شىء ، لا شمبانيا كليكو ، ولا المحار ، ولا الفاكهة التى تشترى من محلات ايليسييف وميلوتين الشهيرة • كانت الصالونات مزدحمة بجمهرة مرموقة متلألئة من الناس تضم جميع كبار موظفى الحكومة • وقد اختتم ذلك اليوم المشهود الذى تميز بتلك الوليمة الفاخرة ، اختتم بحفلة راقصة ، كانت عائلية طبعا ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت رائعة فخمة الى أبعد حدود الروعة والفخامة ، سواء من ناحية حسن الذوق ومن ناحية علو مقام الشهود •

أنا أعلم ان الحفلات الرافصة التى من هذا النوع موجودة ، ولكنها نادرة• انها اعياد كبرى يحتفل بها احتفالا عائليا ، وهذه الاعياد لا تقوم عادة الا فى بيوت راقية جدا ، كبيت مستشار الدولة بيرنديف مثلا • بل اننى لأذهب الى أبعد من ذلك فأدعى أن مستشارى الدولة لا يقدرون جميعا على اقامة مثل هذه الحفلات ! اه ••• يا ليتنى كنت شاعرا ! ••• شاعرا له مواهب هوميروس او بوشكين (ذلك اننى بمواهب دون مواهب هذين الشاعرين لا اجازف •••) اذن لصورت لك ، أيها القارىء ، بريشه بارعة والوان زاهية ، الخطوط الكبرى من ذلك الاصيل المظفر !

لو كنت شاعرا املك تلك المواهب لبدأت قصيدتى بوصف العشاء ••• ولألححت خاصة على تلك اللحظة الفذة الفريدة الفخمة ، التى رفع فيها أول كأس احتفاء بملكة ذلك اليوم : كنت سأظهرك أولا على المدعوين وقد تجمدوا انتظارا ، وصمتوا صمتا مهيبا ، صمتا هو الى بلاغة ديموستين أقرب منه الى البكم • ثم أقدم اليك آندره فيليبوفتش ، عميد هذا الحفل ، الذى يمتاز فوق ذلك بجميع حقوق النصدر ، اذ نهض مزين الصدر بالأوسمة ، تزينا ينسجم وشعره الأشيب ، فنطق بأولى التمنيات ، رافعا كأسه المملوءة بخمر نادر ، خمر يستورد من مملكة بعيدة للاحتفال بأحداث هى على هذا القدر من خطورة الشأن وعلو القيمة ، خمر هى شراب ثمين أشبه برحيق الآلهة منه بخمر البشر ؛ ولصورت لك بعد ذلك المدعوين وأبوى ملكة اليوم السعيدين ، لحظة رفعوا كئوسهم اقتداء بآندره فيليبوفتش ، وقد ثبتت نظراتهم عليه بانتظار خطابه • .

ولأريتك آندره فيليبوفتش نفسه ، وقد تأثر تأثرا عميقا فذرف فى كأسه دمعة خاطفة ، ثم لصورته لك يكيل المديح للجميلة ويعرب لها عن تمنياته ويقترح على المدعوين أخيرا أن يشربوا نخبها ، ويفرغ كأسه•••

ولكننى أعترف لك بكثير من التواضع أيها القارىء أننى كنت سأعجز حتما عن وصف تلك اللحظة التى تمتاز بروعة قصوى ، أعنى اللحظة التى رئيت فيها كلارا أولسوفيفنا ، ملكة هذا العيد ، يزهو وجهها كوردة من ورود الربيع ، وتحمر سعادة وخفرا ، ثم ترتمى بين ذراعى أمها الحنون وقد فاضت نفسها انفعالا . وكنت سأعجز كذلك عن تصوير هذه الأم الحنون ذارفة دموع السعادة ، وعن تصوير الأب أولسوفى ايفانوفتش مستشار الدولة . لقد كان هذا الشيخ المحترم الوقور ينشج باكيا ؛ نعم لقد كان هذا الرجل الذى فقد خلال السنين الطويلة التى قضاها فى الوظائف استعمال ساقيه ، ولكن كافاه القدر على ذلك مكافأة عادلة، فزوده بمال كثير ، ومنزل جميل ، وأملاك عدة ، ووهب له ، خاصة، ابنة جميلة كالنهار ، أقول كان هذا الرجل ينشج باكيا كطفل ، ويؤكد من خلال الدموع ان « صاحب السعادة محسن عظيم ... » . لا ... ما كان لى بحال من الأحوال أن أصف الانفعال الشديد الذى استولى فى تلك اللحظة على الحضور الذين تعلقت أبصارهم بشفتى آندره فيليبوفتش .

ان موظفا شابا من موظفى السجل (وكان مظهره فى تلك الدقيقة أقرب الى مظهر مستشار محترم منه الى مظهر موظف بسيط فى السجل)، لم يستطع أن يحبس عندئذ دموعه ، فعبر بذلك عن انفعال سائر الحضور.

وكان مظهر آندره فيليبوفتش ، من جهة ، لا يشبه فى تلك اللحظة مظهر مستشار ، مظهر رئيس دائرة ... لا ... وانما كان مظهره مظهرا آخر ، مظهرا لا أستطيع أن أصفه ، ولكنه ليس مظهر مستشار على كل حال ... فلقد كان يحلق ... كان فوق كل هذا ...

وأخيرا ، لو كنت أملك تلك المواهب اذن لـ ... ولكن أين أنا من الأسلوب الناصع الرفيع ، أين أنا من الأسلوب القوى المشرق الذى يمكننى

من وصف الجو العاطفى المؤثر فى تلك اللحظات الرائعة التى تهيب بالمرء الى السمو الأخلاقى ، وهى لحظات من الحياة يبدو كل شىء فيها أنه يسهم فى تأكيد ظفر الفضيلة على الجمود والكفر والرذيلة والحسد ... لا .. اننى أوثر أن أصمت ، وأوثر بالصمت ، بصمت هو أبلغ من الكلام ، أن أصف لكم ذلك الفتى السعيد الذى شارف على السادسة والعشرين من عمره ، فلاديمير سيميونوفتش ؛ ابن أخى آندره فيليبوفتش . انه الآن واقف يقترح ، بدوره ، نخبا آخر .

جميع النظرات معلقة به : نظرات الأبوين المخضلة بالدموع ، ونظرات عمه الساطعتين اعتزازا ، والنظرات التى تفيض خفرا وحياء من ملكة اليوم ، والنظرات التى تشع حماسة من أكثر المدعوين ، وأخيرا نظرات بعض زملاء هذا الشاب اللامع ، وهى نظرات تقرأ فيها شيئا من حسد . أريد أن أصمت . ولكن هذا الفتى ملىء بما يجذب اليه ويغرى فيه . والحق أن مظهره أقرب الى مظهر شيخ ، بالمعنى الحسن من معانى هذا التشبيه طبعا . ان وقفته ووجهه المحمر ورتبته (وهى رتبة معاون قاض) التى تلتحم به التحاما فكأنهما شىء واحد ، ذلك كله كان فى تلك اللحظة كأنه يهتف قائلا : « تلك هى الدرجات القصوى من السعادة التى يمكن أن تقود الفضيلة انسانا اليها . » . لا ولا أريد أن أروى لكم تفصيلا كيف اقترح أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، الموظف برتبة رئيس دائرة ، زميل آندره فيليبوفتش ، وزميل أولسوفى ايفانوفتش فى الماضى ، والصديق القديم للأسرة ، وعرّاب الفتاة فوق ذلك ، نعم كيف اقترح هذا الشيخ العجوز ، ذو الجمجمة التى تشبه القمر ، نخبا آخر هو أيضا ، وكيف غنى على طريقة الديك بعض الأمازيح المقفاة . ان هذا التجرؤ الذى كان نسيانا لائقا للياقة ـ ان صح التعبير ـ قد أضحك جميع الحضور حتى الدموع ، وهذه كلارا أولسوفيفنا نفسها تنهض بموافقة أبويها فتقبله

وتشكره فى كثير من اللطف والمرح • وحسبى أن أضيف أن المدعوين ، كما ينتظر ذلك فى ختام وجبة كهذه الوجبة ، قد أخذوا يشعرون ، بعضهم نحو بعض ، بعواطف حارة جدا ، أخوية جدا •

ونهضوا أخيرا عن المائدة • فأما الرجال المتقدمون فى السن بعض التقدم ، فانهم بعد أن تبادلوا كلمات تتسم بالمودة الحارة والصداقة الحميمة، انسحبوا فى وقار الى الصالون القريب • وأما الشباب ـ وكان الوقت ثمينا ما ينبغى أن يضيع سدى ـ فلم يلبثوا أن جلسوا الى موائد القمار الخضراء شاعرين شعورا عميقا بقيمتهم الخاصة • وأما السيدات اللواتى مكثن فى الصالون الكبير فسرعان ما تلطفن تلطفا نادرا فذا وأخذن يتحدثن فى شئون الزينة • وهذا رب المنزل ، الشيخ المحترم الذى فقد استعمال ساقيه فى خدمة العدالة والحقيقة وكوفىء على النحو الذى ذكرناه آنفا ، يطوف على حلقة ضيوفه متوكئاً على عكازين ، تسنده ابنته وفلاديمير سيميونوفتش • وتستبد بالشيخ النبيل على حين فجأة لطافة عجيبة فيقرر أن يقيم حفلة راقصة مرتجلة دون أن يهتم بالنفقات • وهذا فتى نشيط (هو ذلك الموظف فى السجل ، الذى قلنا انه أشبه بشيخ محترم منه بمراهق) ، يرسل فورا للمجىء بموسيقيين على جناح السرعة •

وصل الموسيقيون بعد قليل ، وعددهم أحد عشر موسيقيا ، وفى الساعة الثانية والنصف تماما دوت أولى ألحان رقصة فرنسية ، ثم تبعتها رقصات أخرى ••• لا داعى الى القول ان ريشتى لا تملك من الرهافة والقوة ما يمكننى من أن أصف وصفا أمينا هذه الحفلة الراقصة المرتجلة التى تكرم بها رب المنزل المبيض الرأس ، لما أوتى من لطف فذ وكرم نادر • وأنى لى أنا القصاص المتواضع الذى يروى مغامرات السيد جولياداكين ـ وهى مغامرات عجيبة ، أعترف بذلك ـ أنى لى أن أنقل الى

القارىء ذلك التألق الخارق والانسجام الرائع فى ذلك العيد الذى ائتلف فيه الجمال والتلألؤ والفرح والمرح ائتلافا موفقا مع الأناقة المحتشمة والاحتشام الأنيق • كيف أصف ألعاب وضحكات جميع هاته السيدات اللواتى كن أشبه بغادات أساطير منهن بنساء موظفين ـ وذلك مديح أزجيه لهن ـ كيف أصف وجناتهن وأكتافهن التى تشبه أن تكون ألوانها ألوان زهر الليلك ، كيف أصف قاماتهن المشوقة وأقدامهن الصغيرة الماكرة النشيطة ••• وكيف أصف فرسانهن اللامعين ، هؤلاء الممثلين المحترمين للادارة الحكومية !

ان المراهقين والكهول ، الفرحين والرصينين من الشبان ، والمرحين والحالمين ، والذين يمضون بين كل رقصة ورقصة الى الصالون الاخضر الصغير ليدخنوا غليونا والذين لا يدخنون بين كل رقصة ورقصة ••• ان هؤلاء جميعا يحملون أسماء مجيدة • ان لهم جميعا ألقابا شريفة • انهم جميعا يفيضون لباقة ورشاقة وأناقة ، ويشعرون شعورا عميقا بقيمتهم ومنزلتهم • ويكادون يتخاطبون جميعا بالفرنسية ، وحتى الذين يستعملون منهم اللغة الروسية يعبرون عن أنفسهم بطريقة رفيعة راقية مزاوجين بين المرح وبين الجمل المثقلة بالمعانى • فى صالون التدخين ، فى صالون التدخين فقط ، كانوا يسمحون لأنفسهم بشىء يسير من الخروج على اللغة الراقية ، فتفلت من ألسنتهم جملة مألوفة لطيفة من هذا النوع : « هيه••• يا بيرو التقى النقى ••• لقد عرفت كيف تفضح صاحبتك » أو « مرحى أيها الوغد فاسيا ، لقد وصلت الى غاياتك ، عرفت كيف تتعب غادتك بغير رحمة • » •

ولكن قلمى يخوننى أيها القارىء ، كما سبق أن تشرفت بأن قلت لك هذا • لذلك أوثر أن أصمت أو قل أن أعود الى السيد جولياد كين البطل الحقيقى لهذه القصة الصادقة •

يجب أن أقول ان حالته الآن غريبة بعض الغرابة ، اذا لم أقل أكثر من ذلك • انه حاضر هناك ، هو أيضا ، أيها السادة • ليس حاضرا فى حفلة الرقص ، ولكنه يشبه أن يكون حاضرا فيها • ليس لديه أية نية سيئة يا سادتى • انه لا يريد أن يسىء الى أحد • ولكنه مع ذلك فى منعطف سىء • هو الآن ـ وانه لغريب حتى أن نقول هذا ـ فى دهليز سلم الخدمة بمنزل أولسوفى ايفانوفتش • لا شىء فى ذلك يا سادتى ، لا شىء فى ذلك • ان السيد جولياديكين لم يفكر فى أى سوء • هو الآن قابع فى ركنه الصغير • لقد لطا فى ركن صغير غير دافىء جدا بطبيعة الحال ، ولكنه ركن مظلم فى مقابل ذلك ، تخفيه بعض الاخفاء خزانة ضخمة وحواجز قديمة • انه فى وسط كومة من الخرق العتيقة والأوانى القديمة • انه مختف فى هذه اللحظة ، يراقب ، ويتابع مجرى الأحداث مشاهدا محايدا • انه حتى الآن ، أيها السادة ، لا يزيد على أن يلاحظ • فى وسعه طبعا أن يدخل هو أيضا أيها السادة ••• ولماذا لا يكون فى وسعه أن يدخل ! ليس عليه حتى يدخل الا أن يتقدم خطوة واحدة • سيعرف كيف يدخل برشاقة • انه قابع هناك منذ ثلاث ساعات ، فى البرد ، وراء الخزانة والحواجز ، وسط كل هذه الأكداس • انه ينتظر • ومن أجل أن يبرر نفسه أمام نفسه ، تذكر منذ لحظة جملة للوزير الفرنسى السابق فيليل : « من صبر ظفر » • لقد قرأ هذه العبارة سابقا فى كتاب لا قيمة له ، وهى تعود الآن الى ذاكرته فى وقتها تماما • انها تناسب وضعه الراهن جدا • ويجب أن نقول أيضا أن أفكارا كثيرة تراود خاطر انسان يمكث منتظرا ، فى دهليز بارد مظلم ، خلال ثلاث ساعات ، أن تنتهى الأحداث الجارية الى حل موفق •

هكذا ، بعد أن تذكر جملة الوزير الفرنسى فى الوقت المناسب ، خطر بباله ـ لا يدرى الا الله لماذا ـ الوزير التركى القديم مارزيميريس ،

ثم خطرت بباله مارجراف لويز الجميلة ، التى كان قد قرأ قصتها فى أحد الكتب • ثم خطر بباله بعد ذلك أن اليسوعيين قد اتخذوا مبدأ لهم أن يعدوا جميع الوسائل حسنة متى كانت تؤدى الى تحقيق الغاية المنشودة • ان تذكر هذه الحقيقة التاريخية قد بث فى نفس السيد جولياديكين شيئا من الثقة • حتى لقد استخرج منها على الفور أن هؤلاء اليسوعيين ، أن جميع اليسوعيين ، من أولهم الى آخرهم ، أغبياء أقصى الغباوة ، وانه قادر على أن يضعهم جميعا فى جيبه ! ••• آه ••• ليت الغرفة التى يوجد فيها البوفيه خالية ، ولو دقيقة واحدة (هى الغرفة التى تتصل رأسا بالدهليز الذى يقبع فيه السيد جولياديكين فى هذه اللحظة) ••• لو كانت خالية اذن لاجتاز هذه الغرفة ، رغم جميع اليسوعيين ، ولانتقل بعد ذلك الى الصالون الكبير ، فالى غرفة القمار ، من أجل يدخل من هناك الى القاعة التى يقوم فيها رقص البولكا • نعم ، لو كانت الغرفة خالية اذن لمر حتما ، مهما كلف الأمر ••• ان فى وسعه أن يتسلل خفية ••• فما يلاحظه أحد ، وتنجح حيلته ••• وسيعرف عندئذ ماذا بقى عليه أن يعمل ••• تلك كانت ، فى هذه اللحظة ، الحالة النفسية لبطل قصتنا الصادقة ، رغم أنه ما يزال يصعب علينا كثيرا أن نصف عواطفه وصفا دقيقا •

طبعا ، لقد استطاع أن يصل الى سلم الخدمة والى الدهليز على أساس التفكير التالى : « ماداموا قد وصلوا هم ، فلماذا لا أصل أنا ؟ » • أما أن يمضى الى أبعد من ذلك ، فهذا أمر آخر ••• انه لم يجرؤ أن يفعل ••• لا عن جبن طبعا ، بل بمحض ارادته : انه يؤثر أن يتصرف خفية ••• وهو الآن يرقب فرصة التسلل خلسة • انه يرقب هذه الفرصة منذ ثلاث ساعات • ولماذا لا يصبر ؟ ان فيليل نفسه قد صبر • « ولكن ما شأن فيليل هنا ؟ » • كذلك قال السيد جولياديكين لنفسه فجأة ،

«ثم من هو فليل هذا ؟... أما أنا فيجب علىّ الآن أن أتمكن من الدخول ... فما العمل ؟ ألا انك أشبه بأولئك الممثلين الثانويين الذين لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا على خشبة المسرح ... ألا انك لشخص غبى أبله». هكذا قال جولياداكين لنفسه وهو يقرص خده المتجلد بأصابعه المتخدرة من شدة البرد . « ما أنت الى جولياداكا مسكين ، لا أكثر من ذلك ... أنت اسم على مسمى ! » .

يجب أن نذكر أن هذه المداعبات الصغيرة التى داعب بها جولياداكين شخصه قد نطق بها جولياداكين دون أى هدف معين ، بل تزجية للوقت فحسب . ولكن ها هو ذا يتقدم . لقد خلا البوفيه . لم يبق فيه أحد . لاحظ جولياداكين ذلك من كوة صغيرة ... خطوتان ، فاذا هو على الباب. وهمّ أن يفتح الباب ...

« أأمضى أم لا أمضى ؟ نعم ، أأمضى أم لا أمضى ؟ بل سأمضى ... لماذا لا أمضى ؟ الشجاع يجد طريقه دائما . » . بث هذا التفكير بعض الثقة فى نفس بطلنا . ولكن ها هو ذا يتراجع فجأة . « لا ... لا يجب ... هب أحدا دخل فى هذه اللحظة ... هذا واحد يدخل فعلا . لماذا تكاسلت ببلاهة حين كانت الطريق خالية ؟ يجب أن أقتحم وأن أدخل مهما كلف الأمر ... يجب أن أقتحم . الكلام سهل . جرب أن تقتحم وأنت على ما أنت عليه من طبع متردد ، ومزاج جبان . لقد خفت ... كدجاجة مبللة . هو الهلع والجزع ... ما فى ذلك شك ... أنا أعرفك .. هو الجبن .. أعرفه فيك .. لا جدال فى هذا .. اذن ليس عليك الا أن تبقى حيث أنت ، كرزمة ، كرزمة لا أكثر .. لو كنت فى منزلى الآن لكنت بسبيل احتساء فنجان طيب من الشاى . واذا تأخرت عن العودة سيأخذ بتروشكا يفيق حتما ... أليس الأفضل أن أعود الى

المنزل ؟ نعم ، والى جهنم كل ما عدا ذلك ! هيا ، سأعود . انتهى الأمر ... .

ما ان اتخذ جولياديكين هذا القرار حتى وثب وثبة مفاجئة الى أمام ، كأن نابضا قد انفلت فيه على حين بغتة . فاذا هو ، بخطوتين اثنتين ، فى القاعة المخصصة للبوفيه . وما لبث أن خلع معطفه بسرعة ، ونزع قبعته ، فدسهما فى ركن ، ثم رتب شعره وزينته بعض الترتيب ، و ... و ... أخيرا ، تقدم .. فاجتاز الصالون ، وتسلل من هناك الى غرفة أخرى ، فمر بين المقامرين المحمومين دون أن يلاحظه أحد ... وبعدئذ ... ابتداء من تلك اللحظة أصبح السيد جولياديكين لا يدرك شيئا مما يجرى حوله ، وها هو ذا يظهر فى قاعة الرقص منقضاً انقضاض الصاعقة .

وشاءت المصادفة التى تشبه التعمد ، أن يكون الرقص متوقفا فى تلك اللحظة بعينها . السيدات يتجولن فى القاعة جماعات متألقة.والرجال مجتمعون حلقات تتحدث ، وبعضهم يطوفون فى القاعة محتجزين حسناواتهم للرقصة القادمة . ولكن السيد جولياديكين لم ير الا كلارا أولسوفييفنا ، والا آندره فيليبوفتش الى جانبها . ولاحظ أيضا فلاديمير سيميونوفتش ، ثم لاحظ ضابطين أو ثلاثة ، وشابين أو ثلاثة شبان لهم مظهر ملىء بوعود كثيرة ... وعود يكون بعضها فى بعض الأحيان قد تحقق ... وكأن النابض الذى دفع جولياديكين دفعا الى دخول حفلة الرقص التى لم 'يدع اليها كان ما يزال يحركه هو نفسه . فها هو ذا يتقدم ثم يتقدم ، فيصطدم فى طريقه بمستشار ويدوس على قدمه ؛ ثم يسير أثناء اندفاعه على أطراف من ثوب سيدة عجوز فيمزقه ، ويزحم خادما كان يطوف على المدعوين بطبق ، ويصدم سيدا آخر أيضا ، ولكن دون أن يلاحظ شيئا من هذا كله ، أو قل متظاهرا بأنه لا يلاحظ شيئا

ولا يرى شيئا ، وانما هو يتقدم ثم يتقدم الى أن وجد نفسه وجها لوجه أمام كلارا أولسوفيفنا .

لا شك أبدا ، نعم لا ريب اطلاقا فى أنه لو استطاع فى هذه اللحظة بعينها أن يغيب تحت الأرض الى الأبد ، لفعل ذلك بغير أى تردد، وبسرور عظيم . ولكن فات الأوان ، وما وقع فقد وقع .

أمر لا يغتفر ... ما الذى بقى عليه أن يعمله ؟ قال السيد جولياد كين لنفسه : « الصمود عند الاخفاق ، والاستمرار عند النجاح .. ليس السيد جولياد كين انسانا ماكرا يدبر المكائد ، انه لا يملك فن تلميع خشب الأرض بنعليه ... ذلك هو الأمر . وشر ما فى المسألة أن هؤلاء اليسوعيين يتدخلون ... اليسوعيون ... لا شأن له بهم الآن . وها هم جميع أولئك الناس الذين كانوا حتى تلك اللحظة يتجولون ويتحدثون ويضحكون ، ها هم أولاء يتوقفون فجأة بما يشبه السحر ، ويصمتون ويتحلقون دائرةً حول السيد جولياد كين .

أما بطلنا فكأنه كان لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ... كان لايستطيع أن ينظر اليهم .. لا .. ما كان له أن ينظر اليهم بحال من الأحوال. كان واقفا هنالك ، مسمَّرا على قدميه ، مطرقا الى الارض .

قال فى نفسه « يمينا لأطلقن على رأسى رصاصة فى هذه الليلة .. أما الآن فليكن ما يكون . » . وما كان أشد دهشته وأعمق انشداهه هو نفسه حين أخذ يتكلم فجأة . بدأ السيد جولياد كين كلماته بالتهنئات والتمنيات المألوفة .

انطلق يزجى التهنئات بلا مشقة ، ولكنه حين وصل الى التمنيات أخذ يدمدم. وشعر فى ذات نفسه أنه اذا أخذ يجمجم بكلام غير مفهوم

فقد فسد كل شيء حتما • وذلك ما وقع • لقد تخبط لسانه ••• فتوقف عن الكلام ••• غاص فى الكلمات ، احمر وجهه ، فقد توازنه •• رفع عينيه •• طاف بها على الحضور طويلا •• تفرس فى الناس •• انهار •

المدعوون من حوله جامدون ، بكم ، ينتظرون النهاية • وأخذت دمدمات تسمع خارج الحلقة • وانطلقت ضحكات • نظر السيد جولياديكين الى آندره فيليبوفتش نظرة مذلة وخضوع • فرد عليه آندره فيليبوفتش بنظرة كانت خليقة أن تلقيه على الارض جثة هامدة بدون شك ، لولا أنه كان قد أصبح أقرب الى الموت منه الى الحياة قبل ذلك • وطال الصمت•

تمتم السيد جولياديكين يقول بصوت لا يكاد يسمع ، وهو يشبه أن يكون ميتا من شدة الذعر :

ـ مرد هذا كله الى ظروفى الخاصة ، الى حياتى الخاصة يا آندره فيليبوفتش • ليس هذا خطوة رسمية يا آندره فيليبوفتش •

أجابه آندره فيليبوفتش بصوت أجش :

ـ ينبغى لك أن تستحى أيها السيد ، ينبغى لك أن تستحى •

كان آندره فيليبوفتش فى ذروة الاستياء • وتناول يد كلارا أولسوفييفنا وأدار ظهره للسد جولياديكين •

ـ ليس لى أن أستحى يا آندره فيليبوفتش • مم أستحى ؟

كذلك تمتم السيد جولياديكين ، بينما كانت عيناه تطوفان على الحفل باحثتين بين أفراد هذا الجمهور المتجمد عن وجه معروف ، عن انسان من بيئته ، من منزلته الاجتماعية •

وأردف يقول بصوت ما يزال خافتا :

ـ ليس هذا بشيء يا سادتى ، ليس هذا بشيء ، أؤكد لكم ، ماهذا بشيء • ذلك أمر يمكن أن يقع لجميع الناس •

وحاول جولياديكين أن يخرج من الحلقة مترددا متعثرا فأفسح له ممر • واستطاع بطلنا أن يتسـلل بين صفين من المشـاهدين المبهوتين المستطلعين المتعجبين • لقد كان قدره يقوده • أدرك السيد جولياديكين ذلك ادراكا كاملا • لا شك أنه كان مستعدا لأن يدفع أغلى ثمن فى سبيل أن يجد نفسه مرة أخرى فى ركنه الصغير ذاك من دهليز سلم الخدم ، دون أن يكون عليه من أجل ذلك أن يخالف قواعد الحشمة والأدب • ولكن ذلك كان مستحيلا بعد الذى وقع • لذلك وجه جميع جهوده نحو العثور على ركن صغير هادىء ، ركن صغير يستطيع أن يندس فيه ، أن يلبد فيه • لو استطاع أن يقع على مثل هذا الركن لمكث هنالك متواضعا ساكنا مسالما لا يزعج أحدا ولا يلفت اليه نظر أحد ؛ ولاستطاع بسلوك لا مأخذ عليه أن يحظى بحسن معاملة المدعوين ورب المنزل •

ولكن جولياديكين شعر فى تلك اللحظة بنوع من دوار • شعر أن قواه تخور ، وأنه يوشك أن يسقط • وكان قريبا جدا من الركن الصغير المنشود ، فالتجأ اليه واعتصم به ، واستقر هنالك ، ثم لم يلبث أن اتخذ وضع مشاهد يلاحظ ملاحظة محايدة • وفى الوقت نفسـه اختطفت يداه ظهرى كرسـيين واستولتا عليهما استيلاء حازما ، وأخذت عيناه ، وقد استردتا نشاطهما تقتحمان أعين أصدقاء كلارا أولسوفيفنا المتجمعين حوله• كان على مقربة منه ضابط فارع القامة قوى الجسم جميل المظهر • فشعر جولياديكين ازاء أنه أشبه بذبابة صغيرة •

ـ سيدى الملازم ، ان هذين الكرسيين محجوزان ؛ فهذا لكلارا

أولسوفييفنا وهـذا للأميرة تشفتشيكانوف ، اللتـان ترقصـان الآن ، وأنا أحفظهما لهما .

كذلك تمتم السيد جولياد كين بلهجة ضارعة . فلم يجبه الملازم ، بل رشقه بنظرة صاعقة ، وأشاح وجهه عنه . واذ شعر بطلنا أنه صد من هذه الجهة وخذل ، جرب حظه فى جهـة أخـرى ، فاستفرد سيدا خطيرا الشأن يزدان صدره بوسام من درجة عالية ، وهو مستشار دولة ، فكانت النظرة التى رد عليه بها هذا السيد تبلغ من تثبيط العزيمة أن أثرها كان أشبه بأثر قادوس من ماء بارد صب على رأسه. فصمت السيد جولياد كين.

قال لنفسـه : « فلنلزم الصمت . لا كلمـة بعـد الآن . يجب أن يدركوا تمام الادراك أننى واحد كسـائر النـاس ، أننى مدعـو كسائر المدعوين ، وأن مركزى لا يقل علوا عن مراكزهم » .

فلما اتخذ هذا القرار ثبت نظره على أقفية ردنجوته . ولكن بصره لم يلبث أن انتقل الى سيد ذى مظهر محترم كل الاحترام .

قال لنفسه : «هذا السيد يضع على رأسه شعرا مستعارا ، فاذا نزعت عنه الشعر المستعار لم تجد تحته الا جمجمة عارية ، نعم ، جمجمة لاتقل ملاسـة عن راحة كفى » . وما كاد السيد جولياد كين يقـوم بهـذا الاكتشاف الخطـير حتى اتجه فكره الى الأمراء العـرب . قال لنفسه : « يكفى أن تنزع العصبة التى يضعونها على رءوسهم تيمنـا بالنبى العظيم حتى لا تظهر تحتها الا جمجمة ملساء ، جمجمة عارية تماما » .

ثم انتقل فكره ، بتداعى المعانى من غير شك ، عن طريق التفكير فى شئون المسلمين ، الى البوابيج التركية ، فلاحظ أن آندره فيليبوفتش كان ينتعل حذاءين هما الى البوابيج التركية أقرب منهما الى الأحذية .

ومهما يكن من أمر فقد بدا على جولياديكين أنه أخذ يألف وضعه قليلا قليلا • وبرق في ذهنه خاطر : قال لنفسه : ليت هذه الثريا تنفصل عن سلسلتها في هـــذه اللحظة ، ليتها تسقط ، اذن لهرعت أنقذ كلارا أولسوفييفنا على الفور • سوف أنقذها عندئذ ثم لا أزيد على أن أقول لها: « لا تجزعي ! ماهذا بشيء • أنا منقذك» • ثم أخذ السيد جولياديكين يبحث عن كلارا أولسوفييفنـا بين الحضـور ، ولكنه بدلا من أن يراها ، رأى جيراسيموفتش ، رئيس الخدم العجوز في منزل أولسوفي ايفانوفتش • كان الخادم العجوز مقبلا عليه ، وقد لاح في وجهه انشغال البال • ارتعش السيد جولياديكين • شعر باحساس غريب ، غامض ، لكنه مزعج ازعاجا واضحا على كل حال • جعد السيد جولياديكين وجهـــه ونظر حوله • تمنى لو يأفل ، تمنى لو يخرج من القـاعة ، خفية ، خلسـة ، محـاذيا الجدران ، لا يراه أحد ولا يسمعه أحد • تمنى لو يتبخر ••• ولـكن كان الأوان قد فات •• فقبل أن يتخذ قرارا ، كان جيراسيموفتش قـد أصبح أمامه •

قال بطلنا وهو يبتسم :

ـ اسمع يا جيراسيموفتش ••• يجب عليك أن ••• أنظر ••• هل ترى تلك الشمعة هناك على الشمعدان الكبير ؟ انها توشك أن تسقط ••• يجب عليك أن تأمر بعدلها يا جيراسيموفتش ، والا سـقطت ••• سقطت حتما •

ـ أية شمعة ؟ ولكنها معدولة ! ••• أما أنت فان شخصا يطلبـك هناك •

ـ من يطلبني يا جيراسيموفتش ؟

ـ لا أعرف من هو تماما • انه خادم مرسل من ••• سألني : « هل

ياكوف بتروفتش جولياديكين هنا ؟ قل له أن يأتى من فضلك • هناك أمر مستعجل وهام جدا ••• » • ذلك ما قاله لى •

ـ لا يا جيراسيموفتش ، أنت مخطىء ، أنت مخطىء قطعا •

ـ أشك فى ذلك •

ـ لا يا جيراسيموفتش ، ليس هناك أى شك ، ليس هناك أى شك اطلاقا • لم يطلبنى أحد • لا يمكن أن يطلبنى أحد ، على كل حال •• وأنا هنا فى بيتى ، أقصد فى مكانى •

استرد جولياديكين أنفاسه ونظر حوله • انه يشتبه فى الامر • جميع الأعين مصوبة اليه ، جميع الآذان متجهة نحوه • ان كافة هؤلاء الناس المجتمعين فى القاعة يظهرون معلقين به ، منتظرين ما سيقع • كأن الحضور جميعا كانوا يشاركون فى الحادث • السيدات يوشوشن قلقات ، وقد ابتعدن قليلا • رب المنزل متلبث على مسافة من جولياديكين • انه لا يبدو مشاركا مشاركة فعالة فى محن بطلنا • كل شىء يجرى بكثير من اللباقة والرهافة على كل حال • ومع ذلك شعر بطلنا شعورا واضحا بأن اللحظة الحاسمة قد حانت • ان عليه أن يضرب ضربة كبرى • آن له أن يبيد أعداءه • كان السيد جولياديكين مضطربا اضطرابا عميقا • وأخيرا واتاه الوحى • فها هو ذا يخاطب جيراسيموفتش قائلا بصوت مرتجف لكنه حاسم :

ـ لاياصديقى ، لا ؟ مامن أحد يطلبنى • أنت مخطىء • أكثر من ذلك انك منذ هذا الصباح قد أخطأت حين أكدت لى ••• نعم ، حين تجرأت فأكدت لى (هنا رفع جولياديكين صوته) ان أولسوفى ايفانوفتش ، المحسن الى ، الانسان الذى كان لى منذ زمن طويل بمثابة أب ، قد أوصد

دونى بابه فى هذا اليوم الرائع ، فى هذا اليوم من أياه سعادة قلبه ، قلب الآب ...

تصفح جولياداكين الحضور . انه يبدو راضيا عن نفسه ، ويبدو فى الوقت ذاته منفعلا انفعالا عميقا . وظهرت دموع فى أطراف أهدابه .

استأنف يقول :

ـ أعود فأقول يا صديقى انك قد ارتكبت خطأ لا يغتفر .

لحظة مؤثرة . أحس جولياداكين أنه قد أحدث أثرا محققا . وقف وقفة متواضعة ، متجمعا على نفسه ، غاضا بصره ، ينتظر أن تتدفق عليه عواطف أولسوفى ايفانوفتش ، أن يعانقه أولسوفى ايفانوفتش . بدا على الحضور الاضطراب والانشداه . حتى جيرا سيموفتش الرهيب ، الذى لا يرحم ، لاح عليه أن نفسه قد اهتزت ، فهو لا يستطيع أن ينطق بكلمة ... ها هى ذى الأوركسترا ، الأوركسترا اللعينة ، تأخذ على حين فجأة تعزف رقصة بولكا .

انقطع السحر . انتهى كل شىء . انتفض السيد جولياداكين . تقهقر جيراسيموف قليلا الى وراء . اندفع جمهور المدعوين يرقص كبحر مائج . ان فلاديمير سيميونوفتش هو الذى افتتح الرقص مع كلارا أولسوفييفنا . وتبعهما الملازم الجميل يراقص الأميرة تشفتسيكانوف . الذين لم يرقصوا أسرعوا يعجبون بأزواج الراقصين الذين اندفعوا يتحركون على أنغام البولكا . ما أجمل رقصة البولكا ! انها رقصة حديثة جدا ، مثيرة جدا . لا شىء مثلها يدير الرءوس . حتى لقد أنست الناس السيد جولياداكين الى حين . غير أن انقلابا كبيرا لم يلبث أن وقع فجأة . اضطرب الناس وتزاحموا ... وتوقفت الموسيقى وسط البلبلة الشاملة . لقد وقع حادث

غريب ليس فى الحسبان. ان كلارا أولسوفيفنا قد تهاوت على أحد المقاعد، متقطعة الأنفاس ، محمرة الخدين ، لاهثة الصدر خائرة القوى ... لاشك أن الرقص هو الذى أتعبها . خفقت جميع القلوب لها . وهرع الناس يحتشدون حولها . كل واحد منهم يريد أن يظهر اهتمامه بها وقلقه عليها وامتنانه من المتعة الكبرى التى هيأتها لهم جميعا . وفجأة ظهر جولياد كين أمامها . انه شاحب الوجه ، مضطرب اضطرابا عميقا ، يبدو خائر القوى تماما هو أيضا ... انه يجر نفسه جرا ... وها هو ذا يمد يده نحوها ناظرا اليها نظرة ضارعة . كانت كلارا أولسوفيفنا مصعوقة فلم يتسع وقتها لسحب يدها . ونهضت تستجيب لدعوته كأنها آلة لا تعى ماذا تفعل. اهتز السيد جولياد كين ، وخطا خطوة الى أمام ، ثم خطوة أخرى ، ورفع ساقه ، وهم بخطوة ثالثة فضرب الارض بقدمه مترنحا فاقدا توازنه ... لقد أراد أن يرقص هو أيضا مع كلارا أولسوفيفنا ... أطلقت الفتاة صرخة. فهرع أصدقاؤها يخلصون يديها من قبضة يد السيد جولياد كين. فما هى الا لحظة حتى كان بطلنا مدفوعا ملقى على مسافة عشر خطوات من الجميلة . وسرعان ما تكونت حلقة جديدة حوله . و'سمعت صرخات حادة . انهما سيدتان عجوزتان أوشك السيد جولياد كين أن يقلبهما أثناء تقهقره المفاجىء . وعمت فوضى شديدة . الناس يسائل بعضهم بعضا ، ويتناقشون ، ويزمجرون . الاوركسترا صمتت تماما . السيد جولياد كين يتحرك وسط الحلقة التى احتشدت حوله ويدمدم كالآلة وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة قائلا : « نعم ... ولم لا ؟ البولكا فى رأيى رقصة حديثة. هى رقصة شائقة ، 'وجدت لمتعة هاته السيدات ... ولكننى أرضى أن أجربها أنا أيضا ، بسبب الظروف ... » .

ولكنهم لم يحفلوا برضاه . فما هى الا لحظة حتى أحس بطلنا بيد تمسك ذراعه ، وأخرى تتناوله من ظهره ، فى كثير من الرفق مع ذلك .

وأحس أنه يُدفع فى اتجاه معين • وسرعان مالاحظ أنهم يقودونه قدما نحو الباب • أراد السيد جولياديكين أن يقوم باشارة ، أن يقول كلمة • ولكن لا ••• لقد أصبح لا يريد شيئا البتة • أصبح يكتفى بأن يضحك ضحكا ضعيفا ، كأنه آلة لا ارادة لها • وشعر أخيرا بأنهم يلبسونه معطفه، ويغطسون رأسه فى قبعته حتى العينين • وأدرك بعد ذلك أنه صار على فسحة السلم ، فى البرد والظلام ••• وأنه أخذ يهبط السلم • زلت قدمه • خيل اليه أنه يسقط فى هاوية • أراد أن يصرخ • ولكنه كان قد أصبح فى فناء الدار • شعر بنسمة طرية تهب على وجهه • توقف هنيهة • وفى تلك اللحظة نفسها ترامت الى أسماعه أصوات رقصة جديدة • لقد عادت الاوركسترا تعزف • فتذكر السيد جولياديكين كل شىء فجأة • بدا أنه يسترد قواه • انتزع نفسه من المكان الذى كان ثاويا فيه حتى ذلك الحين كالمسمر تسميرا • وثب • طار • ظل يركض لا يلوى على شىء • الى أين كان ذاهبا ؟ الى أى مكان ••• الى أى مكان يوجد فيه هواء ••• توجد فيه حرية •••

الفصل الخامس

الساعة تدق منتصف الليل فى جميع أبراج سان بطرسبرج ، حين وصل السيد جولياديكين الى رصيف نهر فونتاكا قرب جسر اسماعيليوفسكى. كان خارجا عن طوره . انه يهرب من أعدائه وما يوقعونه فيه من ضروب الاضطهاد . يهرب من وابل الضربات التى يمطرونه بها ، يهرب من صرخات النساء العجائز المذعورات ، ومن نظرات آندره فيليبوفتش القاتلة . كان السيد جولياديكين ميتا ، متلاشيا ، بأوسع معانى الكلمة . واذا كان لا يزال الآن قادرا على أن يركض، فما ذلك الا بمعجزة ، بمعجزة لايكاد يصدقها هو نفسه. وكانت الليلة رهيبة ، رطبة، يملؤها الضباب والمطر والثلج ، وتتموج فيها أنواع الزكام والرشح والحمى، ليلة مثقلة بجميع هبات شهر نوفمبر فى سان بطرسبرج . الريح تزأر فى الشوارع المقفرة ، وتجعل مياه نهر فونتاكا السوداء تثب الى مستوى أعلى من مستوى سلاسل الضفة ، وتأتى تناكد المصابيح الضئيلة المنثورة على

الرصيف ، فتستجيب المصابيح لزئيرها المشئوم بصرير نحيل حاد. أصوات شاكية موجعة الأنين ، ألحان لا نهاية لها يعرفها جميع سكان العاصمة حق المعرفة . المطر والثلج يهطلان فى آن واحد معا . والماء تحمله هبات الريح ، فيتساقط خطوطا كثيفة تكاد تكون أفقية ولا تقل غزارة عن الماء المنهمر من مضخة . وكانت القطرات تضرب وجه المسكين جولياداكين ضربا شديدا وتمزقه تمزيقا ، حتى لكأن ألوانا من الابر والدبابيس تنفذ فى جلده .

وفى وسط ظلام الليل ، الذى تخترقه قرقعات العربات البعيدة ويخترقه زئير الريح وصرير المصابيح ، كانت تسمع ضجة متصلة مشئومة هى ضجة الماء المتساقط على الأرض من الأسطح والأفاريز والمزاريب وما من انسان يرى فى الطريق ، وهل يمكن أن يرى فى الطريق انسان فى مثل هذه الساعة المتأخرة وفى مثل هذا الجو الرهيب ! كان السيد جولياداكين وحده يكردح على رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة . انه يستعجل الوصول بأقصى سرعة الى بيته الواقع فى الطابق الرابع من عمارة بشارع « الدكاكين الست » . كان الثلج والمطر والريح وجميع عناصر الطبيعة الثائرة فى سماء تشرين الثانى (نوفمبر) بسان بطرسبرج، على ميعاد فى هذه الليلة الفظيعة ، تهاجم جولياداكين البائس من كل صوب بلا هوادة ، بعد أن هدته مصائبه الخاصة هدا كافيا ، فهى تنفذ الى عظامه، وتعمى بصره ، وترجحه وترنحه وتجعله يتعثر ويخرج عن طريقه ، وتسلبه فى الوقت نفسه آخر ما بقى له من عقل . كأن تحالفا قد قام بين قوى الطبيعة وبين أعدائه بغية افساد نهاره ومسائه وليله افسادا كاملا .

ولكن من الغريب أن السيد جولياداكين كان يبدو غير مكترث أى اكتراث بشىء مما كان يصيبه به القدر من أهوال شديدة فى ذلك الأوان.

فان ما جرى له قبل لحظات فى منزل مستشار الدولة بيزنديف كان قد قلب نفسه رأسا على عقب وهد روحه هدا • فلو رآه فى هذه اللحظة مشاهد محايد ، ورأى كيف كان المسكين يهرول على الرصيف ، اذن لأدرك على الفور مدى النوازل التى انصبت عليه منذ حين ؛ ولأدرك أن السيد جولياد كين لم يكن ينشد فى تلك اللحظة الا شيئا واحدا هو أن يهرب ، أن يختبىء ، أن يهرب من نفسه ، أن يختبىء عن نفسه • نعم، ذلك ما كان ينشده السيد جولياد كين فى تلك اللحظة • بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك • ان السيد جولياد كين لم يكن يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يهرب من نفسه فحسب ، بل كان كذلك مستعدا لأن يبذل كل شىء فى سبيل أن يتلاشى تلاشيا تاما ، فى سبيل أن يصير الى رماد فورا • هو الآن لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت الى شىء ، ولا يدرك شيئاً • انه يبدو غير حافل اطلاقا بجميع الحواجز التى تنتصب أمامه فى تلك الليلة المشئومة ، غير حافل لا بطول الطريق ، ولا بقسوة الجو والمطر والثلج والريح •

وعلى رصيف نهر الفونتاكا سقط الجرموق الذى كان يغطى حذاءه الأيمن ، وبقى غاطسا فى الوحل والثلج ، فلم يلاحظ السيد جولياد كين ذلك ، ولا خطر بباله لحظة أن يعود أدراجه باحثا عنه • كان السيد جولياد كين من شدة انشغال البال وشرود الذهن أنه رغم الاعصار توقف عدة مرات وظل على حافة الرصيف مسمرا كالوتد متجمدا بلا حراك ، يتذكر جميع تفاصيل ذلك السقوط القاسى الذى عاناه • كان يحس أنه يموت • وما هى الا ثانية واحدة حتى كان يستأنف ركضه المسعور ، هاربا من عدو خفى لا يرى ، محاولا أن يفلت من مصائب جديدة أشد هولا • كانت حاله رهيبة حقا ••

ووقف السيد جولياد كين أخيرا خائر القوى، فاتكأ على سور رصيف

النهر ، فى وضع انسان أخذ أنفه يرعف فجأة ؟ وراح السيد جولياد كين يتأمل مياه الفونتاكا السوداء العكرة • لا نستطيع أن نقول كم من الزمن لبث على هذه الحال • ولكن الأمر المحقق هو أنه قد بلغ غاية الحزن واليأس والارهاق ، حتى كاد يختنق • لقد نسى كل شىء ، كل شىء ، جسر اسماعيلوفسكى ، وشارع « الدكاكين الستة » ، ومصائبه الأخيرة ••• وأصبح لا يبالى شيئا ولا يحفل بشىء • لقد انتهت القضية ، وصدر الحكم ، وأبرم ••• ولا حيلة له فى دفع ما حدث •

وفجأة ••• فجأة ••• ارتعش جسمه كله من قمة الرأس الى أخمص القدم • وها هو ذا يتقهقر خطوتين الى وراء ، بوثبة غريزية ، ويجعل يلقى نظرات على ما حوله وهو فريسة قلق لا يغالب • ولكن ليس هنالك شىء خاص ، ليس هنالك أحد ••• ومع ذلك ، مع ذلك ، كان السيد جولياد كين قد اعتقد فى هذه اللحظة أنه لمح شخصا كان موجودا هناك ، قريبا جدا منه ، متكئا على سور الرصيف • والغريب أن هذا الشخص قد خاطبه ، وكلمه بصوت سريع متقطع • ان السيد جولياد كين لم يدرك تماما معنى أقواله ، ولكن لا شك أن أقواله كانت تدور على شىء يتصل به اتصالا وثيقا •

« ما هذا ؟ هل حلمت ؟ » كذلك تساءل السيد جولياد كين وهو يجيل بصره من جديد على ما حوله ••• « ولكن أين أنا فى الواقع ؟ آه •• آه •• » • بهذا ختم هتافه وهو يهز رأسه • ومع ذلك أخذ يتفحص الفضاء الممطر البارد الذى يحيط به وقد تملكه قلق شديد ، بل رعب قوى • حاول أن ينفذ بصره فى الظلمات التى يملؤها البخار من حوله • ولكنه لم ير شيئا • بدا له كل شىء على حاله لم يتغير • وتكاثر هطول الثلج غزارة وكثافة • فلا يستطيع المرء أن يميز شيئا أبعد من

عشرين خطوة . وكان صريف المصابيح قد اشتد أيضا ؛ وكانت الأغنية الحزينة الشاكية التى تغنيها الريح قد ازدادت كذلك حزنا وشكاة ... فكأنها ضراعات شحاذ عاد يكرر استعطاءه مصرا على أن ينفح ما يسد به رمقه . « آه ... ماذا جرى لى ؟ » ، كذلك تساءل السيد جوليادكين وهو يستأنف سيره فى طريقه بعد أن أنعم النظر فيما حوله مرة أخيرة.

وفى أثناء ذلك ظهر شعور جديد فى نفس السيد جوليادكين . لم يكن هذا الشعور قلقا ولا رعبا ... ان قشعريرة متشنجة تسرى الآن فى جسمه كله ... لحظة أليمة ... احساس لا يطاق .

« لا ضير .. ليس هذا بشىء ... قد لا تكون لهذا أية نتائج ، وقد لا يسىء الى شرف أحد . لعل الأمور كلها تجرى على أحسن وجه ... لعل جميع المسائل ستحل مع الزمن ، فلا يقول أحد بعد ذلك شيئا، ويبرر بعد ذلك كل شىء » . كذلك تابع السيد جوليادكين يقول لنفسه دون أن يفهم هو نفسه معنى أقواله . شعر السيد جوليادكين ببعض العزاء حين راودت نفسه هذه الخواطر . فانتصب قليلا ، ونفض ثيابه ، وأسقط الثلج الذى كانت طبقة كثيفة منه تغطى قبعته وياقته ومعطفه وربطة عنقه وحذاءيه . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من ذلك الشعور الغريب الحاد ، من ذلك الغم الهائل ... ودوت طلقة مدفع فى مكان ما ، بعيد جدا .

قال بطلنا :

« يا له من جو غريب ! ان طوفانا يوشك أن يحدث . يظهر أن الماء قد ارتفع ارتفاعا كبيرا » . فما ان عبر عن هذه الفكرة ، بل قل ما ان تصورها حتى رأى أمامه شخصا مقبلا عليه . لعله عابر أخرته ظروف طارئة ، كالسيد جوليادكين تماما . فلا شىء فى هذا خارق للعادة فيما

يبدو • ولكن السيد جولياديكين اضطرب اضطرابا شديدا وذعر ذعـرا قوياً ، لسبب نجهله ••• لا لأنه خشى أن يكون هـذا العابر رجلا سيىء الاخلاق ••• قال السيد جولياديكين لنفسه : « قد يكون وجود هذا الرجل المجهول هنا مصادفة من المصادفات لا أكثر ••• ولكن قد يكون لاقبـاله علىّ سبب ، فهو يريد أن يقطع طريقى وأن يتحرش بى ••• » والحق أن السيد جولياديكين لم يعبر عن هذه الفكرة تعبيرا واضحا جدا ؛ فلعلها لم تكن أكثر من حدس خاطف يصاحبه احساس أليم • ثم ان أوان التفكير والشعور باحساسات كان قد فات • فالرجل قد أصبح على مسافة خطوتين من السيد جولياديكين • فسرعان ما عمد السيد جولياديكين ، على عادته التى يحرص عليها ، الى اصطناع وضع خاص جدا ، وضع يعبر تعبيرا بليغا عن أنه ، هو جولياديكين ، موجود هنا عرضا ، ماض فى طريقه انسـانا طيبا مسالما ، لا يفكر فى أى شر ولا يخطر بباله أى سوء ، وأن الطريق عريض يتسع لجميع الناس ، أما هـو ، جولياديكين ، فليس فى نيتـه أن يستفز أحدا أو أن يتحدى أحدا • وفجأة توقف جولياديكين متجمدا كأن صاعقة نزلت عليه • والتفت بغتة ليتفحص عابر السبيل الذى تجاوزه منذ هنيهة • لكأن حركته قد أحدثها نابض أدار رأسه الى الوراء كما تدير الريح كف المعدن التى تدل على اتجاهه • وكان الرجل المجهول قد غار بسرعة فى اعصار الثلج • كان يبدو هو نفسه مستعجلا أيضا • وكان هو نفسه غارقا فى معطفه حتى الرأس كذلك ، مثل جولياديكين تماما ، وكان يكردح هو أيضا على طول رصيف الفونتاكا بخطى صغيرة سريعة متقطعة بعض التقطع •

« ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » • كذلك تمتم السيد جولياديكين وهـو يبتسم ابتسامة شك وحذر ، بينما كانت تسرى فى جسمه كله قشعريرة تهزه هزا ، وبينما أصبح ظهره كالجليد صقيعا • كان الرجل المجهـول

قد غاب ، حتى أن وقع أقدامه أصبح لا يسمع . ومع ذلك ظل السيد جولياديكين مسمرا فى مكانه لا يتحرك محدقا ببصره فى الاتجاه الذى سار فيه عابر السبيل . وأخيرا ثاب السيد جولياديكين الى رشده قليلا قليلا ، فقال لنفسه متحسرا : « ماذا دهانى ؟ أترانى أصبحت مجنونا ؟ » . ثم التفت واستأنف سيره معجلا ومضاعفا خطاه ، محاولا أن يخلى دماغه مما يغلى فيه ، حتى أنه أغمض عينيه فى سبيل أن يحقق هذا الهدف. وفجأة ، وسط زئير الريح وهمهمة العاصفة سمعت أذناه مرة أخرى وقع أقدام تقترب منه ، فارتعش ، وفتح عينيه ، فاذا هو يرى أمامه من جديد ، على مسافة عشرين خطوة ، شكلا انسانيا . كان الشكل يتقدم نحوه سريعا . كان الرجل يبدو مستعجلا . وكانت خطواته قوية متقطعة . ان المسافة التى تفصل بينهما تتناقص تناقصا سريعا. أصبح السيد جولياديكين يستطيع أن يميز قسمات وجه هذا العابر المتاخر تمييزا واضحا . وها هو ذا يتفرس فيه ... فيطلق صرخة قوية من فرط الانشداه والرعب . اصطكت ركبتاه . ان العابر هو ذلك الرجل نفسه الذى التقى به جولياديكين قبل عشر دقائق ، يظهر الآن له فجأة من جديد . على أن ظهور هذا الرجل مرة أخرى على هذا النحو الذى يثير وحده الحيرة والاضطراب لم يكن مع ذلك هو السبب الوحيد فى انشداه السيد جولياديكين . وقد بلغ السيد جولياديكين من شدة الاضطراب أنه جمد فى مكانه وتنحنح بصوت أجش ، وأراد أن يقول شيئا ، ثم أسرع فجأة يلاحق الرجل المجهول معولاً ، ربما ليحاول أن يوقفه بأقصى سرعة ممكنة . وتوقف الرجل المجهول فعلا ، ولبث على مسافة عشر خطوات من بطلنا . كان ضوء المصباح القريب ينيره كله . التفت نحو السيد جولياديكين وتهيأ للاستماع الى كلامه مهموم الوجه نافد الصبر .

قال بطلنا بصوت مرتجف :

ـ معذرة • لعلني أخطأت •••

كان واضحا أن الرجل المجهول قد ضاق ذرعا بايقافه ، فلم يلبث أن أدار ظهره وابتعد مسرعا ، كأنه يريد أن يتدارك الثوانى التى أضاعها فى صحبة السيد جولياديكين• أما بطلنا فكانت أنسجة جسمه كلها ترتجف، وكانت ركبتاه تترنحان ، ثم خارت قواه فتهاوى على نصب على حافة الرصيف وهو يئن • يجب أن نذكر أن لانفعاله هذا سببا • ذلك أنه قد أحس أنه يعرف الرجل المجهول • بل يجب أن نقول أكثر من ذلك • نعم لقد كان يعرفه • هو على يقين من أنه يعرفه • لقد سبق أن رآه مرارا • فى أية مناسبة ؟ أمس ؟ ولكن ليس الأمر الهام أنه رآه مرارا قبل الآن • ان هذا الرجل ليس فيه ما يمكن أن يلفت الانتباه من أول وهلة • انه رجل كسائر الرجال ، رجل ذو مظهر لائق كمظهر سائر الرجال • ولعله يمتاز بمزايا كبيرة • رجل طيب على وجه الاجمال ، لا يريد بأحد أذى •

ان السيد جولياديكين لا يحمل له أية عداوة ، لا يكن له أى بغض، بل لا يضمر له أى شعور من مشاعر الكره • بالعكس• ومع ذلك ـ وهذا مايبدو لنا على جانب عظيم من خطورة الشأن ـ فان السيد جولياديكين لا يريد بأية حال من الأحوال أن يلقى هذا الرجل ، ولا سيما فى الظروف الراهنة • نعم ، ان السيد جولياديكين يعرف هذا الرجل معرفة تامة • بل انه يعرف اسمه واسم أسرته • ومع ذلك فانه لو أعطى ذهب العالم بأسره لما أراد أن يناديه بهذا الاسم ، ولا أن يعترف بأن هذا الرجل يسمى بهذا الاسم فعلا • أما كم قضى السيد جولياديكين من الوقت على هذه الحالة من الانشداه والانصعاق قاعدا على النصب ، فذلك ما لا أستطيع أن أحدده على وجه الدقة • كل ما أعرفه أنه بعد أن ثاب أخيرا الى صوابه

نهض عن النصب فجأة وأخذ يركض كمجنون ، بكل ما أوتى من قوة ، حتى تقطعت من الركض أنفاسه • وفى أثناء ذلك بارحه أحد حذاءيه تاركا الحذاء الثانى يتيما • لكن ركضه أخذ يتباطأ شيئا فشيئا ليستطيع أن يتنفس • ونظر فيما حوله فلاحظ أنه قد قطع رصيف الفونتاكا كله دون أن يشعر بذلك ، وأنه عبر جسر آينتشكوف ، وخلف وراءه جزءا كبيرا من شارع نفسكى • انه الآن فى ناصية شارع ليتانيايا • فسار فى هذا الشارع •

كان عندئذ فى وضع انسان واقف على حافة هاوية : الارض تحت قدميه تتفتت ، تهتز ، تتحرك ، تتدحرج نحو قاع هوة تجر المسكين الذى أصبح لا يملك لا من القوة ولا من الشجاعة ما يمكنه من أن يثب وثبة الى الوراء ، ومن أن يحول بصره عن اللجة الفاغرة • ان الهوة تجذبه• انه يثب فيها ، معجلا بنفسه لحظة ضياعه • كان السيد جولياديكين يحس ، يعرف ، يوقن أنه مقبل على مصيبة جديدة ما ، كأن يلتقى بالرجل المجهول مرة أخرى مثلا • ومن الغريب مع ذلك أنه كان يتمنى هذا اللقاء ، ويعده أمرا لا معدى عنه ولا مناص منه • انه لا يشتهى الا شيئا واحدا : أن يفرغ من هذا كله فى أقرب فرصة ، وأن يوضح هذا الوضع أخيرا بأية وسيلة ، ولكن بأقصى سرعة ممكنة • وهو ما يزال يركض ، ما يزال يركض كأنما تحركه قوة غريبة غير منظورة • كان جسمه قد ضعف وتخدر • أصبح لا يستطيع أن يفكر فى شىء ، ومع ذلك فان أفكاره تتعلق بكل شىء كأنها العوسج • وهذا كلب صغير تائه مبلل حتى العظام، مرتعش من شدة البرد ، يقتفى خطى بطلنا • انه يركض حذاءه ، جاعلا ذنبه بين قائمتيه ، لاصقا أذنيه برأسه ، ملقيا على السيد جولياديكين ، من حين الى حين ، نظرات تفيض خوفا وعطفا • وها هى ذى فكرة بعيدة ، كان بطلنا قد نسيها منذ زمن طويل ، فكرة دارسة من بقايا حادث قديم

ولا شك ، تعود الآن الى ذهنه • لم يستطع السيد جولياداكين أن يتخلص من هذه الفكرة • انها تمسك بخناقه ، تطرق دماغه طرقا ، تعذبه تعذيبا شديدا • « آه ••• يا للكلب الحقير القذر ؟ » • كذلك كان يردد السيد جولياداكين دون أن يفهم معنى كلماته • وأخيرا لمح الرجل المجهول عند ناصية شارع ايطاليا • ولكن الرجل المجهول لم يكن مقبلا عليه فى هذه المرة • كان يركض هو أيضا فى الاتجاه الذى يركض فيه بطلنا ، متقدما عليه بضعة أمتار • وهكذا وصل الرجلان الى شارع « الدكاكين الست» • كانت أنفاس السيد جولياداكين مقطوعة • توقف الرجل المجهول أمام المنزل الذى يسكنه السيد جولياداكين • وسُمع صوت رنين الجرس ، ثم سُمع صوت صرير المزلاج الحديدى ، وفُتح الباب ، فانحنى الرجل المجهول وتسلل وغاب • ووصل السيد جولياداكين الى الباب فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، فوثب اليه سريعا كالسهم ، واندفع الى الفناء غير حافل بهمهمات البواب ، فسرعان ما لمح رفيقه الغالى الذى غاب عن بصره هنيهة •

كان الرجل المجهول متجها نحو السلم المؤدى الى بيت السيد جولياداكين • فوثب بطلنا يتعقبه • ان السلم مظلم رطب وسخ ، وعلى فسحاته تتراكم أكوام من الخرق البالية ونفايات البيوت ، فمن كان غريبا عن هذا المكان لا يعرفه ، فلا بد أن يتوه فى الظلام وأن يقضى نصف ساعة فى صعود درجات السلم ، متعرضا عند كل خطوة لأن تنكسر ساقاه ، متذمرا من السلم بهاجر القول تذمره من أصدقائه الذين شاءت عقولهم السخيفة أن تسكن فى عمارة كهذه العمارة • ولكن الرجل المجهول كان كمن ألف المكان واعتاد عليه ، فهو يصعد درجات السلم بخفة ورشاقة ، دون عناء ، عارفا كل موضع من مواضعه •

وأوشك السيد جولیادکین أن یدرکه ، حتی أن حافة معطف الرجل المجهول قد لطمت أنف بطلنا عدة مرات • کان قلب بطلنا لا یکاد یخفق•

وتوقف الرجل السری أمام باب بیت جولیادکین ، فطرقه ، فما لبث بتروشکا أن فتح الباب ، وذلك أمر کان یمکن أن یثیر دهشة بطلنا فی أی ظرف غیر هذا الظرف • لم یکن بتروشکا قد نام • لکأنه کان ینتظر هذه الزیارة انتظارا خاصا • دخل الرجل المجهول وتبعه الخادم حاملا شمعته بیده • اندفع بطلنا فی الدهلیز خارجا عن طوره ، واجتاز الممر الضیق دون أن ینضو معطفه أو أن یخلع قبعته ، ووقف علی عتبة غرفته مصعوقا مشدوها کأن صاعقة نزلت علیه • لقد تحققت جمیع نبوءاته التی أوحی بها الیه احساسه • ان کل ما خشیه ، وکل ما قدره فکره هو الآن بسبیل التحقق فی الواقع • لقد انقطعت أنفاسه ، وأصاب رأسه دوار • کان الرجل المجهول جالسا أمامه ، علی سریره هو ، یبتسم له ، ویغمز بعینه ، ویحرك له رأسه باشارات صداقة ومودة • انه هو أیضا لم یخلع معطفه وقبعته • أراد السید جولیادکین أن یصرخ ، ولکنه لم یستطع • أراد أن یحتج ، ولکنه لم یقو علی ذلك • انتصب شعره فوق رأسه • جلس دون أن یشعر أی شعور بما یفعل ، فکأنه میت ذعرا ورعبا • وکان هنالك ما یدعو الی الذعر والرعب علی کل حال • لقد عرف رفیق لیلته معرفة تامة آخر الأمر • ان رفیقه ذاك لم یکن الا هو نفسه • نعم ، انه هو نفسه ، هو جولیادکین بشخصه ، هو جولیادکین ثان ، لکنه شبیه به شبها مطلقا ، مماثل له تماما ، أو قل بکلمة واحدة انه ما یطلق علیه اسم « المثل » ، هو « مثل » السید جولیادکین من جمیع النواحی •

الفصل السادس

في الساعة الثامنة تماما من الغداة استيقظ السيد جولياد كين في سريره • فما لبثت الأحداث الخارقة التي وقعت له أمس ووقعت له في الليلة البارحة ، في تلك الليلة المضطربة التي لا يصدقها عقل، تلك الليلة الحافلة بمغامرات لا يتصورها خيال ، أقول ما لبثت تلك الاحداث أن غزت ذاكرته وخياله بكل ما فيها من تعقد مروع • ان ذلك الخبث كله وذلك الشر كله وتلك القسوة الجهنمية كلها، وذلك الكره كله ، من جانب أعدائه ، ولاسيما آخر مظهر من مظاهر ذلك الكره ، قد جمدت بطلنا حتى لكأنه الجليد صقيعا • ثم ان كل شيء كان يبلغ من الغرابة ومن البعد عن المعقول ، ومن الشذوذ ، ومن الاستحالة أن بطلنا لا يكاد يستطيع أن يصدقه • حتى لقد كان السيد جولياد كين مستعدا لأن يعزو ذلك كله الى كابوس نادر ، الى اختلال طرأ على خياله حينا ، الى جنون أصاب عقله فجأة • غير أن خبرة طويلة مرة بالحياة كانت قد علمته أن الكره يمكن أن

يحنق البشر الى أبعد حد ، وأن يدفعهم الى أنواع من القسوة ليس لسوئها نهاية ، انتقاما لكرامة مطعونة أو ثارا لطموح خائب • ثم ان ما يحسه من ألم فى أطرافه وصداع فى رأسه وأوجاع فى كليته وزكام شديد يدل دلالة بليغة على أن نزهة الامس ومحن الليلة البارحة أقرب الى الصدق •

هذا الى أن السيد جولياديكين كان يعلم منذ زمن طويل أن شيئا ما يدبر هنالك ، عندهم ••• وأنهم يتآمرون على أحد • فماذا عليه أن يفعل ؟ وبعد أن فكر السيد جولياديكين فى الأمر تفكيرا طويلا ناضجا قرر أن يذعن ، أن يخضع ، أن لا يرفع صوته بأى احتجاج فى هذا الأمر ، حتى « اشعار » آخر على الأقل •

« أليس من الجائز فى الواقع أن لا يكونوا قد قصدوا الا الى تخويفى ؟ لذلك فانهم متى رأوا أننى لا أرد ، ولا أحتج ، بل أخضع خضوعا تاما ، وأتحمل كل شىء بمذلة ، تراجعوا أول المتراجعين من تلقاء أنفسهم • » •

تلك هى الخواطر التى دارت فى ذهن السيد جولياديكين ، حين كان متمددا على فراشه يتمطى ويحاول أن يخفف آلام أعضائه المحطمة ، وينتظر ظهور بتروشكا على عادته •

انه ينتظر منذ ربع ساعة• وها هو ذا يسمع أصوات حركة بتروشكا الكسول وراء الحاجز بسبيل اعداد السماور• ومع ذلك قرر أن لاينادیه •

أكثر من ذلك أن السيد جولياديكين كان يخشى فى هذه الساعة أن ينفرد بخادمه بتروشكا • كان يقول لنفسه : « ما عسى يدور فى خلد هذا الوغد الآن حول هذه القضية كلها ! صحيح أنه صامت لا يتكلم ، ولكن هذا لا ينفى أنه يفكر » • وظهر بتروشكا حاملا بيديه طبقا • ألقى عليه السيد جولياديكين نظرة وجلى • كان السيد جولياديكين ينتظر أن يرى

أفعال بتروشكا وأن يسمع أقواله نافدَ الصبر • « أتراه يجيء على ذكر أحداث الأمس ؟ ••• » ولكن بتروشكا لم ينبس بكلمة واحدة ، حتى لقد كان أعمق صمتا وأكثر عبوسا وأشد تجهما منه فى العـــادة • كان واضحا أنه منزعج • ان عينيه المخفوضتين تفيضان اشمئزازا • لم يلق على مولاه نظرة واحدة ؛ ولنذكر عابرين أن هذا قد ساء بطلنا قليلا •

وضع بتروشكا الطبق على المائدة ، ثم استدار وانصرف الى ما وراء الحاجز صامتا كأنه أخرس • تمتم السيد جولياديكين يقـول وهو يصب الشاى لنفسه : « انه يعرف ، انه يعرف ، انه مطلع على كل شيء ، هـذا الكسول ••• »

ومع ذلك تحاشى السيد جولياديكين أن يلقى على خادمه أى سؤال ، رغم أن الخادم عاد الى الغرفة عدة مرات لشـئون تتعلق بخدمة مولاه • كان بطلنا قلقا غاية القلق • وكان ينقبض صـــدره أشد الانقبـاض حين يتصور أن عليه أن يذهب الى مكتبه •

كان يوجس أن الأمور هنالك ليست على ما يجب أن تكون • وهـو يقول لنفسه : « لو ذهبت الى المكتب لعرضت نفسى لمتاعب جديدة ، أفليس من الأفضل أن أتريث قليلا ، أن أصبر قليـلا ؟ ليفعـلوا ما يحلو لهم أن يفعلوه • أما أنا فمن مصلحتى أن أقضى نهارى هنا لأسترد قواى ، ولأبل قليلا من مرضى ، ولأفكر فى هذه القضية كلهـا ولو قليلا • وبعد ذلك أختار اللحظة المناسبة ، فأسقط عليهم سقوط حبات البرد على الرءوس•• بذلك تنجح مكيدتى وأخرج من الأمر ظافرا •» وكان السيد جولياديكين أثناء استرساله فى هذه التأملات يدخن غليونا بعد غليون ؛ والزمن ينقضى، حتى صارت الساعة هى التاسعة والنصف •

قال السيد جولياديكين لنفسه : « الساعة التاسعة والنصف ؟ لقد فات

أوان الذهاب الى المكتب • ثم انني مريض ، نعم ، مريض ، مريض فعلا• من يستطيع أن يدعى غير ذلك ؟ ولست أبالى على كل حال ! فليجيئوا مستطلعين اذا أرادوا ! ليرسلوا طبيبا يتحقق من مرضى ! لست أبالى قط• ان فى ظهرى أوجاعا شديدة ، وأنا أسعل ؟ ان بى زكاما • ثم انني لا أستطيع الخروج فى مثل هذا الجو السيىء • ذلك مستحيل ، مستحيل تماما •• والا فقد يصيبنى مرض خطير •• قد أموت •• نعم •• لم لا ؟ ما أكثر الذين يموتون فى هذه الأزمان ! ••• » •

هذه الخواطر هدأت ضمير السيد جولياديكين تهدئة كاملة ، وأمدته فى رأيه بتسويغ للتقريع الذى لا بد أن يوجهه اليه آندره فيليبوفتش لوماً له على قلة نشاطه ونقص همته • يجب أن نذكر أن السيد جولياديكين كان يحرص حرصا مطلقا ، حين يوجد فى ظروف كهذه الظروف ، على أن يبرر نفسه أمام نفسه بحجج لا سبيل الى دحضها • فلما وصل فى هذه المرة أيضا الى تبرير كامل ، تناول غليونه فحشاه وأخذ يدخنه • ولكنه ما ان نشق منه بضعة أنفاس حتى وثب عن سريره فجأة ، ورمى غليونه بعيدا ، ومضى يغسل وجهه ويحلق ذقنه ويمشط شعره ويلبس رداءه الرسمى ؟ حتى اذا فرغ من ذلك جمع بعض الأوراق ، وهرع يمضى الى مكتبه راكضا •

دخل السيد جولياديكين مكتبه وهو يشعر بخجل شديد ووجل قوى• ان قلبه يخفق خفقانا محموما بانتظار أن يقع له حادث مشئوم • كان ذلك فى نفسه احساسا غامضا لا شعوريا ، ولكنه فى الوقت نفسه احساس مزعج• استقر فى مكانه المألوف خائفا ، قرب رئيسه فى العمل أنطون أنطونوفتش سبيتوشكين • ولم يلبث أن غرق فى الأوراق الموضوعة أمامه لا يرفع بصره ، ولا يدع لنفسه أن يذهل عن عمله • كان قد قرر جازما وآلى على نفسه أن يتحاشى ، بكل ما أوتى من قوة ، أى احتكاك أو أى تحريض من

شأنه أن يعرضه لسوء بأسئلة وقحة أو أمازيح أو غمزات تتناول مغامرة الأمس ؛ حتى لقد عزم أمره على أن يتجنب الملاحظات المعتادة من أسئلة وأجوبة عن الصحة يتبادلها مع زملائه • ولكن المحافظة على هذا الوضع لم تكن بالأمر السهل كثيرا •

أضف الى ذلك أن السيد جوليادكين ، حين يواجه حادثا أليما ، لا تعذبه نتائج هذا الحادث بقدر ما تعذبه الشكوك ويعذبه القلق والخوف والهم • لذلك لم يستطع أن يفى بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو أن يتحاشى أى احتكاك أو أى تحريض ممكن •

فها هو ذا يرفع رأسه من حين الى حين خلسة ، متصفحا وجوه زملائه ، محاولا أن يكتشف علامة من شأنها أن تطلعه على حادث جديد خاص يتعلق به ، وأن تطلعه على مؤامرة جديدة تحاك له •

كان يحاول أن يربط بين أحداث الأمس وسلوك من هم حوله الآن• وانتهى آخر الأمر ، وقد استبد به قلق شديد ، الى أن يتمنى نهاية لهذا الموقف الذى لا يطاق ، نهاية سريعة ، ولو أدى ذلك الى أسوأ النمائم وأخبث الاشاعات ! انه لا يبالى ! ولم يلبث القدر أن استجاب لرغبته • فما كاد السيد جولياديكين يعرب عن أمنيته هذه ، حتى تبددت شكوكه على أغرب نحو يمكن أن يخطر ببال •

لقد فتح باب الغرفة المجاورة فجأة بصرير ضعيف وجل يدل على أن الداخل شخص لا قيمة له • وهذه قامة يعرفها بطلنا حق المعرفة تمر أمام منضدته خرقاء متحيرة ، فلا يرفع السيد جولياديكين رأسه ، وانما يكتفى بأن يلقى على هذا الشخص الجديد نظرة خاطفة ، فاذا هو يعرف كل شىء ويفهم كل شىء بأدق التفاصيل دفعة واحدة • شعر بالعار يضنيه ،

فأغرق المسكين رأسه فى أوراقه ، تماما كما تفعل النعامة التى تخفى رأسها فى الرمل المحرق حين يطاردها صياد .

انحنى القادم الجديد أمام آندره فيليبوفتش ، ولم يلبث أن سمع صوت آندره فيليبوفتش رسميا ملاطفا كالصوت الذى يعمد الى اصطناعه رؤساء العمل عادة فى مخاطبة مرءوسيهم الجدد . قال آندره فيليبوفتش وهو يشير الى طاولة أنطون أنطونوفتش : « اجلس هنا ، أمام السيد جولياديكين . سيُعهد اليك بعمل فورا » . وختم آندره فيليبوفتش كلامه باشارة موجزة وقورة تحمل للقادم الجديد معنى التشجيع ، ثم استغرق فى قراءة كدسة الأوراق الضخمة التى كانت أمامه .

رفع السيد جولياديكين عينيه أخيرا . ولئن لم يسقط مغشيا عليه فورا ، فما ذلك الا لأنه كان قد أوجس هذا المشهد . كان قد تنبأ فى الواقع بكل شىء ، وكان قد حزر جميع نيات القادم الجديد . ان أول حركة قام بها السيد جولياديكين هى أنه ألقى نظرة حواليه ليرى هل أخذ الموظفون يتهامسون فى الأركان ، وهل أخذت مزحة من الأمازيح المألوفة فى المكتب تطوف فى القاعة ، وهلا فر أحد الأفواه ذهولا وانشداها ، وهلا تهاوى أحد الحضور تحت الطاولة ذعرا ورعبا . فما كان أشد دهشة حين لم يلاحظ شيئا من ذلك البتة ! لقد أدهشه وضع زملائه ادهاشا كبيرا ، وبدا له هذا الوضع غير معقول . انخلع قلب السيد جولياديكين هلعا من هذا الصمت المطبق الخارق . ما هذا الصمت والوقائع ظاهرة واضحة كل الوضوح ! ...

أمر غريب ، شاذ ، قاس!.. شىء يبعث فى الجسم قشعريرة!.. هذه هى الخواطر التى مرقت فى ذهن السيد جولياديكين سريعة كالبرق . كان السيد جولياديكين يحترق . وهناك ما يدعو الى ذلك . ان القادم الجديد

الذى كان فى تلك اللحظة جالساً أمام السيد جولياداكين ، هو بعينه ذعر السيد جولياداكين ، هو بعينه عار السيد جولياداكين ، هو بعينه الكابوس الذى وافى السيد جولياداكين فى ليلته تلك : انه السيد جولياداكين نفسه. صحيح أنه ليس جولياداكين الذى كان فى تلك اللحظة جالسا على كرسيه، فاغراً فاه ، حاملا قلمه . صحيح انه ليس جولياداكين الذى يقوم بوظيفة مساعد لرئيس مكتبه ، والذى يجب أن يمحى ، أن يذوب فى الجمهور ، والذى يعبر سلوكه كله تعبيرا واضحا عن أن لسان حاله يقول : « لا تمسونى ولن أمسكم » أو يقول : « لا تمسونى فانتى لا أمسكم ... .. لا .. ليس هو جولياداكين ذاك .. وانما هو جولياداكين آخر ، جولياداكين آخر تماما ، ولكنه مع ذلك مثل الأول ، له قامة الأول نفسها ، وله جسم الأول نفسه ، وله صلعة الاول نفسها ، وهو يرتدى الملابس نفسها التى يرتديها الاول .. فلا شىء ينقص هذا التشابه الكامل وهذا التماثل التام . فلو وضع أحدهما الى جانب الآخر لما استطاع أحد فى العالم أن يدعى أن فى وسعه أن يميز بين جولياداكين الصادق وجولياداكين المزيف ، أن يميز بين القديم والجديد ، أن يميز بين الأصل والصورة .

كان بطلنا فى تلك اللحظة ـ وليُسمح لنا بهذا التشبيه ـ فى وضع انسان جاءه مازح خبيث فأمرّ أمام وجهه مرآة لمناكدته وازعاجه . قال جولياداكين لنفسه : « ماذا جرى ؟ أأنا فى حلم ؟ أأنا فى حالة يقظة أم أنه كابوس الأمس يستمر الآن ؟ كيف يكون هذا ممكنا ؟ بأى حق يفعلون هذا ؟ من ذا الذى أذن باستخدام هذا الموظف الجديد ؟ نعم ، من ذا الذى أصدر الأمر بذلك ؟ أأنا نائم ؟ أأنا أحلم ؟ » ومن أجل أن يمتحن السيد جولياداكين حالته قرص نفسه ... حتى لقد نوى على الفور أن يقرص أحد زملائه ... ليس هناك أى ريب ! لا ... ما هو بنائم . أحس السيد جولياداكين بالعرق يتصبب منه قطرات كبيرة ... أدرك أن

شيئا خارقا يحدث له ... شيئا لم يُر له نظير من قبل ، شيئا هو لذلك على جانب رهيب من الخطر ، وتلك مصيبة المصائب ... أحس جولياديكين وأدرك جميع سيئات هذا الموقف الجديد ، موقف المهزلة التى هو الآن بطلها الأول ونموذجها .

وشيئا فشيئا أخذت تراوده شكوك حول وجوده نفسه ، ورغم أنه كان مستعدا لكل شيء ، راغبا فى أن يرى تبدد جميع هذه الشكوك بصورة من الصور آخر الأمر ، فقد كان يحس أن ظرفا يعادل تعقده المفاجأة التى ليست فى الحسبان كان قد تجاوزه . انه مرهق معذب . ان قلقا رهيبا يهد نفسه هدا ، حتى ان فكره وذاكرته يبارحانه تماما فى بعض اللحظات . فلما ثاب الى رشده بعد احدى هذه الغيبوبات لاحظ أنه كان بسبيل الجرى بقلمه على ورقة من الأوراق على نحو آلى لا شعورى ؛ فسرعان ما أخذ يعيد قراءة ما كتبه ، لفقدانه ثقته بنفسه ، فلم يستطع أن يفهم شيئا مما كتب بطبيعة الحال .

وفجأة نهض جولياديكين الثانى الذى كان جالسا أمام بطلنا جلسة هادئة الى تلك اللحظة ، نهض ومضى الى المكتب المجاور ، ربما لطلب بعض المعلومات . نظر السيد جولياديكين حواليه . ان كل شيء هادىء . ليس يُسمع الا صرير الأقلام خفيفا ، والا حفيف الأوراق تُقلب ، والا همسات قليلة فى الأركان البعيدة عن طاولة آندره فيليبوفتش . رفع السيد جولياديكين عينيه نحو أنطون أنطونوفتش . لا شك أن تعبير وجهه الذى يفصح افصاحا أمينا عن حالته النفسية وعن الهموم التى تسببه لها الاحداث الراهنة ، قد بدا غريبا لرئيسه ، لأن أنطون أنطونوفتش الشهم لم يلبث أن وضع قلمه ، وسأله عن صحته فى كثير من العطف والشفقة .

ثانياً جولياداكين يقول :

ـ صحتى جيدة جدا يا أنطون أنطونوفتش • الحمد لله يا أنطون أنطونوفتش • صحتى الآن حسنة يا أنطون أنطونوفتش •••

كذلك أخذ السيد جولياداكين يكرر متهيبا ، مرددا اسم رئيسه لدى كل كلمة يقولها •

لما يجرؤ بعد على البوح لأنطون أنطونوفتش بما فى نفسه •

ـ ها •• طيب •• كنت أحسب أنك تشكو ألما ما •• ولا غرابة فى هذا على كل حال ، لا سيما فى هـذه الآونة التى تتكاثر فيها الأمراض السارية ••• هل تعلم أن •••

ـ نعم يا أنطون أنطونوفتش ، نعم ، أعرف أن هـذه الأمراض موجودة ••• ولكن يا أنطون أنطونوفتش ، ليست هذه هى المسألة (كذلك أضاف يقول السيد جولياداكين وهو يتفرس فى محدثه محدقا) ••• لا أدرى يا أنطون أنطونوفتش كيف أستطيع ••• أعنى لا أعرف تماما من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ لا أفهم ماذا تقول •• أعترف لك بأننى لا أفهم ماذا تريد أن تقول ••• عليك أن تشرح ما تريد قوله بمزيد من الوضوح •

واذ لاحظ أنطون أنطونوفتش شدة اضطراب السيد جولياداكين الذى امتلأت عيناه بالدموع ، ارتبك هو أيضا ، فأضاف يسأله :

ـ قل لى ما الذى •••

ـ الحقيقة يا أنطون أنطونوفتش ••• يوجد هنا ••• يا أنطون أنطونوفتش ••• موظف •

ـ نعم ... صحيح ... يوجد موظف هو سميُك ...

صاح السيد جولياداكين :

ـ ماذا ؟ هو سميّى ؟ هل اسمه أيضا جولياداكين ..

ـ نعم ... هو سميُك ... اسمه أيضا جولياداكين ... أليس هو أخاك ؟

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ، أنا ...

ـ غريب ... خيّل الىّ أنه لا بد أن يكون أحد أقربائك ... هل تعلم أن بينك وبينه بعض الشبه ؟ لكأنكما من أسرة واحدة ...

ظل السيد جولياداكين متجمدا من الدهشة . حتى لقد عُقل لسانه بضع لحظات ، فلم يستطع أن يقول شيئا . وهناك فى الواقع ما يدعو الى ذلك . ماذا ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن ينظر بهذا القدر من قلة الاكتراث وعدم المبالاة الى ظاهرة غريبة هذه الغرابة كلها ، ظاهرة فريدة حقا فى نوعها ، ظاهرة لا بد أن تخطف بصر أى مشاهد عادى ؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفتش أن يتحدث بصدد هذه الظاهرة عن تشابه كالتشابه الذى يكون بين أفراد أسرة واحدة ؟ ان الأمر أمر تماثل كامل بل وحدة تامة ، كالوحدة بين انسان وصورته فى المرآة .

أردف أنطون أنطونوفتش يقول :

ـ اسمع يا ياكوف بتروفتش ! أحب أن أسدى اليك بنصيحة . عليك أن تذهب الى طبيب ، فتستشيره فى أمر صحتك . انك لا تبدو فى حالة طبيعية تماما . ولاسيما عيناك ... ان لهما تعبيرا غريبا ...

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ... طبعا أنا لا أشعر بأننى ... أعنى ... أريد أن أسألك عن هذا الموظف .

ـ هه ؟

ـ ألم تلاحظ فيه شيئا غير عادى يا أنطون أنطونوفتش ؟ شيئا مميزا على نحو خاص ؟

ـ مثلا ؟

ـ مثلا ، أريد أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش : ألم تلاحظ أن فيه شبها غريبا بأحد .. بى أنا مثلا ؟ لقد ذكرت منذ هنيهة أنه يشبهنى كما يشبه أفراد الأسرة بعضهم بعضا ... ذكرتَ هذا عرضا دون الحاح ... ولكن هل فى علمك أنه يوجد أحيانا شخصان يتشابهان تشابها كاملا كتشابه قطرتى ماء ، حتى ليستحيل تمييز أحدهما عن الآخر ؟ ... ذلك ما أحببت أن أحدثك فيه ...

قال أنطون أنطونوفتش بعد لحظة من تفكير ، وكأنه يدرك لأول مرة ظاهرة لها هذه الخطورة :

ـ نعم ... صحيح ... ان تشابههما يثير الدهشة حقا ، ورأيك فى محله تماما. ان من الممكن فعلا أن يخلط المرء بينهما فلا يميز أحدهما عن الآخر (كذلك قال أنطون أنطونوفتش وهو يحملق مزيدا من الحملقة) انه تشابه يشبه أن يكون معجزة ... تشابه خرافى يا ياكوف بتروفتش، كما يقال أحيانا ... انه مثلك تماما . حقا انه مثلك تماما . هل لاحظت ذلك يا ياكوف بتروفتش ؟ ولقد كان فى نيتى أن أحدثك فى هذا الأمر من تلقاء نفسى ، ولكن يجب أن أعترف لك أننى فى البداية لم أول هذه القضية كبير اهتمام . هذه معجزة ... معجزة حقا ... بالمناسبة يا ياكوف بتروفتش : أظن أنك لم تولد هنا ، أليس كذلك ؟

ـ نعم لم أولد هنا .

ـ هو أيضا لم يولد هنا ، لعلكما كلاكما من اقليم واحد ؟ هل أستطيع أن أسألك أين كانت تقيم والدتك فى العادة ؟

ـ قلت .. يا أنطون أنطونوفتش ... قلتَ انه ليس من هنا .

ـ نعم ليس من هنا .

وتابع أنطون أنطونوفتش المهذار الذى يفرح لكل ثرثرة ، تابع يقول :

ـ حقا انها لمعجزة . حقا ان فى الأمر ما يثير الدهشة . كثيرا ما يتفق لنا أن نصادف هكذا أشياء جديرة بالاهتمام ، فنلامسها ونصطدم بها ثم لا نلاحظها . ليس عليك أن تضطرب كثيرا على كل حال . فتلك أمور تحدث . لذلك سأقص عليك قصة مشابهة وقعت لاحدى خالاتى : انها هى أيضا قد رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها .

ـ معذرة اذا قاطعتك يا أنطون أنطونوفتش ... ولكننى أريد أن أعرف يا أنطون أنطونوفتش كيف استطاع هذا الموظف ... أقصد كيف دخل الى هنا ؟

ـ انه يحل محل المرحوم سيميون ايفانوفتش . لقد شغرت الوظيفة بوفاة سيميون ايفانوفتش ، فبحثوا عمن يحل محله ، ثم عينوه هو . بالمناسبة : هل تعرف أن سيميون ايفانوفتش ، هذا الشهم ، قد خلف فيما يقال ثلاثة أطفال صغار ؟ لقد ارتمت زوجته المسكينة عدة مرات على قدمى صاحب السعادة متوسلة ضارعة . يقال مع ذلك انها تمثل ، فهى تملك مالا ولكنها تخفيه ...

ـ ولكننى أريد أن أعود الى موضوعنا يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ أى موضوع ؟ ها ... نعم ... ولكن لماذا تهتم بهذه المسألة هذا

الاهتمام كله ؟ ... أعود فأقول لك : لا تصـــدع رأسـك . ذلك كله موقت . ثم ماذا آخر الأمر ؟ ليس الذنب ذنبك . ان الله هو الذى دبّر الأمور على هذا النحو . هى مشيئة الله . والاحتجاج على مشيئة الله اثم . حكمة الله العظمى هى التى أرادت ذلك . أما أنت يا ياكـوف بتروفتش فما أحسب أنك مسئول عن هذا كله فى شىء . المعجزات فى هذا العـالم كثيرة . ان أمنا الطبيعة كريمـة سخية ... ولن يحاسبك أحد على شىء يوما ... بالمناسبة : أظن أنك قد سمعت عن ذينك الأخوين الـ ... ماذا يسميان ؟ ها ... نعم ... ذينك الأخوين السياميين اللذين ولدا ملتصقى الظهرين ، فهما يعيشان هكذا معا . يظهر أن ذلك يدر عليهما مالا كثيرا .

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ أنا أفهمك .. أنا أفهمك .. طيب .. ماذا أخيرا ؟ ليس الأمر بذى بال . أعود فأقول لك اننى بعد أن فكرت فى المسـألة مليـا لا أرى ما يوجب أن تصدع رأسك . ماذا تريد ؟ هو موظف كأى موظف آخر ، وهو فيما يظهر رجل نشيط . لقد قدم نفسه قائلا ان اسمه جوليـادكين ، وانه قادم من اقليم آخر ، وانه كان يعمل كاتبا فى احدى دوائر الدولة . وقد تمت بينه وبين صاحب السعادة مقابلة خاصة .

ـ وصاحب السعادة ؟

ـ جرت الأمور على خير نحو . قدم لصاحب السعادة شروحا كافية . قال : « ذلك هـو وضعى على حقيقته يا صاحب السـعادة . ليس لى ثروة شخصية . وأحب أن أعمل ، لا سيما تحت الأوامر النيّرة التى يصدرها صاحب السعادة » ، وهلم جرا ... وتدفق يكيل المديح لصاحب السـعادة بكثير من الحذق والبراعة . ولا شك أنه كان يحمل توصية على كل حال ، والا لما تم تعيينه طبعا .

ـ ومن الذى أوصى به ؟ ... أقصد من الذى وضع يده فى هذه القضية المخجلة ؟

ـ يظهر أنه كان يحمل توصية جيدة جدا . حتى أن صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش قد ضحكا قليلا فيما يقال .

ـ صاحب السعادة وآندره فيليبوفتش ضحكا قليلا ؟

ـ نعم .. أقصد .. ابتسما ، وقالا له ان هذا يبدو لهما كافيا ، وانهما من جهتهما موافقان تماما ، شريطة أن يعمل بصدق واخلاص ...

ـ ثم ؟ وبعد ذلك ؟ اننى متحير قليلا يا أنطون أنطونوفتش . أكمل ، أرجوك أن تكمل ...

ـ معذرة ... مرة أخرى ، أنا لا أفهمك ... قلت لك ليس فى الأمر كله شىء خارق . أعود فأقول : عليك أن لا تصدع رأسك . ليس فى هذه القضية ما يهددك .

ـ ليس هذا هو الموضوع . وانما أردت أن أسألك يا أنطون أنطونوفتش ألم يضف صاحب السعادة الى ذلك بضع كلمات .. عنى أنا مثلا ؟

ـ نعم ؟ طبعا ... حتما ... ولكن ليس هناك شىء ذو بال . فى وسعك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان . هى مصادفة غريبة ، أسلم لك بذلك . لاحظ أننى لم أنتبه الى الأمر من أول نظرة فى البداية . لاأدرى كيف لم ألاحظ هذا الشبه قبل أن تنبهنى اليه . على كل حال ، تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان . لم يقولا شيئا ذا خطر ، لم يقولا شيئا من ذلك البتة (كذلك أضاف يقول أنطون أنطونوفتش اللطيف وهو ينهض عن كرسيه) .

ـ أريد أيضا يا أنطون أنطونوفتش ...

ـ اعذرنى ... لقد أفرطت فى الثرثرة حتى الآن ، بينما هنالك عمل مستعجل هام جدا يجب أن أقوم به . ثمة معلومات يجب أن أحصل عليها .

وفجأة انطلق صوت آندره فيليبوفتش العذب ينادى قائلا :

ـ أنطون أنطونوفتش ! صاحب السعادة يطلبك .

ـ حالا ، حالا يا آندره فيليبوفتش ، أنا ذاهب اليه فورا .

تناول أنطون أنطونوفتش كدسة من الأوراق ، فهرع أولا نحو طاولة آندره فيليبوفتش ، ثم مضى الى مكتب صاحب السعادة .

« ها ... هذه هى المسألة اذن ، تلك هى اللعبة التى يدبرونها فى هذه اللحظة... الآن أرى الاتجاه الذى تسير فيه الريح ... ليس هذا كله بالأمر السيىء ... ان الأمور تجرى مجرى حسنا » . كذلك قال السيد جولياد كين لنفسه وهو يفرك يديه احديهما بالأخرى . لقد بلغ من الفرح أنه أصبح لا يحس بوجود الكرسى تحته . « انهم يعدون قضيتنا مسألة عادية . كل شىء يغدو اذن ترهات وسفاسف ... وفعلا لا أرى أحداً يحتج .. ان جميع هؤلاء الأوغاد غارقون فى أعمالهم . عظيم .. عظيم ... انني لأحبهم جميعا هؤلاء الناس الطيبين ... ولقد أحببتهم دائما ... انني مستعد لأن أقدرهم وأن أحترمهم ... ومع ذلك يبدو لى ... حين أفكر فى الأمر مليا ... هذا الأنطون أنطونوفتش ... من الخطر أن أبوح له بما فى نفسى ... لقد أثقلته السنون ... وأفرط شعره فى المشيب ... على كل حال ، فالأمر الأساسى الهام فى الموضوع أن صاحب السعادة لم يقل كلمة واحدة فى هذه المسألة ... عظيم ... أنا أؤيد ذلك . ولكن ما شأن آندره فيليبوفتش فى هذا كله هو وضحكاته

الصغيرة ؟ فيم يتدخل ؟ ياللحية العتيقة ! ... انه دائما فى طريقك ، هذا الرجل . انه مؤهب فى كل لحظة لأن يجتاز الطريق أمامك ، كنقطة سوداء ... نعم ... دائما أمامك ووراء ظهرك ! ... » .

مرة أخرى أجال السيد جولياديكين بصره فى القاعة . ومرة أخرى شعر بالأمل يملأ نفسه . ومع ذلك كان ثمة شيء ينغص عليه صفوه . هو فكرة بعيدة ، فكرة تنذر بشؤم . قرر فى لحظة من اللحظات أن يستبق الأمور ، أن يبادر الى شيء ، أن يسائل بعض زملائه بطريقة من الطرق . ان فى وسعه أن يفعل هذا عند الخروج من المكتب مثلا ، بل فى وسعه أن يفعله هنا ، بحجة الاستفسار عن أمر من الأمور التى تتصل بالعمل . فى وسعه مثلا أن يدس بين جملتين قولا كهذا القول : « أمر عجيب . هل رأيتم الى هذا التشابه الغريب ؟ محاكاة كاملة ! » . فاذا تظاهر بأنه يمزح هو نفسه ، استطاع أن يقدر مدى الخطر . « يجب على المرء دائما أن يخشى الماء الصافى ، فرب شيطان يثوى فيه ! » . تلك هى النتيجة التى خلص اليها بطلنا . ومع ذلك تدارك نفسه فى الوقت المناسب ، فلم تنتقل نياته الى حيز التنفيذ . لقد أدرك أنه ان فعل ذلك كان يمضي بعيدا جدا. قال لنفسه وهو يلطم جبينه لطمة خفيفة : « تلك هى طبيعتك : ما ان تدخل اللعب حتى تتحمس . نفس ظمأى الى العدل ! لا ... الأفضل أن تنتظر قليلا يا ياكوف بتروفتش . يجب أن تتريث قليلا ولو تحملنا فى سبيل ذلك بعض العذاب . » . ورغم هذه النتيجة التى خلص اليها فقد شعر بالأمل يملأ نفسه . خيل اليه أنه يبعث من بين الموتى .

قال لنفسه : « تحسنت حالى الآن . لكأن ثقل طنين قد أزيح عن صدرى . غريب . لقد كان كل شيء بسيطا كتحية . فُتح الصندوق من تلقاء نفسه . كان كريلوف على حق ... يا لكريلوف هذا من ماكر خبيث يحسن تأليف القصص ... أما القادم الجديد فليعمل ... فليعمل

ما شاء أن يعمل ، شريطة أن لا يجور على أرض غيره ، وأن لا يسيء الى أحد • نعم ، هو كـذلك ••• أنا موافق على أن يعمـل ، أنا أؤيد ذلك تأييدا تاما ••• » •

كانت الساعات أثناء ذلك تنقضى ••• كانت تطير طيرانا • هى الساعة الرابعة منذ الآن • المكاتب تغلق • تناول آندره فيليبوفتش قبعته ، وحذا جميع الموظفين حذوه كالعادة • تأخر السيد جولياداكين قليلا ، من أجـل أن يخرج آخر الخارجين •

تفرق الموظفـــون ومضى كل منهم الى منزله • فلمـا صـار السيد جولياداكين فى الشارع أحس أنه سعيد كما لو كان فى الجنة • حتى لقد شعر برغبة فى أن يقوم بجولة قصيرة ، فى أن يتنزه بشارع نفسكى •

قال لنفسه وهو يسير : « ما أعجب المقادير ! ••• لقد تغير الوضـع تغيرا جذريا على حين فجأة ••• حتى الجو تحسن تحسنا واضحا • هذه هى الزلاقات وهذا هو الجليد ! ••• الجليد يناسب الروس • وأنا أحب الروس ••• لو شاهد صياد هذا لهتف يقول : هذه طلائع البرد والثلج ••• يجب علىَّ أن أصطاد أرنبا طيبا على هذه الثلجة الاولى ••• يمينا ليس ثمة ما يزعج ••• كل شىء يجـرى مجـرى حسنا ••• » • هكذا تجلت حماسة جولياداكين • ومع ذلك كان هنالك شىء ما يزال يدغدغ داخل رأسه • أهو قلق ؟ أهو خوف ؟ لا ••• غير أن قلبه لا يزال فيه من الفـــزع ما يجعله عاجـــزا عن التغلب على نفسه • قال : « لا داعى الى التعجـــل على كل حال • فلننتظـر المســتقبل ••• صبر من ظفر ••• يضحك جيدا من يضحك أخيرا • وما هى المسألة فى الواقع ؟ هلا فكرنا قليلا ! هلا حللنا قليلا ! نعم علينا أن نحلل يا صديقى الشـاب ، علينا أن نحلل • أنا رجل مثلك ، نعم ، أنا رجل شـــبيه بك ، شبيه بك

من جميع النواحى • طيب • ثم ماذا ؟ هل فى هذا ما يدعونى الى الشكوى والنواح ؟ هل فى هذا ما يدعونى الى البكاء ؟ أى ضير فى هذا كله ؟ اننى بعيد عن هذه القضية كلها ، أغسل منها يدى وكفى ! ••• لقد قررت ، لقد اتخذت قرارا حاسما الى الأبد » •

« أما هو فليؤمّن عمله • يقولون انها معجزة ، يقولون انها ظاهرة عجيبة ••• يشبهونها بظاهرة الأخوين السياميين ••• لماذا يستشهدون بالاخوين السياميين ؟ هما توأمان طبعا ••• ولا كذلك نحن ••• ثم ان الحياة مليئة بالغرائب ، حتى لدى عظماء الرجال • فالتاريخ يروى أن سوفوروف الشهير نفسه كان يغنى كما يغنى ديك ••• صحيح انه يدعى أن هذا كان من قبيل الدبلوماسية ••• ولكن ما القول فى كبار القادة ؟ ••• اننى ، من جهتى ، أسير فى طريقى هادئاً مسالماً ، أظل فى ركنى ، لا أريد أن أعرف شيئا عن الآخرين ، أحب أن أكون بريئا كل البراءة ••• لا أحفل بعدوى ••• لست بمن يدبر المكائد ويضع المؤامرات ••• وأنا بهذا فخور • اننى طاهر نقى ، مهذب ، دمث ، لا أعرف الحقد•••»

وفجأة صمت السيد جولياد كين ، وتوقف مختلجا مرتجفا كورقة فى فى مهب الريح •• حتى لقد أغمضت عيناه بضع لحظات • ومع ذلك تأمل أن يكون الشىء الذى أثار رعبه سرابا ووهما من أوهام الحواس ، ففتح عينيه وألقى نظرة وجلى على يمينه ••• لا ••• لم يكن ما رآه سرابا أو وهما ••• فالى جانبه كان يكردح الرجل الذى رآه فى صبيحة ذلك اليوم • انه يبتسم له ، ويتفرس فيه بوقاحة ، وكأنه ينتظر فرصة مواتية ليجرى معه حديثا • ولكن الفرصة تأخرت •••

وهكذا ظل الرجلان يسير أحدهما الى جانب الآخر قرابة خمسين خطوة •

ان طاقة السيد جولياديكين منصبة كلها على هدف واحد : هو أن يغطس فى معطفه اكمل غطس وأعمق غطس ، وأن ينزل قبعته على رأسه حتى تصل الى عينيه . ولكنه رأى فجأة ـ وتلك غاية الوقاحة ـ أن معطف صاحبه وقبعته كمعطفه وقبعته هو تماما .

تمتم بطلنا أخيرا يقول وهو يحاول أن يتكلم بصوت خافت دون أن ينظر الى صاحبه :

ـ أحسب أيها السيد أن طريقينا مختلفان ... بل أنا موقن من ذلك (أضاف هذا بعد لحظة صمت) . ثم اننى أعتقد أنك فهمتنى حق الفهم (هكذا ختم كلامه بلهجة قاطعة) .

فدمدم صاحب السيد جولياديكين يقول أخيرا :

ـ كنت أود ... كنت أود ... رجائى من كرمك أن يغفر لى.. أن يسامحنى .. اننى لا أعرف أحدا أتجه اليه هنا .. فوضعى .. آمل أن تعفو عن جرأتى ووقاحتى .. لقد بدا لى أنك تعطف علىّ ، أنك أظهرت شيئاً من الاهتمام بى فى هذا الصباح ... ولقد شعرت أنا أيضا بشىء من الانجذاب نحوك .. اننى ..

هنا تمنى السيد جولياديكين لزميله الجديد أن يغور تحت الأرض الى الأبد .

استأنف صاحبه يقول :

ـ ليتنى أستطيع أن آمل يا ياكوف بتروفتش أن تصغى الىّ فى تسامح ورحابة صدر .

فأجابه السيد جولياديكين قائلا :

ـ هنا ؟ نحن؟ هنـا ؟ نحن ؟ لا .. لا ... لنـذهب الى بيتى ...
لنقطع أولا شارع نفسكى ، فنكون فى الجهة الأخرى أكثر ارتياحا ، ثم نمضى فى الشارع الصغير .

قال صاحب السيد جولياد كين طيعا خائفا :

ـ طيب . لنسر فى الشارع الصغير .

كان واضـحا من لهجته أنه بسبب وضـــعه يرى أن لا فائدة من المناقشة ، وأن الشارع الصغير يكفيه .

أما السيد جولياد كين فكان لا يفهم شيئا مما يجرى اطلاقا . انه لم يشب الى رشده بعد . انه يشك فى حواسه وفى عقله .

الفصل السابع

السيد جولياديكين بعض صوابه وهو يصعد السلم • حتى اذا وصل امام باب بيته قال لنفسه : « ألا ما أصغر عقلى ! لكأنه عقل عصفور ! ••• لماذا أجيء به الى هنا ؟ انني أضع الحبل فى عنقى بنفسى ؟ ما عسى يقول بتروشكا حين يرانا معا ؟ ما عسى يظن هذا الجرو بعد اليوم وهو كثير الظنون والشكوك منذ الآن ؟ •••• » • ولكن الندم قد فات أوانه • وطرق جولياديكين الباب فانفتح ، وأخذ بتروشكا يساعد السيد جولياديكين وصاحبه فى خلع معطفيهما •

وجازف السيد جولياديكين بنظرة مختلسة على خادمه محاولا أن ينفذ الى وجهه وأن يحزر ما يجول فى خاطره • فما كان أشد دهشته حين لاحظ أن خادمه لم يظهر أى استغراب • حتى لكأنه قد أعد نفسه لهذا الاحتمال اعدادا تاماً • كانت هيئته على عادتها ، هيئة ذئب جائع ، موارب النظرة ، متأهب فى كل لحظة للانقضاض على أول قادم وافتراسه • قال

بطلنا لنفسه : « لا شك أنهم قد ألقى عليهم اليوم جميعا سحر ؟ لا شك أن ان جنياً قد مر من هنا • نعم هذا اكيد • لا شك انهم جميعا قد وقع لهم شيء خاص فى هذا اليوم • لعنهم الله ! ••• يا للورطة ! ••• » • تلك كانت أفكار السيد جولياداكين وخواطره لحظة كان يدخل ضيفه الى الغرفة ويدعوه الى الجلوس ملاطفا • كان يبدو على صاحبه أنه مرتبك ارتباكا شديدا ، وجل وجلا واضحا ، فهو يحاول أن يختطف نظرات السيد جولياداكين عسى أن يقرأ فيها ما يجول فى ذهنه • كانت حركاته واشاراته تنبىء عن الحيرة والخشية والمذلة • وكان مظهره فى تلك اللحظة مظهر رجل ارتدى ثياب غيره لأنه لا يملك ثياباً لنفسه (وليغفر لنا هذا التشبيه) ، فأكمامه قصيرة حتى لتكاد تصل الى كوعيه ، وهو يحاول فى كل لحظة أن يعدل صديرته المسرفة فى القصر ؛ وهو تارة يدور فى مكانه ويمحى ويحاول أن يختفي ، وتارة يتفحص نظرات من يحيطون به ويصيخ بسمعه ، ويحاول أن يلتقط أحاديثهم ليعرف هل هم يتحدثون عنه ، وهل هم يضحكون منه ••• صفوة القول أن الرجل كان على نار ، فهو يحمر ، ويفقد سيطرته على نفسه ، ويقاسى من مذلة كبريائه مقاساة رهيبة •

وضع السيد جولياداكين قبعته على حافة النافذة ، فأسقطتها حركة مفاجئة ، فهرع الضيف يلتقطها ، وأخذ ينفض عنها الغبار ، ثم أعادها الى موضعها ، تاركا قبعته هو على الارض ، قرب الكرسى الذى جلس على طرفه خجلا وجلا • ان هذا الحادث الصغير قد أزال الغشاوة عن عينى السيد جولياداكين ، فأدرك أن الرجل خاضع لمشيئته ، فلا حاجة به الى أن يكلف نفسه عناء ، لا حاجة به الى أن يبحث عن موضوع حديث ، وانما يترك الأمر للضيف يحمل تبعته •

وكان الضيف من جهته لا يجرؤ أن يشرع فى شيء ، فهو ينتظر آن يقوم رب البيت بالخطوات الأولى • ترى أكان هذا خجلا أم خفرا أم

أدبا ؟ انه ليصعب أن نجيب عن هذا السؤال اجابة قاطعة • وفى أثناء ذلك عاد بتروشكا • انه الآن واقف على العتبة ، متجه ببصره الى عكس الجهة التى كان فيها مولاه والضيف ، وها هو ذا يسأل بصوت أبح ولهجة مهملة: « هل علىّ أن آمر بعشاءين ؟ » • وهذا جولياداكين يدمدم مترددا : « أنا •• أنا •• لا أدرى •• نعم ، يا صديقى نعم ، مر لنا بعشاءين • » •

غاب بتروشكا • وتصفح السيد جولياداكين وجه ضيفه خفية • فاحمر وجه الضيف حتى الأذنين • ان السيد جولياداكين رجل طيب • لذلك سرعان ما انتهى بفضل طيبة قلبه الى هذه النتيجة : « مسكين هذا الرجل • لقد تسلم وظيفة فى هذا الصباح ، وكان قبل ذلك يعيش حياة قاسية من غير شك • ولعل كل ما يملكه هو هذا الرداء الذى يستر به جسمه • أتراه يملك ما يدفعه ثمن وجبة طعام ؟ مسكين هذا الرجل ! ان وجهه مهدم منهار يدل على المذلة • ولكن لا ضير ••• فلربما كان هذا أفضل ••• » •

قال يخاطب صاحبه :

ـ اسمح لى • هل يمكننى أن أعرف اسمك ؟

ـ يا ••• يا ••• ياكوف بتروفتش •

كذلك تمتم الضيف يقول وقد لاح فى وجهه الاضطراب والخجل ، حتى لكأنه يهم أن يعتذر عن كونه يحمل اسم السيد جولياداكين نفسه •

فردد بطلنا يقول وهو عاجز عن السيطرة على اضطرابه :

ـ ياكوف بتروفتش ؟

فأجاب الضيف الطيع بقوله :

ـ نعم ، هذا هو اسمى • أنا سميُك •

وهمّ الضيف أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، وأن يجازف بقول كلمة طيبة ، ولكنه لم يلبث أن توقف عن ذلك ، مصطنعا هيئة الجد ، مرتبكا بعض الارتباك ، حين لاحظ أن محدثه لا يرغب فى شىء من المزاح فى هذه اللحظة .

قال السيد جولياديكين :

ـ هل لى أن أعرف السبب الذى شرفنى بـ ...

فبادر الضيف يقاطعه بصوت خجول وهو ينهض قليلا عن كرسيه :

ـ اننى وقد عرفت عظمة نفسك ، وكرم روحك **قد أذنت لنفسى** ان أتجه اليك ... ملتمساً صداقتك ... وحمايتك .

هكذا ختم الضيف عبارته ، وكان واضحا **أنه مرتبك بالعشور** على الكلمات المناسبة التى لا تكون مسرفة فى التملق والتزلف ، ولا تكون مسرفة فى اذلال كرامته ، ولا تكون كذلك مفرطة فى رفع الكلفة بحيث تعبر عن تكافؤ فى غير محله . كان مثله فى التصرف كمثل شحاذ يرتدى رداء رسميا مرقعا ويحمل فى جيبه وثائق مشرفة ، ولكنه شحاذ لما يتسع وقته بعد لمدّ اليد فى طلب الصدقة .

أجابه السيد جولياديكين وهو ينقل بصره بين ضيفه وجدران غرفته ونفسه :

ـ انك تحرجنى ... فكيف ... أقصد فيم أستطيع أن أنفعك ؟

ـ لقد شعرت ، يا ياكوف بتروفتش ، بانجذاب نحوك منذ لقيتك أول مرة . فليكن كرمك شفيعى عندك فتغفر لى .. نعم ، لقد عقدت بعض الآمال ... لقد تجرأت فأملت يا ياكوف بتروفتش ... أنا رجل نازح عن وطنه يا ياكوف بتروفتش ، أنا رجل فقير قاسى ماقاسى يا ياكوف

بتروفتش .. وأنا هنا غريب . ولقد عرفت أنك تحمـــل ، عدا المزايا الكبيرة التى فطرت عليها نفسك العظيمة ، نفس الاسم الذى أحمله أنا ..

قطب السيد جولياديكين حاجبيه . وأضاف الضيف يقول :

ـ لقـد علمت أنك سميى ، وأنك من نفس الاقليم الذى أنا منه . لذلك قررت أن أتجه اليك أعرض عليك وضعى المريك .

فأجابه السيد جولياديكين بصوت مضطرب :

ـ طيب طيب . ولكننى لا أدرى حقا ماذا أقول لك ... سنتحدث فى هذا كله بعد الغداء ...

انحنى الضيف ممتثلا . وكان الغداء قد حضر . فقد وضع بتروشكا المائدة . فأخذ الرجلان يأكلان كمن يقوم بواجب من الواجبات المفروضة. لم يدم الغداء طويلا . كانا كلاهما متعجلين . ان السـيد جولياديكين غير مرتاح . انه خجل من هذه الوجبة الفقيرة التى يقدمها لضيفه ، خجل من ناحيتين : الأولى أنه كان يود لو يولم له وليمة لائقـة ، والثانية أنه كان يحب أن يظهر له انه لا يعيش حياة شحاذ .

وكان صاحبه غير مرتاح كذلك ، وكان يبدو خجلا الى أبعد حدود الخجل . انه بعد أن تناول وأكل قطعة من الخبز لم يجرؤ أن يمد يده لتناول قطعة أخرى ؛ وكان متحرجا كذلك من تناول قطعة كبيرة ؛ وكان يردد فى كل لحظة أنه ليس بجائع قط ، وأن الغداء فاخر ، وأنه راض كل الرضى ، وأنه سيظل شاكرا مدى الحياة . فلما انتهى الغداء أشعل السيد جولياديكين غليونه ، واقترح على ضيفه اشعال غليون آخر يحتفظ به للأصدقاء خاصة . جلس الرجلان أحدهما أمام الآخر ، وأخذ الضيف يروى مغامراته .

دام كلام جولياديكين الثانى ثلاث ساعات أو أربعا . والحق أن مارواه

لم يكن الا سلسلة من أحداث تافهة عادية • تحدث عن عمله فى ادارة حكومية بالأقاليم ، وعن قضاة تحقيق ، وعن رؤساء محاكم ، وعن مكائد مألوفة فى دوائر الدولة • وتحدث كذلك عن فساد أحد الموظفين المرتشين، وعن وصـــول مفتش من المفتشين ، وعن تغيير رئيس الادارة ، وعما أصابه هو من مصائب لا يستحقها • وأشار أيضا الى العمة العجوز بيلاجيا سـيموتوفنا ، ثم أفاض فى الكلام تفصـيلا على آخر ما بقى من متاعب : ضياع وظيفته على أثر مكائد دبرها له أعداؤه ، مجيئه الى سان بطرسبرج سيرا على القدمين ، الشدائد والمكاره التى عاناها ، صنوف البؤس وألوان الشقاء التى قاسى منها فى العاصمة ، مساعيه الطويلة العقيمة فى البحث عن وظيفة • لقد أنفق آخر قرش مما كان قد ادخره ، حتى أصبح مضطرا الى أن يعيش فى الشارع فعلا ، يأكل خبزا يابسا مبللا بدموعه ، وينام على الأرض • ومن حسن حظه أن وجد رجل محسن عنى بأمره ، وأوصى به خيرا ، فاستطاع أن يحصل على هذه الوظيفة آخر الأمر • وكان أثناء كلامه يبكى ويجفف دموعه بمنديل أزرق مخطط يمكن أن يحسبه الناظر قماشا مشمعا • وفى الختام فتح قلبه تماما للسيد جولياد كين ، فاعترف له بأنه لا يملك الآن أى مورد من أجل أن يعيش ويسكن ، ولا من أجل أن يكتسى • حتى أنه لم يستطع أن يجمع مبلغا يكفيه لشراء حذاءين • أما الرداء الرسمى الذى يرتديه فقد استأجره بضعة أيام •

تأثر السيد جولياد كين تأثرا شديدا من سماع هذه القصة ، ورق قلبه لصـاحبه وأشفق عليه اشفاقا عميقا • صحيح أن قصـــة الرجل كانت من القصص العادية المألوفة الى أبعـد حد ، غير أن كل كلمة من كلماته قد استقبلها قلب السيد جولياد كين كأنها كلام الله ، كأنها القربان المقدس •

لقد تبددت جميع الشكوك التى غزت نفسه فى الساعات الأخيرة • فقلبه الآن حر طليق يفيض فرحا • حتى لقد عد السيد جولياد كين نفسه

غبيا ، فكل شيء يبدو طبيعيا ، ولم يكن ثمة ما يوجب أن يعذب نفسه وأن يخاف ذلك الخوف كله فى غير طائل • صحيح أن فى الأمر نقطة شائكة.. هى هذا التشابه ••• ولكن لماذا يعد هذا التشابه كارثة من الكوارث • ليس الانسان مسئولا عما تفعله الطبيعة • وليس فى هذا التشابه ما يحطم حياة انسان ، أو ما يلطخ شرف انسان ، أو ما يعيب سمعة انسان • زد على ذلك أن ضيفه يلتمس منه الحماية •وهو يبكى ويندب ويشكو مصيره؛ ولا يبدو مؤذيا ، بل هو رجل مسكين تافه مبرأ من الكره والمكر • وكان يبدو هو نفسه خجلاً من هذا التشابه الخارق ، ولو لأسباب قد تكون مختلفة • ليس فى وضعه ما يمكن أن يؤخذ عليه • انه لا يطلب الا أن ينال رضى صاحب البيت الذى قدم له غداء • ان له نظرة انسان يعذبه ضميره ، انسان يحس أنه آثم فى حق آخر • كان أثناء الحديث يعود فيوافق السيد جولياديكين على رأيه ، متى دار الكلام على موضوع يمكن أن يثير خلافا فى الرأى • فاذا اتفق له ، عن سهو أو غفلة ، أن وجد نفسه يناقض مخاطبه مناقضة واضحة ، لم يلبث أن تدارك خطأه وصحح رأيه ، واندفع فى شروح جديدة مؤكدا أن رأيه يتفق ورأىالسيد جولياديكين من جميع النواحى وفى جميع النقاط ، وأنه يفكر كما يفكر السيد جولياديكين تماما ، وأنه ينظر الى الامور نظرته اليها : لقد كان يفعل كل مايستطيع أن يفعله من أجل أن يكون على وفاق مع السيد جولياديكين • وقد خلص السيد جولياديكين من هذا كله الى أن الرجل لطيف محبب الى القلب من جميع الوجوه • وفى أثناء ذلك جيء بالشاى • وكانت الساعة قدتجاوزت الثامنة • فكان السيد جولياديكين يشعر بارتياح كبير ، وقد طابت نفسه وأشرق مزاجه •

انه الآن منتعش يفيض قلبه حماسة ، فلم يلبث أن أخذ يسترسل مع صاحبه فى حديث حار متدفق • ان من عادة السيد جولياديكين حين

يطيب يومه أن يحب الكلام كثيرا على الأمور الشائعة • فكذلك كان فى هذا المساء : تحدث عن العاصمة ، عن ألوان الجمال التى تتمتع بها ، عن ضروب التسليات التى تحفل بها ، عن النوادى ، عن آخر لوحة رسمتها ريشة برولوف • وروى قصة ذينك الانجليزيين اللذين جاءا من لندن الى سان بطرسبرج خصيصا من أجل أن يعجبا بجمال سور « حديقة الصيف » ، ثم لم يلبثا أن غادرا سان بطرسبرج بعدئذ على الفور • وتحدث بعد ذلك عن عمله فى الدائرة ، وعن أولسوفى ايفانوفتش وعن آندره فيليبوفتش ، ثم أعلن أنه يرى أن روسيا تسير فى طريق التقدم من ساعة الى ساعة ، واستشهد فى هذا الصدد بهذا البيت من الشعر :

فى كل يوم تزهر الآداب

وذكر كذلك واقعة أخرى كان قد قرأها أخيرا فى جريدة « نحلة الشمال » ، وتكلم عن أفعى من أفاعى البيتون بالهند تملك قوة خارقة ، وتكلم عن البارون برابيثوس ، الخ ••• الخلاصة أن السيد جولياديكين كان راضيا كل الرضى فى ذلك المساء ؛أولا لأنه كان ينعم بهدوء كامل وطمأنينه تامة ، وثانيا لأنه أصبح لا يخشى أعداءه ، حتى لقد أصبح يحس أنه متأهب لأن يواجههم فى معركة حاسمة ، وأخيرا لأنه كان هو نفسه فى ذلك المساء فى موقف الحامى والمحسن •

ومع ذلك فلقد كان يحس فى قرارة نفسه بأن هذه السعادة ليست كاملة تماما فى تلك اللحظة ؛ كان يحس فى قرارة نفسه بوجود سوس ينخر فيها ، سوس صغير طبعا ، لكنه سوس نشيط ؛ وكان هذا السوس يأكل قلبه فى تلك اللحظة • كانت ذكرى السهرة التى انقضت فى الليلة البارحة عند أولسوفى ايفانوفتش تعذبه • لقد كان مستعدا لأن يضحى بأشياء كثيرة فى سبيل أن لا تقع بعض الاحداث التى وقعت أثناء تلك

السهرة • قال لنفسه أخيرا وقد عزم عزما قاطعا على أن يسلك فى المستقبل سلوكا لا مأخذ عليه ، وأن يتحاشى ارتكاب أخطاء كتلك الأخطاء : « ليس الأمر بذى بال على كل حال ••• » • واذ شعر عندئذ بتحسن حالته النفسية حتى ليشبه أن يكون سعيدا ، أحب السيد جولياديكين أن يتمتع بالحياة قليلا • فجاء بتروشكا يحمل زجاجة من خمر الروم ، فصنع منها شرابا ، فأفرغ الرجلان فى جوفيهما منه كأسا ، ثم كأسا أخرى ؛ فازداد الضيف تلطفا وتوددا ، حتى لقد برهن غير مرة على انطلاق سجيته وسعادة مزاجه ، وشارك السيد جولياديكين انشراحه ومرحه ، وبدا عليه أنه شديد الابتهاج بفرح جولياديكين ، وأنه يعده صديقه الوحيد الحق •

وتناول قلما وورقة على حين فجأة ، وأخذ يكتب طالبا الى السيد جولياديكين أن لا ينظر اليه • حتى اذا فرغ من الكتابة مدّ الى صديقه ما أنجبته قريحته • هى رباعية عاطفية بعض الشىء ، لكنها رائعة من ناحية الشكل والخط • وقد نظمها الصاحب اللطيف بنفسه طبعا • وهذه هى :

وهبك نسيت عهد الود لن أنسى لك الودا
صروف الدهر ألوان ولكن لا تخن عهدا

فعانق السيد جولياديكين ضيفه والدموع فى عينيه من فرط التأثر ، وأخذ يفضى الى صديقه الجديد بأخفى أسراره ، فأشار مرارا الى آندره فيليبوفتش والى كلارا أولسوفييفنا ، وما فتىء يكرر له قوله : « آ ••• لسوف ترى يا ياكوف بتروفتش ••• سوف نتفاهم أحسن تفاهم أنا وأنت • سوف نعيش كما يعيش أخوان حقا ••• كالأسماك فى الماء••• وسنمكر ، يا أخى ، سنمكر • سنكيد لهم ، نعم سندبر لهم مكيدة على طريقتنا ••• واياك خاصة أن تثق بهم أو أن تطمئن اليهم أو أن تسر لهم بشىء • أنا أعرفك يا ياكوف بتروفتش ••• أنا أعرف طبعك ••• قد

لا تتورع عن أن تقص عليهم كل شيء ، لأنك انسان حساس النفس مستقيم الخلق • فاجعلهم دائما على مسافة منك يا أخي ••• » • وافق الضيف السيد جولياكين موافقة تامة ؛ وأجزل له الشكر حارا ، حتى لقد ذرف بضع عبرات • وأردف بطلنا يقول بصوت مرتجف ضعيف : « اسمع يا ياشا ، اسمع ، تعال فاسكن معي الى حين أو الى الأبد • سنسعد بالسكنى معا • ما رأيك أيها الأخ ؟ ثم لا تعبأ بهذا التشابه بيننا ، لا تحفل بهذه المصادفة الغريبة ! لا تعذب نفسك بهذا الأمر ، ولا تثر عليه ! انها الطبيعة ••• والتمرد كفر • ان أمنا الطبيعة سخية كريمة ، فافهم هذا حق الفهم يا أخي ياشا • أقول لك ذلك عن حب ، عن حب أخوي • سوف يكيدون لنا يا ياشا • ولكننا سنعرف كيف نمد لهم الشباك، وكيف نوقعهم في الفخ ••• سوف ترى ••• » •

وكان الرجلان قد وصلا من الشراب الى الكأس الرابعة • وكان يسيطر على السيد جولياكين شعوران : فأما الأول فهو أنه لا يستطيع الوقوف على قدميه ، وأما الثاني فهو سعادة ليس لها حدود •

وكان طبيعيا أن يدعو صاحبه الى المبيت في مسكنه • فكذلك فعل • وأمكن اعداد سرير للضيف يضم صفين من الكراسي كيفما اتفق • وقال السيد جولياكين الجديد ان المرء ليحلو له أن يبيت عند صديق ولو افترش الأرض ، وانه مستعد لأن ينام في أي ركن شاكرا ممتنا• وأضاف يقول انه يشعر الآن أنه في الجنة ، بعد سلسلة طويلة من المكاره والمصائب والآلام • آه ما أكثر ما رأى وما قاسى ! ولعل المستقبل ما يزال يخبيء له آلاما أخرى أيضا ! فرأى جولياكين الأكبر أن يحتج على هذه المزاعم احتجاجا قويا ، وأن يبرهن لصاحبه على ضرورة الايمان بعدالة الله ••• فأمّن صاحبه على قوله مطنبا مسهبا في القول ، وأعلن هو أيضا أن « عدالة

الله لا نظير لها ، ... وبهذه المناسبة ، استشهد جولياكين الأكبر بالأتراك قائلا انهم على حق حين يبتهلون الى الله حتى أثناء النوم .

وخالف بطلنا آراء كثير من العلماء الذين يتنكرون للنبي « التركى » محمد ، فقال انه يعده رجلا عظيما . ولم يلبث السيد جولياكين أن انتقل من الكلام على الأتراك الى الكلام على « صالون » جزائرى من صالونات الحلاقة ، فوصفه وصفا حيا جميلا كان قد قرأه فى أحد الكتب . وضحك الرجلان طويلا من سذاجة الأتراك ، ولكنهما لم ينسيا أن يشيدا بتعصبهم الذى يزيده الأفيون قوة وحرارة . وأخذ الضيف يخلع ملابسه . فانسحب السيد جولياكين الى ما وراء الحاجز . فهو يخشى أولا أن لا يكون قميص ضيفه لائقا ، فمن المستحسن أن يغيب حتى لا يشعر بشيء من المذلة ؛ وهو يريد ثانياً أن يتأكد من سلوك بتروشكا ، أن يسبره قليلا ، أن يبث فى نفسه شيئا من الفرح اذا أمكن ذلك ، أن يلاطفه بعض الملاطفة . كان السيد جولياكين يرغب رغبة قوية فى أن يسود السلم وأن تسود السعادة فى بيته هذا المساء . وللاحظ أيضا أن وضع بتروشكا كان ينعم دائما بالقدرة على جعل السيد جولياكين قلقا غير مرتاح .

قال بطلنا بصوت عذب رخيم وهو يدخل الحجرة المخصصة لخادمه :

ـ عليك أن تنام الآن يا بطرس . ارقد الآن وأيقظني غدا فى الساعة الثامنة . هل فهمت يا بتروشكا ؟

كان فى لهجة السيد جولياكين عذوبة قصوى ورقة عظمى ، ولكن بتروشكا ظل أخرس لا يتكلم ، وظل يتحرك مشغولا حول سريره ، ولم يتنازل حتى أن يلتفت نحو مولاه ، وذلك أيسر مظهر من مظاهر الاحترام .

تابع السيد جولياكين يقول :

ـ هل سمعتنى يا بتروشكا ؟ ارقد الآن يا بتروشكا ، وفى غد صباحا ، أيقظنى فى الساعة الثامنة . هل فهمت ؟

فدمدم بتروشكا يقول متململا :

ـ فهمت فهمت . هل هذا سحر يصعب فهمه ؟

ـ طيب طيب يا بتروشكا . أنا ما قلت لك هذا كله الا من أجل راحتك وسعادتك . نحن الآن سعداء ، وقد أردت أن تكون أنت أيضا سعيدا . وأنا الآن أتمنى لك ليلة طيبة . نم جيدا يا بتروشكا ، نم جيدا . العمل مقسوم علينا جميعاً ... واياك خاصة ياعزيزى أن ينصرف ذهنك الى تخيل أشياء ...

قال السيد جولياديكين ذلك ثم توقف فى منتصف جملة مسائلا نفسه : « ترى ألم أسرف فى القول ؟ ألم أبالغ ؟ أنا دائما هكذا ... أتجاوز الحدود . » . ثم انصرف تاركا حجرة بتروشكا ، مستاء من نفسه بعض الاستياء . ثم انه كان عدا ذلك منزعجا من فظاظة خادمه وانغلاقه . قال لنفسه : « يا للوغد الحقير ! ... يشرفه مولاه بمخاطبته متلطفا هذا التلطف ، ثم هو لا يحس ذلك ولا يشعر به ... على أن هذا سجية عامة فى جميع هؤلاء الخدام . » . وعاد السيد جولياديكين الى غرفته وهو يترنح قليلا ، فلما رأى ضيفه مضطجعا جلس لحظة قربه .

بدأ يقول بصوت خافت وهو يرجح رأسه :

ـ اعترف يا ياشا ، اعترف بأنك مذنب فى حقى أيها الخبيث . أأنت ... ياسمينى ... أأنت .. لا داعى الى الكلام ! » .

قال ذلك بلهجة مرحة فى غير كلفة ؛ ثم مضى الى غرفته بعد أن تمنى لصاحبه ليلة هانئة بكثير من المودة والصداقة . ولم يلبث أن اضطجع

هو أيضا ، مبتسما يخاطب نفسه : « أنت اليوم سكران يا عـــزيزى ياكوف بتروفتش ، أنت سـكران أيهـا اللئيم ... آه منك أيهـا الوغد يا جولبادكين ... نعم ذلك هو الاسم الذى تستحقه ... أنت الليـلة فرحان ... ولكن لماذا ؟ لسوف تسكب فى غد دموعا أيهـا البكّاء ... لا أمل فيك ! » .

وأحس بطلنا فى هذه اللحظة بشعور غريب واخـز هو مزيج من الندم والشك . قال لنفسـه : « أترانى أسرفت فى الحماسـة ! أنا الآن سكران . ان فى رأسى دوارا ... آه ... انني لم أعرف كيف أضبط نفسى ... ان أنا الا أبله ... ولا شك أننى قلت سخافات كثيرة ... كبيرة كجبل ... يا لى من شخص تافه ... صحيح أن الغفران ونسيان الاساءة هما من الفضائل الحميدة ... ولكن هذا لا ينفى أننى أخطأت . ذلك واضح وضوح ماء الصخر » . قال السيد جولبادكين ذلك ثم نهض فتناول شمعة واتجه نحو سرير ضيفه سائرا على رءوس الأصابع . كان يريد أن يلقى نظرة أخيرة على وجهه. فظل مائلا عليه مدة طويلة يتفرس فيه غارقا فى تأمل عميق . ودمدم يقول لنفسه أخيرا : « منظر لا يسر... محاكاة مضحكة ، محاكاة مضحكة لا أكثر ولا أقل ... »

وعاد السيد جـولبادكين الى سريره فـرقد فى هذه المرة رغم كل شيء . وما لبث رأسه أن أصبح مقر صخب حقيقى : ان أنواعا من قرقعة، ورنين ، وصرير تغزو دماغه . وفقد شعوره بالأشياء قليلا قليلا ... أراد أن يسترد وعيه ، أراد أن يثبت فكره على نقطة بعينها ، أراد أن يتـذكر أمرا يتعلق بمسألة ذات شأن هام خطير ، مسألة حرجة دقيقة الى أبعـد حدود الحرج والدقة ... ولكنه لم يظفر بذلك . لقد استولى الكرى على رأسه المسكين فنام ... نام كما ينام رجل لم يألف الشراب ثم شاءت له المصادفة فى ليلة صداقة أن يفرغ فى جوفه خمس كئوس .

الفصل الثامن

في الغداة ، استيقظ السيد جولياد كين فى الساعة الثامنة على عادته . فلم تلبث أحداث الليلة البارحة أن عادت الى ذهنه . صعر وجهه . قال لنفسه وهو ينهض عن سريره وينظر نحو ضيفه « لقد تصرفت أمس تصرف أحمق . » . ولكن ما كان أشد دهشته حين لاحظ أن ضيفه والسرير الذى لا بد أن ضيفه كان نائما عليه قد تبخرا ! ... فلم يكد يستطيع أن يمتنع عن اطلاق صرخة تعجب ! قال لنفسه : «ماهذا ! ما معنى هذه الظاهرة الجديدة ؟ » . كان بطلنا يتأمل المكان الخالى مشدوه العقل فاغر الفم . صرّ الباب وظهر بتروشكا حاملا صينية الشاى . تمتم بطلنا بصوت لا يكاد يسمع وهو يشير بأصبعه الى المكان الذى كان يحتله بالأمس سرير صاحبه : « أين هو ؟ أين هو اذن ؟ » . فلم يجب بتروشكا فى أول الأمر بشىء ؛ حتى أنه لم يتنازل أن يرفع عينيه الى مولاه ، وانما اتجه ببصره الى ركن من الغرفة على يمينه ، فلم يسع السيد جولياد كين

الا أن يحدق ببصره الى ذلك الركن هو أيضاء وأخيرا بعد صمت طويل، أجاب بتروشكا يقول بصوت أجش فظ : « ليس مولاى فى البيت » .

قال جولياديكين بصوت لاهث وهو يلتهم خادمه بنظرته التهاما :

ـ أنا مولاك يا غبى !

فلم يجب بتروشكا ، ولكنه ألقى على مولاه نظرة لم يملك مولاه ازاءها الا أن يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين . كانت نظرته مثقلة باستياء جارح يعدل اهانة مباشرة . وسقطت ذراعا السيد جولياديكين ، على حد التعبير الرائج . وأخبره بتروشكا أخيرا أن الثانى قد انصرف منذ ساعة ونصف ساعة ، وأنه لم يشأ أن ينتظر . بدا قول بتروشكا جائزاً ومعقولاً ، فلا داعى الى الشك فى صدقه . أما نظرته المهينة ، واستعماله تعبير « الثانى » ، فهما من النتائج المحتومة لهذه المصادفة العجيبة ، لهذا التشابه المذهل .

أدرك السيد جولياديكين ، ولو فى غموض وابهام ، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد ، وأن القدر ما يزال يدخر له مفاجآت لن تكون سارة .

قال لنفسه : « طيب طيب . سوف نرى . سوف نرى كل شىء فى حينه ، فنعرف أين نحن وماذا يجب أن نفعل ... » ثم أردف يدمدم بصوت مختلف كل الاختلاف ، بصوت متأوه هو الى الأنين أقرب : « آه يا رب ! لماذا دعوته ؟ لماذا أنا هكذا ؟ لأى هدف فعلت هذا كله ؟ ألا اننى لأدس رأسى فى الشوطة التى هيأها لى هؤلاء المجرمون قطاع الطرق . نعم ، اننى أعقد الحبل على عنقى بنفسى . آه منى ، آه من عقلى ، عقل المجانين ! انك يا جولياديكين لا تستطيع أن تقاوم شهوة ارتكاب الخطأ ، لا تستطيع أن تقاوم الرغبة فى أن تكذب كتلميذ ، ككاتب فى الدواوين ،

كقندلفت تافه ... ان أنت الا خرقة رخوة عفنة ... ان أنت الا ثرثار ... ان أنت الا امرأة مهذار ... ذلك أنت ... آه يا رب ! ولقد نظم الوغد أشعارا أيضا ! ... أعرب لى عن صداقته . سأعرف كيف أريه الباب اذا تجاسر أن يعود . سأقول له مثلا : أنظر يا صاحبى ... ان مرتبى ضئيل ... أو لعلنى أستطيع أن أخيفه اذا قلت له : لما كانت حالتى العامة على ما ترى ، فيجب أن أذكر لك أنك لا بد أن تدفع نصف أجر المسكن ونصف نفقات الطعام ... وأن تدفع المبلغ مقدما . آه ... لا ... يا للفكرة السخيفة ! لا ... هذا مستحيل ... هذا يسىء الى سمعتى ، هذا فظاظة ... لعلنى أستطيع أن أحاول وسيلة أخرى ... أن أوحى الى بتروشكا مثلا بأن يكون وقحا فى معاملته ، بأن لا يظهر له شيئا من الاحترام ، بأن يندفع غاضبا فى وجهه على نحو من الأنحاء بفظاظة ... نعم يمكن طرده بهذه الطريقة . هذا ما يجب أن يعمل . ولكن أأدعهما يصطرعان هما الاثنين ؟ ... لا ... ليس هذا باللائق أيضا ... ليس هذا باللائق أبدا ... ليس هذا بالخير ... واذا لم يعد ؟ لن يكون هذا خيرا كذلك. آه ... لقد أسرفت فى الحديث معه أمس.. آه ... الأمور لا تجرى كما يجب أن تجرى ... انها تجرى مجرى سيئا . ما أخف عقلى ! ما أشد حماقتى ! اننى عاجز عن تحقيق شىء من الترتيب فى أفكارى ... عاجز عن تحقيق شىء من النظام فى رأسى المسكين ... وماذا اذا عاد ليرفض ما عرضته عليه ؟ آ ... ليته يعود ... لسوف يسرنى كثيرا أن يعود ... » .

كان السيد جولياداكين غارقا فى هذه الخواطر وهو يبتلع الشاى ويراقب ساعة الحائط فى الوقت نفسه .

« هى الساعة التاسعة الا ربعا الآن . آن لى أن أذهب . ما الذى سيقع لى ؟ ما الذى سيقع لى ؟ وددت لو أعرف ماذا يحاك لى الآن من

المكائد ! ما هى خطتهم ؟ ما هى نياتهم ؟ ما هى وسائل عملهم ؟ نعم يحسن أن يعرف المرء على وجه الدقة الى أين يريد أن يصل هؤلاء السادة من ذلك كله ، وما هى الخطوات الأولى التى سيقومون بها ! ... » .

نفد صبر السيد جولياد كين . فها هو ذا يرمى غليونه الذى لا يزال ملآن الى النصف ، ثم يسرع فيرتدى ثيابه ، ويهرع الى مكتبه راكضا ، يريد أن يجتنب ما يمكن اجتنابه ، أو يريد على كل حال أن يتحفق بنفسه مما سيجرى . الخطر قائم لا محالة ؟ هو لا يجهل ذلك .

« هيا هيا ، سننفذ الى السر حالا ، سنوضح الأمر كله قريبا » ، كذلك كان يردد السيد جولياد كين فى الدهليز وهو ينضو معطفه ويخلع جرموقيه . لقد قرر بطلنا أن يباشر العمل ، فها هو ذا يعدل ثيابه ويصطنع وضعاً لائقا مهيبا . وفيما هو يهم أن يدخل المكتب ، اذا به يجد نفسه ، عند عتبة الباب ، أمام صاحب الليلة البارحة ، صديقه الجديد ، وجها لوجه ، أنفا لأنف . بدا على السيد جولياد كين الأصغر أنه لا يتعرف السيد جولياد كين الأكبر ، رغم أنهما متقابلان . كان الموظف الجديد مشغول البال جدا ، على عجلة من أمره ، نافد الصبر ، يكفى أن يرى المرء وجهه حتى يقول لنفسه على الفور : « لا شك أن الرجل مكلف بمهمة خاصة ... » .

قال بطلنا ، وهو يتشبث بيد ضيف الليلة البارحة :

ـ ها ... هذا أنت يا ياكوف بتروفتش !

فصاح السيد جولياد كين الأصغر يقول متملصا :

ـ بعد قليل ، بعد قليل ، معذرة ، ستقول لى هذا كله فيما بعد .

ـ اسمح لى مع ذلك يا ياكوف بتروفتش ، يخيل الى يا ياكوف بتروفتش أنك كنت تنوى أن ...

ـ ماذا تقول ؟ اسرع فى ذكر ما تريد أن تذكره ...

لقد توقف ضيف السيد جولياداكين وهو ظاهر الانزعاج والتململ والتبرم . وجعل أذنه عند أنف محدثه .

ـ يجب أن أعترف لك يا ياكوف بتروفتش بأننى مستغرب أن تستقبلنى هذا الاستقبال ... لقد كان من حقى أن أتوقع منك موقفا غير هذا الموقف ...

ـ لكل طلب أصول معينة لا بد من التقيد بها . فاذهب الى سكرتير صاحب السعادة ثم قدم عريضة مستوفية الشروط الى السيد مدير مكتبه . ان لك طلبا ، أليس كذلك ؟

ـ لست أفهمك يا ياكوف بتروفتش . انك تذهلنى يا ياكوف بتروفتش . ألست تعرفنى ؟ أم أن ذلك مزاح يتفق ومزاجك المرح ؟

قال السيد جولياداكين الأصغر وكأنه لم يتعرف السيد جولياداكين الأكبر الا فى هذه اللحظة :

ـ آ ... هذا أنت ؟ هذا أنت ؟ ... قل لى اذن : هل نمت نوما طيبا ؟

قال الموظف الجديد ذلك ثم حرك شفتيه بابتسامة رسمية مؤدبة ، ولكنها لا محل لها فى الظروف الراهنة ، ما دام مدينا للسيد جولياداكين بالفضل ، حتى هذه اللحظة فى أقل تقدير . وشفع ابتسامته الرسمية المهذبة بكلمة قصيرة أعلن فيها لمخاطبه أنه يسره أن يعرف أنه نام نوما طيبا ؛ ولم يلبث أن انحنى انحناءة خفيفة ، وتحرك فى مكانه ، ونظر مرة الى يمين ومرة الى شمال ، ثم خفض عينيه ، وحدق الى باب قريب ، وتمتم يقول انه مكلف بمهمة خاصة مستعجلة جدا ، وهرع يدخل الى الغرفة المجاورة سريعا كومض البرق .

قال السيد جولياديكين بصوت بهيم وقد صفع لحظة : « قصة عجيبة ... قصة عجيبة حقا ... أهذا هو الامر اذن ؟ » . وهنا شعر السيد جولياديكين برعدات تجتاح جسمه كله . تابع يناجي نفسه ، وهو يتجه نحو مكتبه : « على أننى قد أوجست هذا كله منذ زمن طويل ... انه مكلف هنا بمهمة خاصة ... هذه هي المسألة . أمس ، لا أكثر ، قلت ان هذا الرجل موجود هنا للقيام بمهمة خاصة عهد به اليها أحدهم » .

ـ هل أنهيت نسخ نص الأمس يا ياكوف بتروفتش ؟ أهو معك الآن ؟

كذلك سأله أنطون أنطونوفتش بينما كان السيد جولياديكين يجلس على كرسيه .

فأجابه السيد جولياديكين مدمدما وهو يلقى على رئيسه نظرة مهدمة :

ـ نعم هو معى !

ـ طيب ... لقد سألتك عنه لأن آندره فيليبوفتش قد طلبه مرتين حتى الآن . وأحسب أنه لا بد أن يطلبه بعد قليل ...

ـ النص جاهز على كل حال ...

ـ طيب طيب ... عظيم !

ـ أحسب يا أنطـــون أنطونوفتش أننى قـد قمت بواجبي دائما باخلاص ، وانني انجزت دائما الاعمال التى يعهـد بها الىّ رؤســائى بحماسة ونشاط .

ـ أكيد ... ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا ؟

ـ أنا ؟ ... لا شيء يا أنطون أنطونوفتش ... وانما أردت أن أشرح لك يا أنطون أنطونوفتش ... أقصد ... أردت أن أنبهك الى

أن الشر والحسد ، وهما الرذيلتان الساعيتان أبدا في طلب رزقهما اليومى الكريه ، لا يوفران أحدا ...

ـ اعذرنى ... لست أفهم عنك تماما . الى من تشير فى هـذه اللحظة ؟

ـ أريد أن أقول بهذا يا أنطون أنطونوفتش اننى فى هذه الحياة قد اتبعت الطريق القويم دائما ، واننى أكره الطرق الملتوية ، واننى لست بالشخص الذى يدبر المكائد ... وذلك أمر أستطيع أن أعتز به ويمكننى أن أبرهن عليه اذا أتحت لى الفرصة .

ـ نعم ، هذا جائز ، بل اننى اذا فكرت فى الأمر مليا أستطيع أن أوافقك على صدق ما تقول موافقة تامة كاملة . ولكن اسمح لى يا ياكوف بتروفتش أن ألفت نظرك الى أن المجتمع الراقى لايتسامح دائما فى حق غمزات عنيفة تتناول شخصيات مرموقة . أنا من جهتى قد أغفر لأحد الناس أن يقول عنى سوءا من وراء ظهرى ـ وما أكثر ما يقول الناس من وراء الظهر ! ... ـ أما أن يواجهنى أحد بوقاحات ، فذلك أمر لا يمكن أن أسمح به أبدا أيها السيد ! لقد شاب شعرى فى خدمة الدولة أيها السيد ، ولست أسمح لأحد أن يهيننى في هذه السن الوقور .

ـ ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش .. ليس هذا ما أقصده يا أنطون أنطونوفتش ... يخيل الى يا أنطون أنطونوفتش أنك لم تفهم عنى حق الفهم ... أنا من جهتى يا أنطون أنطونوفتش لا يمكن الا أن أتصور أن من الشرف ...

ـ وأرجو أن تعذرنا نحن أيضا . لقد نشأنا وتربينا على الطراز القديم . وقد فات الأوان الآن ، فلا نستطيع أن نتبنى أساليبكم الجديدة . ويخيل الى من جهة أخرى أننا قد أظهرنا قدرا كافيا من حسن الفهم

وسداد الرأى فى خدمة الوطن • وأنت لا تجهل أيها السيد أننى أحمل وساما ، جزاء ما قدمت من خدمات خلال خمسة وعشرين عاما فى العمل موظفا فى الدولة •

ـ أعرف هذا يا أنطون أنطونوفتش ، وأنا من جهتى أشاركك شعورك مشاركة كاملة • ولكننى كنت أتكلم عن شىء آخر ••• كنت أتكلم عن القناع يا أنطون أنطونوفتش •••

ـ عن القناع ؟

ـ أقصد ••• أخشى أن تفسر كلامى تفسيرا خاطئا مرة أخرى •• ان معنى ما أقوله يتفق وآراءك كل الاتفاق يا أنطون أنطونوفتش • أنا لا أزيد على أن أفصل القول حول الفكرة الرئيسية ، ابرازا لها ، وهى أن لابسى الأقنعة ليسوا قلة فى زماننا هذا يا أنطون أنطونوفتش ، حتى أصبح يصعب على المرء أن يتعرف الشخص وراء القناع •••

ـ لا ••• ليس يصعب هذا كثيرا ، حتى لقد يكون فى بعض الأحيان سهلا سهولة كافية ، فما يحتاج المرء الى المضى بعيدا •••

ـ عفوك يا أنطون أنطونوفتش ••• اننى أتكلم الآن عن حالتى الخاصة • فأنا مثلا يا أنطون أنطونوفتش لا أضع على وجهى قناعا الا حين تقتضى الظروف ذلك ••• كأن أحضر عيد كرنفال ••• أو أن أحضر اجتماعات مفرحة من هذا القبيل ••• هذا بالمعنى الحقيقى لا المعنى المجازى طبعا • أما فى علاقاتى اليومية بالناس فأنا لا أضع على وجهى قناعا قط ، هنا بالمعنى المجازى، بالمعنى الرمزى• ذلك ما أردت أن أقوله لك يا أنطون أنطونوفتش •

ـ طيب طيب ، ولكن دعنا من هذا كله الآن • ثم ان وقتى لا يتسع للمناقشة •

قال أنطون أنطونوفتش هذا وهو ينهض عن كرسيه ويجمع الأوراق اللازمة للتقرير الذى كان عليه أن يقدمه لصاحب السعادة ؛ ثم أردف :

ـ أما عن حالتك الخاصة ، فسوف يوضح لك الأمر قريبا ، فتعلم عندئذ من هو الذى يجب أن تحمّله التبعة، من هو الذى يجب أن تتهمه. وعلى هذا فأنا أرجوك ملحا أن تعفينى فى المستقبل من الشروح الخاصة والنثرات التى تسىء الى العمل .

اصفر السيد جولياديكين ، وجمجم يقول :

ـ لا يا أنطون أنطونوفتش ... لم يكن فى نيتى يا أنطون أنطونوفتش ...

ولكن رئيسه كان قد ابتعد . فلما صار السيد جولياديكين وحيداً استمر يناجى نفسه فى خياله سائلا : « ما الذى يحدث هنا ؟ ما هذه الرياح التى تهب الآن هنا ؟ ما معنى هذه الغمزة الجديدة ؟ » .

أصبح صاحبنا أقرب الى الموت منه الى الحياة ، وراح يتأهب لحل هذه المشكلة الجديدة ، حين سمع ضجة تقوم فى الغرفة المجاورة على حين فجأة . وفتح الباب ، وظهر آندره فيليبوفتش على العتبة نافد الصبر . كان قد ذهب الى مكتب صاحب السعادة قبل برهة قصيرة لبعض الأعمال . صاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جولياديكين. واذ كان السيد جولياديكين يعرف الأمر سلفا ولا يريد أن يضطر آندره فيليبوفتش الى الانتظار ، فقد هب واثبا عن كرسيه ، وأخذ يتحرك مسرعا ، فتناول الملف المطلوب منه، فنفض عنه الغبار مداريا اياه مدللا له. وفيما كان يتأهب للسير وراء آندره فيليبوفتش الى مكتب صاحب السعادة متأبطا ملفه ، اذا به حين صار قرب آندره فيليبوفتش الذى كان ما يزال واقفا عند فتحة الباب ، يفاجأ بظهور السيد جولياديكين الأصغر بغتة . لقد تسلل هذا الى الغرفة تسللا ، وكان

يبدو مشغول البال متقطع الأنفاس ، غارقا فى الأعمال • وها هو ذا يصطنع هيئة وقورة رسمية ، ويقبل قدما نحو السيد جولياديكين الأكبر الذى كان على بعد مائة فرسخ من توقع مثل هذا الهجوم •

ـ الأوراق يا ياكوف بتروفتش ، الأوراق ••• لقد شرفنا صاحب السعادة بسؤالنا عن أوراقك هل هى جاهـــزة ؟ ان آندره فيليبـوفتش ينتظرك !

كذلك هذر بصوت خافت وسرعة كبيرة ، الصديق الجديد للسيد جولياديكين • فأجابه السيد جولياديكين يدمدم بصوت خافت وسرعة كبيرة أيضا :

ـ لست فى حاجة الى أن أعرف أنه ينتظرنى •

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله يا ياكوف بتروفتش ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، ليس هذا أبدا • أنا معك يا ياكوف بتروفتش ، أنا معك بكل قلبى •••

ـ أرجوك أن تعفينى من هذا ••• اسمح لى ، اسمح لى •••

ـ عليك طبعا أن تحرص على أن تضع الملف فى غلاف يا ياكوف بتروفتش • ولا تنس أن تضع شريطة صغيرة فى الصفحة الثالثة • اسمح لى يا ياكوف بتروفتش •••

ـ وبعد ؟ ••• بل اسمح لى أنت •••

ـ ولكن ها هنا بقعة حبر يا ياكوف بتروفتش ! هـل لاحظت أن ها هنا بقعة حبر ؟

وفى هذه اللحظة صاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جولياديكين مرة ثانية •

ـ أنا آت يا آندره فيليبوفتش ، فورا ؛ هناك شيء صغير علىّ أن ..
وأخيرا أيها السيد ، ألا تفهم الروسية ؟

ـ خير طريقة أن تحك البقعة بموسى ، يا ياكوف بتروفتش .
صدقنى ... هذا أفضل ... ودع هذا لى أنا يا ياكوف بتروفتش ...
ثق بى ... سأحك البقعة بموسى حكا بسيطا .

وصاح آندره فيليبوفتش ينادى السيد جولياداكين مرة ثالثة .

ـ ولكن أرجوك ... أين ترى بقعة هنا ؟ يخيل الىّ أنه لا أثر لأية بقعة هنا .

ـ بل توجد بقعة .. بقعة كبيرة .. انظر .. هى ذى .. اسمح لى .. هنا رأيت البقعة ، أنظر .. هل تسمح ؟ هات الملف قليلا يا ياكوف بتروفتش ... لا يحتاج الأمر الى أكثر من حك قليل بالموسى ... أنا أفعل عنك ذلك حبا بك يا ياكوف بتروفتش ... أفعله بطيب خاطر ...
أحك البقعة قليلا بالموسى ، وينتهى كل شيء .

وهنا وقع شيء لم يكن فى الحسبان ، ولا كان يمكن أن يخطر ببال. ان السيد جولياداكين الأصغر الذى استطاع أن يتغلب على بطلنا فى هذه المناقشة الصغيرة التى شبت بينهما ، قد استولى على الأوراق التى كان يطلبها صاحب السعادة ، استولى عليها رغم مقاومة السيد جولياداكين ؛ ولكنه بدلا من أن يحك بقعة الحبر المزعومة بموسى حبا بخصمه كما ادعى ذلك كذبا ونفاقا ، طوى الأوراق بسرعة ، ووضعها تحت ابطه ، ومضى يدرك آندره فيليبوفتش بوثبتين . ان آندره فيليبوفتش لم يلاحظ مناورات السيد جولياداكين الأصغر . وهرع الاثنان الى مكتب المدير .

لبث بطلنا مسمرا فى مكانه ممسكا بيده الموسى التى كان يتأهب لاستعمالها فى حك بقعة الحبر فيما يبدو . انه لم يفهم بعد كل ما جرى.

انه لما يثب الى رشده • لقد تأثر بهذه الضربة الأخيرة تأثرا شديدا ، ولكنه ما يزال يعتقد أن المسألة مسألة سوء تفاهم • واستبد به قلق رهيب لا يوصف ، فاذا هو ينتزع نفسه من مكانه انتزاعا ، ويسير مسرعا نحو مكتب المدير • وكان وهو يجرى نحو مكتب المدير يسأل الله العلى القدير مخرجا موفقا من هذا المأزق •••

وفى القاعة الأخيرة ، قبل مكتب المدير ، التقى بطلنا وجها لوجه باندره فيليبوفتش وسميّه • لقد كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة• امحى السيد جولياديكين • كان آندره فيليبوفتش يتكلم مرحا وهو يبتسم• وكان السيد جولياديكين الأصغر يبتسم أيضا ، ويتغنج متزلفا ، ويسير بخطى قصيرة على مسافة من آندره فيليبوفتش من قبيل الاحترام ، ويوشوشه من حين الى حين مشرق الوجه فيجيبه آندره فيليبوفتش هازا رأسه بكبير من الملاطفة • يجب أن نقول ان عمله (كما علم بذلك فيما بعد) قد أرضى صاحب السعادة كثيرا ، حتى لقد تجاوز الآمال التى كان يعقدها صاحب السعادة ، فهو قد أنجز العمل فى المهلة المحددة ، وصاحب السعادة مرتاح الى هذا كل الارتياح ، راض عنه كل الرضى • بل يظهر أن صاحب السعادة قد كال المديح للسيد جولياديكين الأصغر ، وشكر له صنيعه شكرا حارا ، وأضاف الى ذلك أنه سيحسب حساب هذا فى المستقبل ، وأنه لن ينساه قط •

كان طبيعيا أن تكون أول حركة يقوم بها بطلنا هى أن يحتج ، أن يحتج بكل ما أوتى من قوة ، فى حدود الامكان • لذلك أسرع نحو آندره فيليبوفتش ، وقد امتقع لون وجهه حتى صار فى صفرة الموتى ، وهو لا يكاد يعى ما يصدر عنه من أفعال • ولكن آندره فيليبوفتش ، ما ان علم أن المسألة التى كان السيد جولياديكين الأكبر يريد أن يحدثه فيها

مسألة شخصية خاصة ، حتى رفض أن يصغى اليه ، وحتى نبهه بقسوة الى أنه لا يملك لحظة من فراغ يقفها على الاهتمام بشئون شخصية .

وقد بلغت لهجة الرفض من الخشونة والجفاف أنها أحدثت فى بطلنا تأثيرا عميقا . فقال لنفسه : « ربما كان من مصلحتى أن أجىء اليه مواربا ، عن طريق أنطون أنطونوفتش مثلا . » . ولكن شاء سوء حظ بطلنا أن كان أنطون أنطونوفتش غائبا . فلقد نودى هو أيضا ، فهو فى هذه اللحظة مشغول .

قال بطلنا لنفسه : « لقد كان على حق حين طلب الى أن أعفيه من الشروح والتوثرات . نعم ، ذلك ما كان يقصد اليه هذا الفاسق . طيب ... لم يبق علىّ والحالة هذه الا أن أمضى أتوسل الى صاحب السعادة ».

وتهاوى السيد جولياديكين على أحد الكراسى ، وهو ما يزال ممتقع اللون ، مضطرب العقل ، نهبا للشكوك ، لا يدرى ماذا يفعل ... وكان ما ينفك يردد فى ذهنه قائلا لنفسه : « لا شك أن من الأفضل أن لايكون لهذا كله أى دلالة . فالحق أن وضعا كهذا الوضع أمر لا يصدقه العقل من أية ناحية نظرت اليه . هذه ترهات حتما ... ذلك مستحيل قطعا . لا .. لا شك أن هذا كان رؤيا .. لاشك أننى ذهبت بنفسى الى المدير.. ثم حسبت نفسى شخصا آخر ... على كل حال .. هذا كله مستحيل».

وما كاد السيد جولياديكين ينتهى الى استحالة هذه القضية أساسا حتى ظهر سميُّه فى المكتب بغتة ، وهو يحمل تحت ذراعه وفى يديه مقدارا كبيرا من الملفات .

وفيما كان يمر أسرّ الى اندره فيليبوفتش ببضع كلمات لاشك أنها كانت ضرورة لا غنى عنها ، وتبادل بضعة أقوال مع موظف آخر، ولاطف هذا قليلا ، ومازح ذاك شيئا . كان واضحا أن وقته لا يتسع لمشاغل

تافهة • وشاء حظ بطلنا أن جولياديكين الأصغر ، بينما كان يهم أن يجتاز عتبة الباب ليخرج من المكتب ، استوقفه موظفان أو ثلاثة موظفين شباب دخلوا الغرفة فأخذوا يتحدثون معه • فما كان من السيد جولياديكين الا أن هرع نحوه • ولكن السيد جولياديكين الأصغر أدرك حيلة بطلنا فوراء فلم يلبث أن أخذ يبحث عن مخرج ليتملص من الحديث وهو قلق النظرة • غير أن بطلنا كان قد أمسك بكمه • ابتعد الموظفون الذين كانوا على مقربة من صاحبنا يرقبون نتائج الأحداث مستطلعين •

كان السيد جولياديكين يعرف حق المعرفة أن جميع عواطف المودة كانت متجهة نحو خصمه ؛ وكان يدرك أن مكيدة قد دبرت له • وذلك سبب آخر يدعوه الى تأكيد حقوقه • لقد كانت اللحظة حاسمة •

قال سميّه وهو يرشقه بنظرة تفيض احتقارا :

ـ نعم ؟

وكان السيد جولياديكين الأكبر لا يكاد يستطيع التنفس • بدأ يقول :

ـ لا أدرى ، أيها السيد ، كيف أفسر سلوكك الغريب معى •

فأجابه السيد جولياديكين الأصغر وهو يلقى نظرة حوله ، ويشفع النظرة بغمزة للموظفين الذين يحيطون به ، كأنما لينبههم الى أن التمثيلية الهزلية ستبدأ :

ـ طيب ، أكمل كلامك •

ـ ان مايظهر فى أساليبك من وقاحة واستهتار واستخفاف يدينانك مزيدا من الادانة فى الحالة الراهنة ••• يدينانك ادانة يعجز عنها ما قد

أقوله أنا من كلام ... لا تعقد آمالا كثيرة على حيلك فهى خرقاء لا تنطلى على أحد .

ـ دعك من هذا الكلام يا ياكوف بتروفتش ! أليس الأحرى أن تقول لى كيف نمت البارحة ؟

كذلك قال السيد جولياد كين الأصغر لمحدثه وهو يحدق فى عينيه .

فأجابه بطلنا وقد نفد صبره وأصبح لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه من فرط الاضطراب :

ـ لا تنس نفسك أيها السيد ، وآمل أن تغير لهجتك ...

فقال له جولياد كين الأصغر وهو يصعر وجهه تصعيرة استفزاز :

ـ ها ... يا عزيزى ...

ـ ثم اذا هو يقوم بحركة مفاجئة لا يمكن أن يدفع أى شىء على التنبؤ بها .. فيمسك باصبعيه الخد اليمنى الربلة من وجه بطلنا ، على سبيل المداعبة .

اشتعل بطلنا غيظا . انه الآن أخرس من شدة الحنق ، أحمر اللون كالجنبرى ، مرتعد الأعضاء جميعا . أدرك خصمه أن بطلنا عيل صبره فهو يوشك أن يهجم . لذلك سارع يسبقه الى ذلك على أوقح صورة ، فها هو ذا يربت على خده اليمنى مرتين ، ويدغدغه مرتين ، ملاعبا خصمه الجامد من الذهول ، الطائش اللب من الحنق ، مرضيا بذلك من كانوا يحيطون بالرجلين من الموظفين الشباب ؛ ثم ها هو يمضى الى قمة الغطرسة فيلكز كرش خصمه ويقول له وهو يبتسم ابتسامة تفيض لؤما وغمزا : « يا لك من ماكر يا عزيزى ... لسوف ندبر لهم مكائد يا ياكوف بتروفتش ، نعم سوف ندبر لهم مكائد ... » . ثم ها هو ذا ، دون أن

يدع لبطلنا فرصة الأوبة الى رشده بعد هذه الهجمة الجديدة ، يبتسم ابتسامة جديدة على المشهد ، ثم ما يلبث أن يصطنع هيئة رسمية ، هيئة رجل مشغول جدا ، فيخفض عينيه ، ويتقلص ، ويدمدم بقوله مسرعا : « هناك مهمه مستعجلة يجب أن أقوم بها » ، ثم يحرك ساقيه القصيرتين منسلا الى الغرفة المجاورة .

لبث بطلنا على حاله مبهورا مشدوها . انه لا يصدق عينيه ، ولا يستطيع التخلص من انفعالاته ...

وثاب أخيرا الى صوابه . فسرعان ما أدرك أنه قد ضاع ، أنه قد صار أضحوكة ، أن شرفه قد تلطخ ، أن العار أصبح يجلله . لقد استهزىء به على مرأى من الناس ، والشخص الذى استهزأ به هو الرجل الذى كان يعده فى الليلة البارحة خير صديق له . لقد ساءت سمعته الى الأبد .

واندفع السيد جولياديكين يلحق بعدوه ، لا يحفل بمن شهدوا الاهانة ولا يعبأ بهم . قال يردد لنفسه : « انهم متواطئون ، يسيرون جميعا يدا بيد ، ولا يفكر أحد منهم الا فى تحريض الآخر علىّ . » . ومع ذلك ما كاد السيد جولياديكين يقطع عشرة أمتار حتى أدرك أن كل ملاحقة باطلة لا طائل تحتها ولا خير منها ، فعاد أدراجه .

قال يخاطب غريمه بينه وبين نفسه : « لن تفلت منى . سوف تقع فى فخى عاجلا أو آجلا ... سوف أسأل الذئب عن دموع الحمل . » ووصل الى كرسيه فجلس عليه وهو يفيض حقدا باردا وتصميما قويا .

« لن تفلت منى ! » كذلك ردد السيد جولياديكين . لم يبق الأمر عنده أمر دفاع ، بل أصبح أمر هجوم .

لو رأى أحد السيد جولياديكين فى هذه اللحظة ، وقد احمر وجهه

من الغضب وأصبح لا يكاد يستطيع أن يسيطر على انفعاله ، لو رآه يغمس ريشته فى الحبر ويأخذ يكتب حانقا ، لقال حتما ان القضية لن تقف عند هذا الحد ، وان بطلنا لن يكتفى قط بحل مبتذل بسيط • ان قرارا جازما قاطعا قد قام فى أعماق نفسه • ولقد حلف ليضعنّه موضع التنفيذ لامحالة ••• الحق أنه لما يعرف تماما أى سلوك يجب عليه أن يسلك ، أو قل انه لا يعـــرف ما الذى يجب عليه أن يفعله أصـــلا • ولكن لا ضير ••• « لا ياسيدى ، ان الاغتصاب والوقاحة لا ينجحـان فى هـــذا الزمان • الاغتصاب والوقاحة سوف يوصلانك الى القوة لا الى السعادة يا سيدى • ان جريشكا أوتريبييف وحده قد وصل الى أغراضه باغتصاب اسم ولقب• لقد خدع شعبا أعمى ، ولم يخدعه زمنا طويلا على كل حال • » •

ورغم هذه الاعتبارات قرر السيد جولياديكين ، حتى يرد ، أن ينتظر اللحظة التى تسقط فيها جميع الأقنعة من تلقاء ذاتها ، فتنكشف عنـدئذ حقيقة الناس والأشياء • وكان عليه أولا أن ينتظر ساعة انتهاء العمل ، فلا يشرع فى شىء قبل ذلك • هناك اجراءات معينة عليه أن يتخذها عند الخروج من المكتب • حتى اذا اتخذ هذه الاجراءات أصبح يعرف الخطة التى يجب عليه أن يتبعها لتحطيم هذا الصنم الوقح ، لسحق هذه الأفعى التى تقضم الجثة ، هذه الأفعى التى تحتقر الضعفاء • ومهما يكن من أمر، فان السيد جولياديكين لن يسمح أبدا بأن يعامل كخرقة بالية لا تصـلح الا لتنظيف الأحذية المتسخة ؛ انه لن يسمح أبدا بهذا ، ولا سيما فى الظروف الراهنة • لولا هذه الوقاحة الأخيرة ، لكان يمكن لبطلنا أن يقرر ضبط نفسه وكبح جماحه ، ولكان يمكن أن يلتزم الصمت وأن يتجه الى المصالحة دون أن يصر على احتجاجات صاخبة كثيرة ••• ولكان يمكن أن يكتفى بمناقشة قصيرة يؤكد بها حقوقه التى لا تجحـد : كان يمكن عندئذ أن يقبل بعض التنازلات فى أول الأمر ، وأن يقبل تنازلات أخرى

بعد ذلك ، وأن ينتهى أخيرا الى قبول تسوية كاملة ، اذا اعترف أعداؤه صراحة بأنه على حق .

ويميناً انه ليكون مستعدا بعدئذ لمصالحة تامة ، حتى لقد يرق قلبه قليلا . ومن يدرى ، فقد يكون هذا بداية صداقة جديدة ، صداقة وطيدة حارة ، أقوى وأوسع من صداقة الليلة البارحة أيضا . وفى وسع هذه الصداقة الجديدة أن تمحو السيئات الناشئة عن هذا التشابه المشئوم بين شخصيهما محوا تاما ؛ وفى وسعها أن تحمل السعادة الى هذين الموظفين اللذين يستطيعان أن يعيشا عندئذ فى سلام وطمأنينة مائة سنة و ... أكثر من ذلك أن السيد جولياديكين قد أخذ يندم على تدخله دفاعا عن حقه تدخلا كان لا بد أن تكون له عواقب سيئة .

قال السيد جولياديكين لنفسه : « يكفى أن يتراجع ، يكفى أن يعترف أن هذا كله لم يكن الا سفاسف ، حتى أغفر له وأعفو عنه ... لا سيما اذا أعلن ذلك جهارا على رءوس الاشهاد . ولكننى لن أسمح أبدا بأن أعامل كخرقة بالية . انني لم أسمح بذلك لأحد فى حياتى : لم أسمح به حتى لأشخاص أقوى منه ، فكيف أحتمل مثل هذه الاهانة من رجل فاسد مثله . لست خرقة بالية أيها السيد ، لا لست خرقة بالية . » . ويمكن تلخيص النتيجة التى انتهى اليها السيد جولياديكين فى جملة هى التالية : أنت ، أيها السد ، المسئول الآثم الوحيد عن حالة الامور هذه كلها . . . لقد قرر السيد جولياديكين الآن أن يحتج ، أن يدافع عن نفسه ، بجميع الوسائل ، الى النهاية القصوى . ذلك طبعه . انه لا يستطيع الرضوخ للاهانة . انه لا يقبل أن يداس كما تداس خرقة بالية . انه لا يقبل هذا ، ولا سيما من شخص جدير بالاحتقار كهذا الشخص . قد يقبل مثل هذا من شخص يريد بل يعزم عزما أكيدا على أن يعامل السيد جولياديكين معاملة أتان ، ويتوصل الى ذلك بدون كبير مقاومة منه ، وبدون كبير خطر

على كل حال • هذا أمر كان السيد جولياديكين يقبله هو نفسه أحيانا • كان في وسع الرجل أن يجعل من بطلنا خرقة بالية ، خرقة يرثى لها ، خرقة متسخة ، ولكنها خرقة يمكن أن يكون لها مع ذلك شيء من كرامة، ومن حماسة ، ومن عواطف : هي كرامة صغيرة طبعا، وهي طبعا عواطف فقيرة مكبوتة في الثنايا العميقة المتسخة من الخرقة البالية التعيسة أيضا ••• ولكنها عواطف على كل حال •••

وكانت الساعات تجرى بطيئة بطئاً يبعث في النفس الحزن واليأس • ودقت الساعة الرابعة اخيرا • فما هي الا لحظات حتى أخذ الموظفون ينهضون ويتركون المكتب وراء رئيسهم ليمضي كل منهم الى منزله • اندس السيد جولياديكين بين الجمهور • كانت عينه ترقب الشخص الذى كان عليه أن لا يدعه يفلت منه • ورأى بطلنا سميَّه يتجه نحو حراس المعاطف • كان السيد جولياديكين الأصغر يثرثر على عادته الكريهة مع الحارس بانتظار أن يأخذ معطفه • انها لحظة فاصلة • واستطاع السيد جولياديكين أن يشق لنفسه طريقا بين الجمهور ، لأنه لا يريد أن يكون بعيدا عن غريمه ، وطلب معطفه هو أيضا ؛ ولكن صديقه ، صديق الليلة البارحة ، أعطى معطفه قبله • لا شك أن صاحبه قد عرف كيف يتسلل الى الحارس ويتزلف اليه ويتملقه خفية ، بما عهد فيه من خسة وصغار •

ارتدى الغريم معطفه بسرعة ، وألقى على السيد جولياديكين نظرة ساخرة • ذلك تحد سافر واستفزاز مباشر على رءوس الأشهاد • ثم ألقى نظرة على ما حوله ، بالغطرسة المألوفة فيه ؛ وأراد أن يحتفظ بما حصل من تفوق على خصمه أمام جميع الناس ، فأسرع يختلط بالموظفين ، يقول لهذا كلمة ، ويوشوش ذاك لحظة ، ويزجي الى الثالث ملاطفة ، ويتجه نحو الرابع بابتسامة ، ويصافح يدا من الأيدى ، ثم يهبط السلم خفيفا مرحا • هرع بطلنا يجرى في أثره ، فما كان أشد اغتباطه حين استطاع

أن يدركه عند آخر درجة من درجات السلم ! ... وها هو ذا يمسكه من ياقة معطفه ... بدا على السيد جولياديكين الأصغر غير قليل من الحيرة والارتباك ، ونظر فيما حوله نظرة مروعة ؛ ثم دمدم أخيرا يقول بصوت منطفىء :

ـ ما معنى هذا ؟

فقال بطلنا :

ـ أيها السيد ، اذا كنت رجلا محترما، فعليك أن تتذكر ما كان بيننا من علاقات الود والصداقة بالأمس .

ـ ها ... نعم ... بالمناسبة ، هل نمت نوما طيبا ؟

لم يستطع السيد جولياديكين أن ينطق بكلمة واحدة من شدة حنقه وغيظه . ثم قال :

ـ نعم ... لقد نمت نوما طيبا جدا ... ولكن اسمح لى أن أنبهك أيها السيد الى أن لعبتك مرتبكة ارتباكا فظيعا .

ـ من ذا الذى يدعى هذا ؟ ان أعدائى هم الذين يقولونه ...

كذلك أجاب الرجل الذى سمى نفسه للناس جولياديكين. وبحركة مفاجئة عنيفة تملص من قبضة بطلنا الضعيفة .

ولم يلبث أن وثب الى الشارع بسرعة ، وأخذ ينظر هنا وهناك ، فلما لمح عربة جرى نحوها مسرعا ، واختفى عن عينى السيد جولياديكين الأكبر . بقى بطلنا وحيدا ، مهجورا من جميع الناس ، فريسة غم شديد وحزن رهيب . نظر فيما حوله ، ولكنه لم يبصر أية عربة . أراد أن يركض ولكن ساقيه ترنحتا . استند بجسمه الى عمود من أعمدة الغاز ، منقلب الرأس ، فاغر الفم ، متقلص الظهر ، خائر القوى . ولبث على هذه الحال فى وسط الرصيف لحظات طوالا . كان يبدو للسيد جولياديكين أن كل شىء قد ضاع .

الفصل التاسع

جميع الناس متواطئون على السيد جولياديكين ، وكأن الطبيعة نفسها متواطئة عليه • ولكن السيد جولياديكين ظل واقفا لا يريد أن يعترف بالهزيمة• لا ••• انه لم يهزم ••• انه لم يغلب ••• ذلك شيء يحسه ••• وهو مستعد لأن يصارع ••• ولقد بلغ من القوة والحماسة فى حك يديه احديهما بالأخرى ، بعد انقضاء لحظة الذهول الأولى ، انه يكفى المرء أن يرى وضعه حتى يصبح على يقين من أنه لن يذعن بحال من الأحوال • ولقد كان الخطر واضحا مع ذلك • ان السيد جولياديكين يدرك هذا حق الادراك •

وكيف كيف السبيل الى تفاديه ؟ هذا هو السؤال • ولمعت فى رأسه فكرة فى لحظة من اللحظات : « أليس الأفضل أن يدع الأمور تجرى على أعنتها ، وأن يتراجع لا أكثر ولا أقل ؟ لماذا ؟ ولماذا لا ؟ أبتعد •••

كأن الأمر لا يعنيني في شيء ... أترك القضية تجرى من تلقاء ذاتها ، فلا أتدخل ... الأمر لا يعنيني وكفى ! ... ولعله يرضخ ويذعن هو أيضا ... يدور كمايدور الخذروف ، هذا الفاسق ، ثم يدور ويدور ، ثم يتوقف راضخا مذعنا ... نعم ، هو كذلك ، سأنتصر عليه بالاذعان. ولكن أين الخطر في الواقع ؟ أي خطر هنالك ؟ ليت أحدا يقول لي أين يوجد الخطر ! .. قضية تافهة .. قضية مضحكة .. لا أكثر » .

هنا توقف السيد جولياديكين . جمدت الكلمات على لسانه . أنَّب نفسه أشد التأنيب على هذه الخواطر . وسرعان ما اتهم نفسه بالحقارة والجبانة . ولكن هذا لا يقدم أموره خطوة واحدة . كان يحس احساسا واضحا بأنه لا بد في هذه اللحظة من اتخاذ قرار . وكان يحس أيضا بأنه مستعد لأن يدفع أي ثمن لمن يرشده الى حل . ولكن كيف يستطيع أن يجد هذا الحل بنفسه ؟ ثم ان وقته لا يتسع للبحث عن هذا الحل . وها هو ذا يستأجر عربة ويأمر سائقها بأن يقوده الى بيته ، حتى لا يضيع كثيرا من الوقت سدى . سأل نفسه : « والآن ، كيف حالك ؟ كيف حالك في هذه اللحظة يا ياكوف بتروفتش ؟ ما الذي ستفعله ؟ ما الذي تنوى أن تفعله الآن أيها الجبان ، أيها الرعديد ؟ لقد صنعت كل شيء حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، وهاءنت ذا تأخذ تباكى وتتشكى ! » . هكذا كان السيد جولياديكين يستهزىء بنفسه بينما كانت رجلا عربته العتيقة تهزه وتتقاذفه يمنة ويسرة . ان هذه الاستهزاءات المرة الكاوية التي تنكأ جروحه تحدث الآن في نفسه أقوى لذة بل أكبر متعة .

قال يخاطب نفسه : « تصور لحظة أن ساحرا ظهر أمامك الآن فجأة ـ ساحرا أو أي انسان آخر يملك قدرات فوق الطبيعة ـ فقال لك: اعطني اصبعا من أصابع يدك اليمنى يا جولياديكين فأسوى لك الأمور ، فلا يكون هنالك بعدئذ جولياديكين آخر ، وتعيش سعيدا بغير اصبع ...

ألا انني مستعد لأن أعطيه الاصبع التي يطلبها ... لسوف أعطيه اياها حتما ... لسوف أعطيه اياها دون أن تطرف لى عين ... » .

وصاح الموظف المسكين أخيرا يقول وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ: تباً لهذا كله ... لماذا هذه المصائب جميعها ؟ لماذا يجب أن يقع لى كل هذا ، لماذا يجب أن يقع لى هذا بعينه ، لا أى شيء آخر غيره ؟ وكان كل شيء يجرى على ما أحب قبل ذلك ... كنت راضيا وكنت سعيدا ... فهل كان لا بد أن يقع لى ما وقع ؟ ... مهما يكن من أمر فلن نصل الى شيء بالأقوال وحدها ، وانما يجب أن تقرن الأقوال بأفعال . » .

وبينا هو يهم أن يتخذ قرارا دخل الى مسكنه ، فتناول غليونه دون أن يضيع لحظة واحدة ، وأخذ ينشق بكل ما أوتى من قوة ، نافثا سحائب الدخان فى كل اتجاه هنا وهناك ، سائرا فى الغرفة جيئة وذهابا ، وقد تملكه انفعال شديد . وفى أثناء ذلك أخذ بتروشكا يعد المائدة . فما هى الا لحظات حتى كان بطلنا قد اتخذ قراره الحازم الذى لا رجعة عنه . فرمى غليونه ، وأسرع يرتدى معطفه ويخرج من المنزل قائلا لخادمه انه لن يتغدى اليوم فى البيت . وفيما كان يهبط السلم أدركه بتروشكا لاهثا وهو يمد اليه قبعته التى نسى بطلنا أن يأخذها من فرط تعجله . فتناول جولياديكين القبعة وأراد أن يقول بضع كلمات عرضا من أجل أن يبرر هذا النسيان حتى لا يظن بتروشكا الظنون فى تعليل اضطرابه ، ولكن بتروشكا لم يتنازل أن يلقى عليه نظرة واحدة ، بل عاد أدراجه . فلم يسع السيد جولياديكين الا أن يضع القبعة على رأسه مستغنيا عن أى تبرير ، وأسرع يهبط السلم وهو يدمدم بأن كل شيء يمكن أن يسوى على أحسن وجه . وكان يحس مع ذلك برعدات تسرى فى جسمه كله من الرأس الى القدمين . واستوقف حوذيا وأمره أن يمضى به الى منزل آندره فيليبوفتش .

قال لنفسه فجأة وهو يهم أن يشد حبل جرس منزل آندره فيليبوفتش : « ولكن أليس الأفضل أن أرجيء هذه الزيارة الى الغد ؟.. ثم ماعساني قائلا له ؟ ليس ثمة شيء ذو بال أقوله له ... ماذا اقول له ؟ المسألة تافهة في الواقع ، المسألة تافهة لا قيمة لها ... هي مسألة تافهة تفاهة مطلقة ... هي مسألة صغيرة حقيرة ليست بذات شأن ... أو لا يكاد يكون لها شأن ... وما هي بالمسألة الخطيرة على كل حال ...»

وفجأة شد السيد جولياد كين حبل الجرس . فسمع صوت الجرس يرن في داخل البيت ، ثم سمع وقع خطوات تتجه نحو الباب . لعن السيد جولياد كين نفسه على هذا التعجل وهذا التهور. وسرعان ماتذكر مشكلاته الأخيرة ومشاداته الأخيرة مع آندره فيليبوفتش ، التي كانت قد انتقلت الى المحل الثاني من اهتمامه ، بسبب وجود ما هو أشد منها لجاجة عليه . ولكن أوان الهروب كان قد فات ، فها هو ذا الباب يفتح . وشاء حسن حظ بطلنا أن يقال له ان آندره فيليبوفتش لما يعد من المكتب ، وانه لن يتغدى اليوم في المنزل . قال صاحبنا يخاطب نفسه هاذيا من شدة الفرح: « أنا أعرف أين يتغدى.. لاشك أنه يتغدى قرب جسر اسماعيلوفسكي». وسأله الخادم هل من رسالة ينقلها منه الى مولاه ، فأجابه جولياد كين بقوله : « لا يا صديقي ، شكرا ، ليس هناك شيء ... سأعود مرة أخرى ... » . قال جولياد كين ذلك وأسرع يهبط السلم فرحا كل الفرح .

حتى اذا صار في الشارع نقد الحوذي أجره وطلب اليه أن ينصرف فطالبه الحوذي بزيادة قائلا : « لقد انتظرت مدة يا سيدي ، ولم أرحم حصاني في سبيل خدمتك » ، فكافأه السيد جولياد كين بخمس كوبكات مبتهجا ، ومضى يسير على قدميه .

قال لنفسه وهو في الطريق : « المسألة حرجة ... ولا يسع المرء

أن يهملها . ولكننى اذا فكرت فى الأمر مليا أرى أنه من غير المفيد أن أقلق نفسى الآن . ما فائدة أن أجتر الحكاية نفسها فأعكر صفوى وأحنق نفسى ؟ ما فائدة هذا العذاب وهذا الاضطراب وهذا الألم أسببه لنفسى ؟ ما جدوى أن أمزق قلبى ؟ ما كان فقد كان ... ولا حيلة لى فى العودة عنه ... ولا فائدة من الرجوع اليه .. هلا فكرت قليلا : هذا انسان.. أقول هذا انسان حمل رسائل توصى به خيرا .. وهو فيما يقال من معدن طيب خليق بأن يجعله موظفا ناجحا ... وسلوكه لا غبار عليه . وهو الى ذلك فقير ... قاسى فى حياته آلاما كثيرة ، ولقى متـــاعب جمة من كل نوع . والفقر ليس بعيب . فما شأنى أنا فى الأمر ؟ ... » .

« وما هى القضية فى الواقع ؟ لقد شاءت نزوة من نزوات الطبيعة أن يكون بينى وبين هذا الانسان تشابه كبير كتشابه قطرتى ماء ، حتى لكأنه نسخة منى حقا ؛ فهل يرفضون توظيفه لهذا السبب ؟ اذا كان القدر ، نعم اذا كان القدر الأعمى هو المسئول عن هذا التشابه ، فهل يداس الرجـل كما تداس خرقة بالية ، وهل يمنع من حق العمل ؟ ... أين العـدالة فى هذا ؟ ... انه رجل فقير مهجور أعزل ، ينفطر القلب لرؤيتـه . فالبر والاحسان والمحبة توجب حمايته وتأمر برعايته . نعم ، ذلك هـو الأمر تماما . هل على رؤسائنا أن يفكروا فى القضية على نحو ما فكرت أنا فيها من قبل ؟ يا لغبائى ! يا لحماقتى ! ألا اننى حيوان كعشر حيوانات بلاهة ... من حسن الحظ أن رؤساءنا قد أحسنوا عملا فضموا الفقـير المسكين ... لأفرض أننا توأمان ، نعم ، لأفرض أننا أخوان توأمان منذ الولادة ، وكفى ! ... هل فى هذا شىء خارق للمألوف ؟ أبدا ... ومن الممكن تعويد الموظفين الآخرين على هذه الفكرة ... أنا واثق أنه اذا دخل الى مكتبنا شخص غريب لما رأى فى هذا التشابه ما يسىء الى الكرامة أو يجرح الشعور ... حتى لقد يكون فى ذلك جانب يبعث على المحبة ،

وذلك على أساس الفكرة التالية : لقد أرادت مشيئة الله أن تخلق مخلوقين متشابهين تشابها كاملا فأحدهما « مثل » الثانى .. والرؤساء الكرام فهموا مشيئة الله فضموا التوأمين فى كنفهم ومنوا عليهما بالرعاية والحماية .. »

واسترد جولياداكين أنفاسه ، ثم عاد يقول وقد خفض صوته قليلا : « صحيح أنه كان من الأفضل أن لا يقع شيء من هذا أصلا ... لا تلك المصادفة التى تثير عاطفة المحبة ، ولا قصة التوأمين هـــذه ... ما كانت حاجتنا الى كل هذا ؟ لقد كان فى الامكان أن يستغنى عن القضية كلهـا أساسا ... رباه ! ما هذه الورطة التى أقحمنا فيها هؤلاء الجن ، هـؤلاء الشياطين ! ويجب الاعتراف على كل حال أن سلوكه لا يدل على شيء من خلق كريم ... ثم انظر الى وجهه الباش الذى ينم عن النفاق ... انه لانسان ماكر حقا ... انسان متجسس ، عبد متزلف حقـــير ، هـــذا الجولياداكين ! ... انه لن يتورع عن تلطيخ شرفى بسلوكه الدنيء ، هذا الوغد ! .. يجب علىّ أن أراقبه ! يا لهذا العمل من سخرة !... ولكن هل هذا مفيد حقا ؟ انه حتما غير مفيد ... هـو رجـل نذل ما فى ذلك ريب ... أما أنه نذل فهو نذل ... وسيظل نذلا . ولكن الآخر رجل شريف . طيب .. فليبق هو نذلا ولابق أنا شريفا . وسيقول الناس : جولياداكين هذا نذل جبان فلنشح عنه ولا نخلطن بينه وبين الآخر ! أما جولياداكين داك فهو شريف فاضل دمث مسالم فيمكن الاعتماد عليه فى العمل ، ويستحق ترقية من غير شك . هذه هى المسألة ... ولكن ... ماذا لو خلطوا بيننا ! هو لا يتورع عن شيء ... هو لا يتورع عن انتحال شخصية رجل آخر ... نعم هو لا يتورع عن ذلك أبدا ... وهـــو لا يتورع عن احالة ذلك الرجل الآخـــر الى خرقة بالية ... آه ... يا رب ! يارب ! ما هذه النازلة ! ... » .

وفيما كان السيد جولياداكين ممتلئاً بهذه الخواطر كان يضرب فى

الأرض على غير هـدى ، لا يعرف الى أين تقـوده قدماه • ولم يثب الى رشده الا حين صار في شارع نفسكى • وكان لابد أن يثوب الى رشده في الواقع ، لانه اصطدم بأحد المارة اصطداما عنيفا ، فتمتم ببضع كلمـات اعتذار دون أن يرفع رأسه وكان الرجل الذى اصطدم به قد ابتعد بعد أن نطق ببعض الشتائم • رفع السيد جولياديكين رأسه ونظر فيما حوله • فلاحظ عندئذ أنه على مقربة من المطعم الذى استراح فيه قبيل ذهابه الى تلك السهرة في منزل أولسوفى ايفانوفتش • فسرعان ما أحس بقرصات في معدته ، فتذكر أنه لم يتناول غداءه بعد ؛ واذ كان من جهة أخرى غير مدعوا الى الغداء عند أحد فقد أسرع يصعد درجات سلم المطعم وقد قرر أن يأكل لقمة على عجل •

الأسعار غالية قليلا ، ولكن غبنا يسيرا كهذا ليس من شأنه أن يوقف السيد جولياديكين ، فلا قيمة لمثل هذه السفاسف عنده في لحظات كهـذه اللحظات • في قاعة تتلألأ فيها الأنوار كان حشد كبير من الزبائن يزدحم حول البسطة التى مدت عليها ألوان من المقبـلات ترضى أشد الأذواق رهافة • وكان القيم على البسطة غارقا في العمـل لا يكاد يستطيع خدمة الزبائن جميعا ، فهو يسكب الشراب ، ويقدم الأطباق ، ويتقاضى الأثمان، ويرد البواقى • اتخذ السيد جولياديكين مكانه في الصف ، حتى اذا جاء دوره مد يده الى فطيرة صغيرة فتناولها ، ثم مضى الى أحد الأركان يأكلها بشهية كبيرة مديرا للحضور ظهره • فلما فرغ من التهامها عاد الى البسطة فردّ الطبق • واذ كان يعرف الأسعار فقد أخرج قطعة من النقد بعشرة كوبكات ووضعها على البسطة وهو يبحث بنظره عن البائع ليدله على أن هذه الكوبكات العشرة هى ثمن فطيرة صغيرة أكلها •

فهمهم البائع يقول بين أسنانه :

ـ عليك روبل وعشرة كوبكات •

فدهش السيد جولیادکین دهشة شدیدة .

ـ أتخاطبنی أنا ؟ یخیل الیّ أننی لم آخذ الا فطیرة واحدة .

فقال البائع مؤکدا :

ـ بل أخذت احدی عشرة فطیرة .

ـ ماذا تقول ؟ ... یخیل الی أنك علی خطأ ... فاننی واثق تقریبا من أننی لم آخذ الا فطیرة واحدة .

ـ عددت الفطائر التی أخذتها . لقد أخذت احدی عشرة فطیرة . علی الانسان حین یتناول طعامه بنفسه أن یعرف کیف یدفع ثمن ما أخذ . نحن لا نقدم هنا هدایا ! ...

صعق السید جولیادکین .

وساءل نفسه : « أترانی سحرت ؟ »

وکان البائع فی أثناء ذلك ینتظر قـرار بطلنا . وکان الناس قـد أخذوا یتحلقون حوله . فدس یده فی جیبه وأخرج منها قطعة فضـیة بروبل واحد ، مقررا أن یدفع علی الفـور ، حتی لا یتعـرض لارتکاب خطیئة ...

قال لنفسه وقد احمر وجهه حتی صار بلون الجنبری : « طیب .. فلأدفع ثمن احدی عشرة فطیرة ما دام یصر علی ذلك ... لا غرابة فی أن یأکل امرؤ احدی عشرة فطیرة ... هنیئاً مریئاً ... ومهما یکن من أمر فلیس فی هذا ما یثیر الدهشة أو یبعث علی الضحك ... »

وفجأة ساور السید جولیادکین حدس سریع . فما ان رفع عندئذ بصره حتی فهم کل شیء ، وأدرك سر السحر ... تبددت الشبهات کلها دفعة واحدة ... فعلی عتبة الباب المؤدی الی الغرفة المجاورة ، وراء ظهر

البائع ، أى أمام بطلنا تماما ، عند فرجة الباب الذى كان السيد جولياداكين يظنه حتى ذلك الحين مرآة ... هنالك كان يقف رجل قصير لا شك فى أنه السيد جولياداكين نفسه ... لا جولياداكين الأصلى ، لا جولياداكين القديم ، بطل هذه القصة ، بل جولياداكين الآخر ، جولياداكين الجديد . وكان واضحا أنه مبتهج جدا . انه يبتسم ابتسامة وقحة ، ويتجه الى بطلنا باشارات من رأسه وغمزات من عينيه . وهو يتحرك فى مكانه متهيئا للهروب الى الغرفة المجاورة عند أول بادرة ، وللانسلال من هنالك الى الخارج عن طريق سلم الخدمة ، فتستحيل عندئذ مطاردته .. وكان يمسك بيده آخر قطعة من الفطيرة العاشرة ، وها هو ذا يلتهمها على مرأى من بطلنا مطقطقا بلسانه تعبيرا عن الغبطة والحبور ..

قال السيد جولياداكين لنفسه وقد احمر وجهه احمرارا شديدا ، واحترقت نفسه شعورا بالخجل والعار : « استغل الحقير التشابه بيننا ولم يستح أن يفعل هذا أمام الناس ... أتراهم أدركوا ذلك ؟ أتراهم يبصرونه ؟ يظهر أن أحدا لم يشعر بهذا الانتحال ... » . قذف السيد جولياداكين قطعة النقد الفضية على البسطة كما لو كانت تحرق أصابعه ، ثم انسل من خلال الحشد وخرج ، حتى دون أن يلاحظ الابتسامة الوقحة التى ظهرت فى وجه البائع ، وهى ابتسامة تعبر عن ظفره وتشهد بسيطرته الهادئة على نفسه .

قال جولياداكين لنفسه : « هو سعيد لأنه لم يذهب بكرامتى تماما . نعم ، يجب أن أشكر لهذا اللص وان أشكر للقدر أن الأمور قد سويت أخيرا . صحيح أن هذا البائع كان فظا . ولكن يجب الاعتراف بأنه كان على حق . ان له روبلا وعشرة كوبات حقا . هذا طبيعى ... ما من أحد يعطى شيئا بالمجان فى بلادنا . ومع ذلك كان فى وسعه أن يكون أكثر دماثة ، هذا المتحذلق ! ... » .

بهذا كان السيد جولياديكين يحدث نفسه وهو يهبط السلم • حتى اذا بلغ الدرجة الأخيرة من درجات المدخل توقف على حين فجأة متجمدا، صعد الدم الى وجهه ، وظهرت فى عينيه الدموع • كان فى ذروة الألم والشعور بالذل • وظل جامدا على هذه الحال قرابة نصف دقيقة ، ثم قرع الأرض بقدمه قرعة قوية ، وقفز الى الرصيف بوثبة واحدة ، وأخذ يركض كمجنون لا يلتفت الى وراء ولا يلوى على شىء • ركض نحو بيته فى شارع « الدكاكين الست » لاهثا دون أن يشعر بالتعب ، فما ان وصل حتى جلس على الديوان وتناول محبرة وريشة وأخرج ورقة وأخذ يكتب بيد ترتعش انفعالا (فعل ذلك قبل أن يخلع معطفه ، خلافا لعاداته اللطيفة ، وقبل أن يحشو غليونه) •• واليكم الرسالة التى حررها •

السيد المحترم ياكوف بتروفتش ،

« ما كان لى أن أتناول القلم لولا أن الظروف الراهنة بالاضافة الى سلوكك يا سيدى تجبرنى على ذلك اجبارا • فصدقنى اذا قلت لك ان الضرورة وحدها هى التى تلزمنى بأن أدخل معك فى شروح كهذه ؟ لذلك أرجوك أولا أن لا تعد عملى هذا جوابا على ما بدر منك من اهانات، جوابا فكرت فيه مليا ثم عزمت عليه أخيرا ، بل نتيجة لا معدى عنها للظروف التى تحيط بمصيرنا المشترك » •

قال السيد جولياديكين لنفسه وهو يعيد قراءة ما كتب : « يبدو لى أن هذا جيد جدا • فهو محتشم ومهذب ، ولا يخلو مع ذلك من قوة وصلابة ••• لا شىء فيه يؤذى الشعور أو يهين الكرامة فيما يخيل الى • ثم ان هذا من حقى ••»

واستأنف يتم كتابة رسالته :

« ان ظهورك المفاجيء الغريب فى تلك الليلة العاصفة التى كنت أنا فيها ضحية هجوم وحشى وعدوان آثم من أعدائى الذين أترفع عن ذكر أسمائهم الآن احتقارا لهم ، كان نواة جميع أنواع سوء التفاهم القائمة بيننا الآن ...

« ثم ان اصرارك يا سيدى على أن تركب رأسك وعلى أن تتدخل عنوة فى حياتى ، العامة والخاصة ، أمر يتجاوز الحدود التى تفرضها أبسط مبادىء الأدب وأدق قواعد التعامل بين الناس فى هذه الحياة . من نافل القول أن أذكرك بما فعلت يا سيدى حين اغتصبت أوراقى وحين غششت وخادعت على حساب سمعتى ، بهدف الحصول على رضى رؤسائنا وهو شيء لا تستحقه البتة . ومن نافل القول أيضا أن أفيض فى الكلام على أسلوبك المهين المقصود الذى عمدت اليه للتهرب من مفاتحتك فى الأمر مفاتحة كان لا بد منها .

« ولا أريد أخيرا أن أشير الى تصرفك الغريب فى المطعم ـ أقول الغريب حتى لا أقول الشاذ ـ ولست أحب طبعا أن أندب رويلا لا قيمة له عندى ، ولكنى لا أستطيع أن أكظم استيائى حين أتذكر تلك الطعنة التى وجهتها الى شرفى يا سيدى ، وذلك بحضور أشخاص لا شك فى أنهم أناس ينتمون الى بيئة راقية رغم أننى لم أشرف بمعرفتهم ... » .

قال جولياد كين يخاطب نفسه : « أترانى لم أسرف ؟ أترانى لم أبالغ ؟ هذه الاشارة الى البيئة الراقية ، أليس لها وقع مهين ؟ ... ولكن لا بأس ... فلا بد من اظهار شيء من الحزم والصلابة . ومع ذلك أستطيع لتخفيف وقع ذلك فى نفسه أن أدس فى آخر الرسالة ملاطفة من الملاطفات تتملقه وترضيه . فلنر ماذا نستطيع أن نفعل من أجل هذا » .

« ما كنت لأسمح لنفسى أن أزعجك برسالتى هذه يا سيدى لولا

اقتناعى العميق بأن نبل عواطفك واستقامة خلقك سيملیان عليك الاجراءات التى ينبغى لك اتخاذها اصلاحا لما أفسدت حتى تعود الأمور الى ما كانت عليه فى الماضى •

« وانى ، والأمل يملؤنى ، لأسمح لنفسى أن أعتقد أنك لن ترى فى رسالتى هذه ما يؤذى شعورك أو يخدش كرامتك ، وأنك لن تضن علىّ برسالة تبعث الىّ بها مع خادمى شارحا الأمر •

« وبانتظار جوابك يشرفنى يا سيدى أن أكون خادمك المخلص جدا :

ى جولیادکین

ما ان فرغ جولیادکین من كتابة رسالته حتى قال لنفسه : « عظيم !• سويت المسألة ••• وصلنا فى الأمر الى مرحلة المراسلة • ذنب من هذا ؟ هو ذنبه طبعا ! انه هو الذى ألجأنى الى ضرورة مفاتحته كتابة • أنا على حق ••• »

وأعاد السيد جولیادکین قراءة رسالته مرة أخيرة، ثم طواها ووضعها فى ظرف ، ونادى بتروشكا • دخل الخادم متورم العينين من النعاس على عادته • وكان يبدو عليه أنه منزعج انزعاجا شديدا •

قال له مولاه :

ـ سوف تحمل هذه الرسالة يا صديقى ••• هل تفهم ؟

ولكن بتروشكا ظل أبكم لا ينطق •

ـ سوف تأخذ هذه الرسالة فتحملها الى القسم الذى أعمل فيه من المكتب ؛ وهناك سوف تسأل عن الحاجب المناوب ، وهو اليوم فاخرامايف ••• هل تفهم ؟

ـ أفهم .

ـ أفهم ... ألا تستطيع أن تقول : نعم أفهم ياسيدى ؟ طيب ...

ستسأل اذن عن المستخدم فاخرا مايف ، فتقول له ، اسمع : ان مولاى يبعث اليك بتحياته ويرجوك ضارعا أن تبحث فى دفتر العناوين الموجود فى دائرتنا عن المكان الذى يسكن فيه الموظف جولياديكين .

ظل بتروشكا أخرس لا ينبس بحرف. وخيل الى السيد جولياديكين أنه رأى ابتسامة تلم بشفتيه .

ـ طيب . اذن ستسأله عن عنوان ذلك الموظف الجديد الذى يسمى جولياديكين .

ـ حاضر .

ـ ستسأله عن هذا العنوان، فمتى حصلت عليه مضيت تحمل الرسالة الى ذلك العنوان الذى سيذكره لك . هل تفهم ؟

ـ أفهم .

ـ فاذا وصلت الى المكان .. أقصد المكان الذى حملت اليه الرسالة، فرأيت أن السيد الذى عليك أن تسلمه الرسالة ... أعنى جولياديكين هذا ... مالك تضحك يا أبله ؟

ـ لست أضحك . ليس هناك ما يدعو الى الضحك . ذلك أمر لا يعنينى . لا شأن لى أنا . لا شىء فى نظرى بمضحك .

ـ طيب ... فى هذه الحالة ، اذا رأيت أن ذلك السيد قد أخذ يسألك عن مولاك كيف حاله ، أقصد كيف صحته ... أعنى اذا ألقى عليك أسئلة من هذا النوع ... فلا تجبه بشىء ، وحسبك أن تقول له : « مولاى بخير ... وهو يرجوك أن تبعث اليه بجواب مكتوب . » . هل فهمت ؟

ـ فمهت .

ـ الأمر واضح اذن . تقول له : « مولاى بخير ... صحته جيدة ... وهو يتهيأ لزيارة بعض الأصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتوبا . » ... وهو يتهيأ لزيارة بعض الاصدقاء ، وينتظر منك جوابا مكتـــوبا . » فهمت ؟

ـ اذن فاذهب . آه من هـــذا الأبله كم يتعبنى ! انه يقضى وقتـه مستهزئا ... مم يضحك ؟ ألا انني فى مأزق رهيب ! أنا حقا فى مأزق رهيب ! على كل حال ، قد تكون الخاتمة حسنة ... ان هذا الوغد سينفق ساعتين كاملتين متسكعا في الطريق ... لا شك أنه سيتوقف فى مكان ما ... يستحيل على المرء أن يعهد اليه بمهمة . آه ... ما هذه المصـيبة ، ما هذه المصيبة التى تسقط على رأسى ! ...

كان بطلنا شاعرا بجميع المصائب التى نزلت عليه ، فقرر أن يهدىء روعه قليلا ، خلال ساعتين على الأقل ، بانتظار عودة بتروشكا . وظـل يضطرب فى الغرفة ساعة برمتها : دخن غليونا ثم تركه ، وحاول أن يقرأ ، واضطجع أخـيرا على الأريكة وتناول غليـــونه مرة أخرى ، ثم استأنف طوافه المسعور في الغرفة . ودّ لو يتأمل ، لو يفكر ، ولكنه كان عاجزا عجزا مطلقا عن تركيز ذهنـه . كان وضع الانتظار هـــذا أشبه باحتضار . فقرر أن يغير خطته . قال لنفسه : « ان بتروشكا لن يعـود قبل انقضاء ساعة . فأستطيع أن أضع المفتاح عنـــد بواب العمارة ، وأن أستفيد من هذا الوقت فى القيام بتحريات ... فى القيام بتحريات أتولاها بنفسى . » . ثم لم يلبث ، لرغبته فى القيام بهذه التحـــريات على وجه السرعة دون أن يضيع لحظة من وقت ، لم يلبث أن تناول قبعته وخـرج الى فسحة السلم فأغلق الباب بالمفتاح دورتين ، ومضى الى البواب فأودعه

المفتاح وأعطاه مع المفتاح « بقشيشا » عشر كوبكات • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن السيد جولياد كين قد أصبح فى هذه الآونة الأخيرة كريما كرما لم يعهد مثله فيه • وخرج السيد جولياد كين الى الشارع وانطلق الى الهدف الذى رسمه لنفسه • سار أولا نحو جسر اسماعيلوفسكى فلما بلغه بعد نصف ساعة ، دخل بغير تردد الى فناء العمارة التى كان يعرفها حق المعرفة ، ورفع عينيه نحو نوافذ مسكن مستشار الدولة بيرنديف •••

كانت جميع النوافذ مظلمة الا ثلاثا تحجبها ستائر حمر • فقال بطلنا لنفسه : « ليس لدى أولسوفى ايفانوفتش مدعوون فى هذا المساء ، والأسرة كلها باقية فى المنزل • » •

لبث السيد جولياد كين لحظة طويلة فى فناء العمارة مترددا لا يدرى ماذا يفعل • وأوشك أن يتخذ قرارا لكنه غير رأيه فى آخر لحظة ، فحرك يده باشارة تدل على التململ ، وغادر المكان • قال لنفسه وهو فى الفناء : « لا ••• ما الى هنا يجب أن أجىء ! ما عساني فاعلا هنا ؟ ••• الأفضل أن أمضى أقوم بتحرياتى بنفسى ••• » • فلما اتخذ هذا القرار اتجه نحو مكتبه • كان عليه أن يسير مسافة طويلة شاقة فى الوحل • وكان الثلج المبلل يتساقط أسناخاً كبيرة • ولكن بطلنا كان فى ذلك اللحظة لا يبالى العقبات • لقد تبلل حتى العظام ، وتلوث بالطين ، ولكنه لم يكن يعبأ بذلك كله • « المهم أن أبلغ الهدف المرسوم » ، كذلك كان يردد لنفسه • وكان السيد جولياد كين يقترب من غايته فعلا • فها هو ذا يبصر من بعيد أمامه تلك الكتلة القاتمة ، ذلك المبنى الضخم الذى تشغله الادارة العامة • قال لنفسه : « قف •• الى أين أنا ذاهب ؟ ما عساني فاعلا هنا ؟ ••• هبنى عرفت العنوان ! ••• ان بتروشكا سكون أثناء هذا الوقت قد عاد الى

البيت حاملا جوابه ... فأنا اذن أضيع وقتا ثمينا ... لقد بددت وقتى سدى ! على كل حال ، لا ضير ... ما زلت أستطيع أن أتدارك كل شيء ... ولكن ألا يكون من المفيد حقا أن أذهب الى فاخرامايف ؟ ... لا ... لا داعى الى ذلك .. سأذهب اليه فى آن آخر .. اه .. لم يكن بى آية حاجة الى الخروج من البيت .. هذه خصلة فى طبعى .. دائما متعجل ، سواء أكان هناك ضرورة أم لم يكن هناك ضرورة .. دائما متعجل الى استباق الأحداث ... همم .. كم الساعة الآن ؟ انها تقارب التاسعة ولا شك .. فماذا اذا عاد بتروشكا فلم يجد أحدا ؟ حقا لقد ارتكبت بالخروج حماقة ... آه ... ما كان أغنانى عن هذه المغامرة ! »

بعد هذا الاعتراف الصادق بأن سلوكه كان حماقة ، أخذ بطلنا يركض نحو مسكنه فوصل اليه لاهثا يكاد يختنق ، فأعلمه الخفير أنه لم ير حتى الآن أثرا لبتروشكا .

قال بطلنا لنفسه : « تماما ... هذا ما توقعته ... ومع ذلك فالساعة الآن هى التاسعة ! .. يا للوغد الدنيء ! .. انه لا ينفك يسكر ! رباه رباه ! ما هذه الأقدار! يا لهذا اليوم من يوم ! .. » .

وصعد السيد جولياديكين السلم ممتلىء الرأس بهذه الخواطر وهذه الشكاوى ، ففتح باب بيته ، وأشعل شمعة ، وخلع ملابسه ، ثم اضطجع على الديوان جائعا مرهقا مكدودا محطم الأعضاء ، ينتظر عودة بتروشكا . الشمعة تسكب ضياءها الشاحب على الجدران ... لبث السيد جولياديكين زمنا طويلا يفكر وينظر حواليه ، الى أن نام آخر الأمر نوما كالرصاص ثقلا .

ثم لم يصح من نومه الا فى ساعة متأخرة . كانت الشمعة قد ذابت تقريبا فهى الآن تدخن وتوشك أن تنطفىء . نهض السيد جولياديكين

بوثبة ، وشخف وانتفض ، فسرعان ما تذكر كل شيء ، نعم كل شيء • انه يسمع شخير بتروشكا قويا من وراء الحاجز • وهرع نحو النافذة • ما من ضياء فى الأفق • وفتح كوة من الكوى • ان كل شيء صامت • المدينة نائمة ، كأنها ميتة • لا شك أن الساعة هى الثانية ، وربما الثالثة ••• وانطلقت ساعة الحائط تدق دقتين • أسرع السيد جولياديكين الى حجرة خادمه •

فاستطاع بعد جهود كثيرة أن يوقظه ويوقفه • وكانت الشمعة قد انطفأت أثناء ذلك • فأنفق السيد جولياديكين ما يزيد على عشر دقائق فى البحث عن شمعة أخرى وفى اشعالها • فلما عاد الى بتروشكا وجده قد نام من جديد •

« وغد دنيء ، خليع حقير •• هلا صحوت ؟ هلا قمت ؟ » كذلك أخذ يردد السيد جولياديكين وهو يحاول أن يوقظ بتروشكا • واستطاع بعد نصف ساعة من جهود متصلة أن يوقظه آخر الأمر• فنقله الى غرفته، فلاحظ عندئذ أنه منطفىء سكرا ، لا يكاد يستطيع الانتصاب على ساقيه :

ـ يا كسلان ، يا وغد ، يا لص ! هل تعرف أنك تطعن قلبى ، هل تعرف انك تقتلنى قتلا ؟ آه يا رب ! ترى ماذا صنع برسالتى يارب ! ماذا صنع بها ؟ ولماذا كتبت أنا هذه الرسالة ؟ ماذا كانت حاجتى الى كتابتها ؟ اندفعت مرة أخرى فى حماسة لا داعى اليها ! غرورى هو الذى حضنى! غرورى هـــو الذى ورطنى ••• ماذا صـــنعت برسالتى يا لص ؟ لمن أعطيتها ؟

ـ ما أعطيتها لأحد ••• ثم لم يكن معى رسالة •••

عض السيد جولياديكين يديه من شدة حنقه ؛ ثم قال لخادمه :

••• استمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

ـ سأسمع .

ـ الى أين ذهبت ؟ أجبنى !

ـ الى أين ذهبت ؟ ... ذهبت الى عند أناس طيبين ... ليس هذا عيبا ...

ـ رباه رباه ! ولكن قل لى الى أين ذهبت أولا؟ هل مررت بالادارة؟ .... إستمع الى يا بطرس ! أنت سكران ؟

ـ أنا ، سكران ؟ أبدا .. أبدا ... فلأمت اذا كنت أكذب !

ـ لا .. لا .. لا مانع أن تكون سكران .. أنا ألقيت عليك هذا السؤال عرضا ، بل حسن أن تكون سكران .. ليس عيبا أن تكون سكران يا بتروشكا .. ليس عيبا أبدا . لا شك أنك نسيت الآن مؤقتا .. ولكنك ستتذكر .. قل لى : هل تتذكر أنك ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟ هل ذهبت اليه ؟ نعم أم لا ؟

ـ لا .. لم أذهب اليه ... لم أضع قدمى عنده ... وهذا الموظف لا وجود له .. أنا مستعد لأن ..

ـ لا يا بطرس ، أقول لك : لا .. اسمع يا بطرس .. أنا لست غاضبا منك .. أنت ترى أننى لست غاضبا .. ما الذى حدث ؟ لا شك أن الجو بارد ورطب فى الخارج ، لذلك شربت قليلا ... لا مانع ... أنا لست غاضبا . أنا أيضا شربت قليلا يا أخى .. هيا ... ابذل بعض الجهد ... حاول أن تتذكر ، قل لى كل شىء يا أخى .. هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ؟

ـ طيب ... ما دام الأمر كذلك ... فأنا أحلف لك بشرفى أننى ذهبت اليه .. وأنا مستعد لأن ..

ـ طيب .. طيب جدا يا بتروشكا ... حسن جدا أنك ذهبت اليه .. أنا لست غاضبا .. أنت ترى أننى لست غاضبا .. هيا .. هيا (كذلك تابع بطلنا يخاطب خادمه ، مظهرا ثقته به ، مبتسما له ، رابتا على كتفه) هيا قل لى ، اعترف لى .. لقد شربت قليلا يا عفريت ... قليلا فقط .. شربت بعشرة كوبكات لا أكثر.. آه منك ياشيطان . طيب .. لا بأس. أنت ترى أننى لست غاضبا . لست بزعلان يا أخى ، لست بزعلان أبدا ...

ـ لا .. أنا لست شيطانا .. أؤكد لك .. وأنا ذهبت الى أناس طيبين .. أنا لست شيطانا .. ولم أكن شيطانا فى يوم من الايام ..

ـ ولكن لا .. يا بتروشكا .. اسمعنى يا بطرس .. أنا لم أقصد سوءا . واضح أننى لم أقصد سوءا . ليس شتيمة أن يوصف امرؤ بأنه سيطان . أقول لك هذا لأطمئنك . أنت تعلم يا بتروشكا أنه يقال لأحد الناس فى بعض الأحيان انه شـــيطان أو لئيم أو خبيث من قبيل المـدح لا الذم .. معنى هذه الصفات عندئذ هو أنه حاذق ، هو أنه لا يســتطيع أحد أن يخدعه . بعض الناس يحبون هذا النوع من التعابير . هيا هيا ليس هذا بشيء . هيا قل لى الآن يا بتروشكا ، قل لى باخلاص وصدق ، دون أن تخفى شيئا ، هل ذهبت الى الموظف فاخرامايف ، وهـل أعطاك العنوان المطلوب ؟

ـ نعم أعطانى العنوان . انه رجل طيب . ثم لقد قال لى : «مولاك رجل شريف ، رجل شهم جدا . أبلغه تحياتى .. أبلغ مولاك تحياتى وقل له اننى أحبه وأحترمه . هو رجل شهم يا بتروشكا ، وأنت كذلك يا بتروشكا ، أنت فتى شهم حقا » . هذا ما قاله لى ..

صاح السيد جولياديكين بصوت مختنق :

ـ آه يا رب يا رب ! والعنوان .. العنوان يا يهوذا ؟

ـ العنوان ؟ أعطانى العنوان ..

ـ أعطاك العنوان ؟ طيب .. فأين يسكن اذن جولياداكين هذا ... أين يسكن هذا الموظف جولياداكين ؟

ـ قال لى : «جولياداكين يسكن فى شارع « الدكاكين الستة » ، على اليمين فى هذا الشارع ، بالطابق الثالث . هناك يسكن جولياداكين ... ».

أعول جولياداكين صائحا وقد خرج عن طوره من فرط الحنق :

ـ يا لص ، يا مجرم .. عنى انما تتكلم أنت ، عنى أنا . أما أنا فأكلمك عن شخص آخر ، عن جولياداكين آخر يا لص !

ـ كما تحب . أنا لا فرق عندى . لك ما تشاء .

ـ والرسالة ؟ ماذا فعلت بالرسالة يا قليل الحياء ؟

ـ الرسالة أعطيتها ، أعطيتها ... وقال لى : « بلغ مولاك تحياتى . ان مولاك رجل شهم .. أبلغه سلامى ... » .

ـ من قال لك هذا ؟ أهو جولياداكين ؟

صمت بتروشكا لحظة ، ثم ابتسم كاشفا عن جميع أسنانه ، وتفرس فى مولاه محدقا .

قال جولياداكين وهو يختنق حنقا :

ـ اسمع يا لص .. أجبنى .. ماذا فعلت ؟ ما صنعت بى ؟ لقد قتلتنى يا شقى ، قتلتنى .. دققت عنقى .. ذبحتنى يا يهوذا !

قال بتروشكا بلهجة حازمة وهو يتراجع خلف الحاجز :

ـ كما يحلو لك .. أنا لا فرق عندى .

ـ تعال هنا .. ارجع الى هنا يا لص .

ـ لا لن أرجع ، لا داعى الى الرجوع • أفضل أن أذهب الى عند ناس طيبين •• ناس طيبين يعيشون عيشة شريفة •• ناس طيبين لا يغشون ولا يزيفون •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح مثلين ••

هنا أحس السد جولياديكين بأن يديه وقدميه تجمدت كالجليد •

أصبح لا يستطيع أن يتنفس • وتابع بتروشكا يقول :

ـ تماما •• لا يزدوجون •• لا يصبح أحدهم اثنين •• لا يصبح أحدهم مثلين • لا يسيئون الى الله ولا الى البشر الشرفاء •

ـ أنت سكران يا حقير •• نم الآن يا لص • وغدا أؤدبك •

كذلك دمدم جولياديكين بصوت لا يكاد يسمع • أما بتروشكا فكان يجمجم بأقوال لا تفهم •

سمعه بطلنا يضطجع على سريره • لقد صرت نوابض السرير • تاءب بتروشكا تثاؤبا طويلا ذا صوت ، وتمطى ، وغط أخيرا فى نوم عميق شاخرا •

ان السيد جولياديكين أقرب الى الموت منه الى الحياة • ان سلوك خادمه وتلميحاته الغريبة ـ وهى فى الحق أغمض وأبعد من أن تسبب هذا الغضب كله لدى السيد جولياديكين، لاسيما وأنها صادرة عن سكران ـ قد قلبت نفسه رأسا على عقب • لا شك أن الأمر أخذ يجرى مجرى سيئا •

دمدم السيد جولياديكين يقول لنفسه بينما كان جسمه كله يرتعد بتأثير احساس غريب مزعج : « ماذا دهانى حتى أيقظته هكذا فى قلب الليل ؟ ماذا دهانى حتى مضيت أتشاجر مع رجل سكران ؟ ماعسى ينتظر

من رجل سكران ؟ انه يكذب فى كل لحظة • ولكن الى ماذا كان يلمح هذا اللص ؟

« آه ••• يا رب ! ولكن قل لى يا جولياديكين ! لماذا كتبت هذه الرسالة ؟ انك أنت قاتل نفسك • ألم يكن فى وسعك أن تصمت ؟ هل كان حتما عليك أن تخطىء ؟ أما من وسيلة لديك للاستغناء عن ارتكاب الخطأ تلو الخطأ ؟ انك على مسافة اصبعين من ضياعك ؛ أوشكت أن تصير الى خرقة بالية ، وأنت ذا لا تزال تنهض محاولا أن تؤكد غرورك • لقد أســـــاءوا الى شرفك ، فما بالك لا تحـــاول أن تنقذ شرفك يا قاتل نفسه ؟ ••• » •

بهذا كان السيد جولياديكين يخاطب نفسه جالسا على أريكته لايجرؤ من رعب أن يتحرك • وفجأة جذب عينيه شىء سرعان ما رأى أنه جدير بأكبر انتباه وأعظم اهتمام ؛ فاضطرب اضطرابا شديدا ومدّ يده الى هذا الشىء وهو يمتلىء أملا وخوفا وحيرة • ترى ألم يكن هذا سرابا ؟ ألم يكن مجرد وهم من أوهام الحواس ؟ ألم يكن ثمرة كاذبة من ثمـرات الخيال ؟ ••• لا لم يكن هذا سرابا • لم يكن هذا وهما • هى رسـالة ، رسالة حقا ، رسالة مرسلة اليه شخصيا • تناول السيد جولياديكين الرسالة، خافق القلب حتى ليكاد قلبه ينخلع •

قال لنفسه : « لاشك أن هذا اللص هو الذى أتى بها • لا شك أنه وضعها على الطاولة ثم نسيها • نعم لا شك أن هـــذا هو ما حدث ، لا شك أن هذا بعينه هو ما حدث ••• » •

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف ، وهو زميل شاب كان فى الماضى صديقا لبطلنا •

« لقد تنبأت بهذا كله ، كما أتنبأ الآن بما تضمه هذه الرسالة » .
قال جولياد كين هذا لنفسه وأخذ يقرأ :

عزيزى السيد ياكوف بتروفتش ،

ان خادمك سكران ، ولا يمكن أن يتفاهم المرء مع سكران . لذلك أوثر آن أرد عليك كتابة . وأسارع فأؤكد لك أن المهمة التى كلفتنى بها ، أعنى ايصال الرسالة الى الشخص المرسلة اليه بواسطتى ، ستنفذ بأمانة فى الموعد المطلوب . وهذا الشخص الذى تعرفه أنت حق المعرفة هو الآن أحد أصدقائى . لن أسميه لأننى لاأحب أن أسىء الى انسان برىء كل البراءة . ان هذا الشخص هو الآن واحد من رفاقنا فى بنسيون كارولين ايفانوفا ، يسكن فى الغرفة التى كان ينزلها ، أيام كنت واحـــدا منا ، ضابط المدفعية ذاك الآتى من تامبوف . وأذكر لك عرضا أنك تستطيع أن تلقى هذا الشخص حيثما يوجد أناس شرفاء مخلصون ، وتلك من الخصال التى لا يوصف بها جميع البشر . ثم اننى قد عقدت النية جازما على أن أقطع كل صلة بك منذ هذا اليوم . فانه ليستحيل بعد الآن أن نحتفظ بما كان بيننا فى الماضى من لهجة الود وعلاقات الصداقة .

« لذلك أرجوك ، ياسيدى ، أن تبعث الىَّ فور استلام هذه الرسالة بما لى عليك من دين ، وهو مبلغ روبلين هما ثمن موسى الحلاقة المستوردة من الخارج التى بعتك اياها دينا منذ سبعة أشهر . آمل أن تتذكر هـذا من عهد سكنانا معا عند كارولين ايفانوفا التى أحترمها من كل قلبى . والسبب الذى يدعونى الى سلوك هذا المسلك معك هو أنك فى رأى جميع الناس العقلاء قد فقـدت كل معنى من معـــانى الشرف والكرامة ، وأن صحبتك أصبحت خطرا على أخـلاق الناس الأســوياء الأبرياء . ان فى الحياة أشخاصا يعيشون بعيدين عن مبادىء الحق والخير ، فكل كلمة من

كلماتهم كذب وكل موقف من مواقفهم نفاق مشبـــوه • أما الدفاع عن شرف كارولين ايفانوفنا الفاضلة التى لا غبار على سلوكها ، والتى هى فتاة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، رغم أنها تقدمت فى السن ، والتى هى سليلة أسرة أجنبية محترمة ، فسيقى هنا لك أناس يتولونه فى كل زمان ومكان ؛ وقد رجانى بعض أصدقائى أن أذكر لك ذلك فى رسالتى ، وأنا أتحمل تبعة ما يقولون •

« ومهما يكن من أمر فستعلم بهـذا الأمر فى حينه اذا كنت لم تعلمه بعد • وقد بلغنى من ذلك المصدر نفسه على كل حال أن المجد يكللك فى هذه الآونة الأخيرة فى مختلف أحياء العاصمة، لذلك افترض أنك أصبحت تعرف منذ الآن رأى الناس فيك • ولا يسعنى فى ختام رسالتى هـــذه ، يا سيدى ، الا أن أبلغك أن الشخص الذى تعرفه والذى أغفل ذكر اسمه فى رسالتى عن عمد حياءً يحظى بتقدير عظيم من جميع كرام الناس ؛ فهو يجمع الى دماثة الخلق وبشاشة الطبع نشاطا كبيرا وهمة قعساء فى العمل ، لذلك يقدره رؤساؤه وسائر خيار القوم الذين يعيش بينهم • انه مخلص لما يقول ، وفى للصداقة ، لا يسمح لنفسه يوما أن يغتاب أولئك الذين تربطه بهم صلات الصداقة على علم جميع الناس •

« وفى الختام ، أظل خادمك المخلص •

ن • فاخمارايف

حاشية : يجب عليك أن تصرف خادمك • انه سكير ، ولا شك أنه يسبب لك متاعب كثيرة • استخدم فى مكانه أوستاس الذى كان يخدمنا فى الماضى وهو الآن بغير عمل • ان خادمك ليس سكيرا فحسب ، بل هو لص أيضا • ففى الاسبوع الماضى باع كارولين ايفانوفنا رطلا من قطـع

السكر بسعر بخس ، وهذا يحمل على الاعتقاد بأنه قد اختلس هذا السكر من بيتك قليلا قليلا كلما سنحت فرصة .

« أذكر لك هذا حرصا مني على مصلحتك . فلست كبعض الناس الذين لا يهمهم الا أن يهينوا وأن يخدعوا من يحيطون بهم ، ولاسيما الشرفاء الذين لا يسيئون الظن بل يسارعون الى التصديق وتنطلى عليهم الأكاذيب ؛ لست كبعض الناس الذين لا ينفكون يغتابون هؤلاء ويسيئون اليهم خفية ، بدافع واحد هو الغيرة منهم وشعورهم بالعجز عن أن يكونوا مثلهم .

ن.ف.

ظل بطلنا ساكنا على أريكته لحظة طويلة بعد قراءة رسالة فاخرامايف . ان ضياء جديدا ينفذ الآن الى الضباب الكثيف العجيب الذى يلفه منذ يومين . أخذ يرى رؤية واضحة ... أراد أن ينهض ، أن يسير بضع خطوات عسى أن ينعش فكره ويجمع خواطره ويركزها على نقطة وحيدة ، ويتخذ هكذا فى الهدوء قرارا .

ولكنه ما ان همّ أن يقوم حتى عاد يتهاوى على مكانه نفسه مهدود القوى عاجزا .

« لقد تنبأت بكل شيء .. هذا أكيد .. ولكن ماذا يريد أن يقول فى رسالته ؟ ما هو المعنى الحقيقى الذى يكمن فى هذه الرسالة ؟ الحق أننى أعرف هذا المعنى . ولكن الى أين يقودنا هذا ؟ لو قد قال لى بوضوح افعل كيت أو كيت .. لو قد أعلن لى بوضوح : 'يطلب منك هذا أو يطلب منك ذاك ، اذن لأطعت ... ألا ان المسألة أخذت تجرى مجرى مزعجا .

« آه ... ليتنى فى الغد ... وددت لو أصل الى حل العقدة بأقصى سرعة ممكنة . اننى أعرف الآن ماذا يجب علىّ أن أفعل . سأقول لهم ما يلى : اننى موافق على آرائكم ، ولكننى أرفض أن أضيع شرفى .. اما الآخر .. فسنرى .. ثم كيف أمكن لهذا الآخر ، لهذا الشخص المشكوك فيه ، أن يكون له فى هذه المسألة ضلع ؟ ما الذى أقحمه فى هذه القضية ؟ آه .. تعال أيها الغد ! انهم الان يغتابوننى ويتواطئون علىّ ويحاولون أن يدهورونى .. المهم ألا اضيع الوقت سدى .. يستحسن فيما اظن ان أكتب رسالة على الفور ، أن أظهر بعض التسامح ، أن أقدم بعض التنازل .. ثم أبعث بالرسالة فى أول ساعة من ساعات الصباح ، وأتخذ من جهتى ما يجب أن أتخذه من اجراءات . نعم ، ذلك ما ينبغى أن أفعله .. سأشن حملة مضادة وسيرون النتائج ، هؤلاء الطيور ... والا فلسوف يجرونني فى الوحل وينتهى أمرى .. » .

تناول السيد جولياديكين ورقا وقلما ، وحرر الرسالة التالية جوابا على رسالة السكرتير الحكومى فاخرامايف :

عزيزى السيد نستور اجناتيفتش !

« قرأت رسالتك بدهشة عميقة وحزن صادق . فقد أدركت أنك حين كنت تلمح الى أشخاص أشرار منافقين انما كنت تقصدنى أنا . اننى لأشعر بمرارة صادقة حين أرى أن النميمة سرعان ما مدت جذورها الطويلة الكثيرة فأفسدت هدوئى وأساءت الى شرفى وسمعتى . وانه ليحزننى ويحز فى نفسى أن أدرك أيضا أن الشرفاء من الناس ، أن أولئك الذين يملكون أنبل المشاعر وأسمى الأفكار ، ويتصفون باستقامة الخلق والطبع ، يتخلون عن مؤازرة الشرف والفضيلة ويتزاحمون بكل قواهم وبكل ما أوتوا من مزايا حول الغدر المؤذى الذى ما ينفك ينتشر ويمتد

بمزيد من القوة فى هذا الزمان القاسى الفاسد ، وا أسفاه ! أما عن دينك علىّ ، فانى أرى أن من واجبى المقدس أن أرد اليك هذين الروبلين • وأما عن تلميحاتك ، يا سيدى العزيز ، عن تلميحاتك المتصلة بشخص من الجنس اللطيف ، وكذلك عن النيات والأهداف والمطالب التى تنسبها اليه ، فانى أعلن لك يا سيدى أنها ما تزال غامضة فى ذهنى لم أستطع الى فهمها سبيلا ، فاسمح لى ، يا سيدى العزيز، أن أربأ بسمعتى المحترمة وبعواطفى الرفيعة أن تلطخ • وانى مع ذلك لمستعد أن نتكاشف فى الأمر بالتخاطب كلاما متى شئت ؛ فذلك فى نظرى خير من تبادل الرسائل • وانى لمستعد أيضا لقبول أية خطوة فى سبيل المصالحة شريطة أن تتوافر النية الصادقة المخلصة من الطرفين •

« ومن أجل ذلك أرجوك ياسيدى أن تبلغ الشخص المذكور موافقتى على أن يقوم بينى وبينه حديث شخصى خاص ؛ وأنا أدع له أن يحدد لاجتماعنا الزمان والمكان اللذين يناسبانه •

« وقد قرأت بكثير من المرارة يا سيدى ما ألمعت اليه من أنه كانت لى معك مواقف تزعم أن فيها اهانة لك أو اساءة اليك • وكأنك تعتب علىّ أننى خنت صداقتنا القديمة وأننى اغتبتك وقلت فيك سوءا • اننى أعتقد أن مرد هذه الاتهامات الى سوء تفاهم ، أو قل الى سعايات دنيئة والى الغيرة والكره لدى أولئك الذين يحق لى ، واعيا كل الوعى ، أن أعدهم من أعدائى الألداء العتاة • ولا شك عندى فى أن هؤلاء يجهلون أن البراءة تحمل قوتها فى ذاتها ، وأن الدناءة والوقاحة والاستهتار المثير لدى بعض الناس لا بد أن تلقى عقابها احتقارا عاما فى يوم من الأيام ؛ وسيهلك هؤلاء الناس يومئذ جزاء ما جنت أيديهم من سيئات وما حملته قلوبهم من شر • لذلك أرجوك يا سيدى أن تبلغ هؤلاء الأشخاص أن أطماعهم

الغريبة ورغباتهم الدنيئة العجيبة فى أن يغتصبوا بالقوة المكان الذى يحتله غيرهم حقا من حقوقه ، لا يستحقون الا الاستغراب والاحتقار والاشفاق، ولا يستحقون خاصـــة الا أن يحجـزوا فى مستشـفى من مستشفيات المجانين .

« وأضيف الى هذا أن محاولات من هـــذا القبيل ممنوعة بحـكم القوانين ، وذلك فى رأيى أمر سليم له ما يسوغه ، لأن على كل انســان ان يقنع بالمكان الذى خصص له . ان لكل شىء حدودا ، واذا كان الأمر فى الحالة الراهنة أمر مزاح ، فاننى أؤكد لك أنه مزاح كريه يدل على سوء ذوق صاحبه ، بل يدل على سوء خلقه . وفى وسعى أن أؤكد لك ، يا سيدى العزيز ، أن المعانى التى عبرت لك عنها منذ هنيهة بشأن المكان المخصص لكل انسان ، مشتقة من أنبل مبادىء الأخلاق .

« وفى الختام ، يشرفنى أن أبقى خادمك المطيع :

ى . جولياد كين

الفصل العاشر

فى أن أحداث اليومين الاخيرين قد أحدثت فى نفس السيد جولياداكين اضطرابا عميقا • كان نومه فى تلك الليلة قلقا • والحق أنه لم يستطع أن يغمض جفنيه أكثر من خمس دقائق • لكأن مارحا خبيثا قد نثر على سريره شوكا • قضى ليلته بين اليقظان والوسنان ، يتقلب على سريره بغير انقطاع من جنب الى جنب ، ويئن ويدندن ، فما يكاد يغفو لحظة حتى يستيقظ • انه نهب غم شديد وخوف هائل ، ماتنفك تحاصره ذكريات غامضة ورؤى عجيبة •

انها ليلة « كوابيس » لا ينقصها شىء ••• فتارة يتراءى له وجه آندره فيليبوفتش فى ظلام سرى ، متجهما قاسيا ، عنيف النظرة ، لايرحم، وعلى شفتيه تقريع خشن بارد يهم أن ينطلق ••• فيريد السيد جولياداكين أن يقترب منه محاولا أن يبرىء نفسه بطريقة من الطرق ويحاول أن يبرهن له على أنه ليس كما يصوره أعداؤه ، وأنه انسان كسائر الناس ، بل وأنه يملك عدا ذلك مزايا كثيرة كبيرة فطر عليها ••• وفيما هو كذلك

اذا بوجه آخر يتراءى له على حين فجأة، وجه يعرفه بسهولة من فرجة فمه الوقحة ، واذا بهذا الوجه يدمر جميع محاولات بطلنا فى لحظه واحدة ، متوسلا الى ذلك بحيلة من الحيل الحقيرة الدنيئة ، فهو يأخذ يلطخ سمعة بطلنا على مرأى منه ومسمع ، وهو ياخذ يسيء الى كرامته ، ويجره فى الوحل ، ويغتصب فى آخر الامر مكانه فى الوظيفة وفى المجتمع ... وتارة يشعر بطلنا بأكال فى جمجمته ، نتيجة لطمة بالاصبع أصابه بها أحدهم ؛ والمشهد يجرى على مرأى من الناس ؛ وربما فى مكاتب الادارة نفسها ؛ وهو عاجز عن دفع الاهانة ... وفيما يحفر بطلنا فى دماغه محاولا أن يفهم سبب عجزه عن الاحتجاج على مثل هذه الاهانة ؛ اذا بذكرى اللطمة تتخذ شكلا جديدا ، شيئاً بعد شيء .

فهو الآن ذكرى جبانة من الجبانات تحاصر ذهنه ، جبانة تافهة أو ذات بال ... وهو لا يعرف تماما هل الأمر أمر شيء شهده أو أمر شيء حدثوه عنه . ولكن لعل هذه الجبانة قد صدرت عنه هو ، ولعلها تصدر عنه كثيرا ، مرة تلو مرة ، لأغراض حقيرة وأهداف مخجلة ... أو لعلها تصدر عنه مصادفة بغير سبب ، عن حياء أو عن عجز ... فلماذا صدرت عنه هذه الجبانة ، نعم لماذا ؟ ... الحق أن السيد جولياديكين كان يعرف حق المعرفة لماذا .

وهنا يحمر السيد جولياديكين وهو نائم ، ويحاول أن يسكت خجله، فيؤكد متمتما « أن عليه أن يظهر شيئا من قوة الارادة ، أن عليه أن يظهر كثيرا من قوة الارادة ... نعم .. عليه ذلك .. ولكن ما معنى قوة الارادة الآن ؟ ... » . ولكن الشيء الذى يخنق السيد جولياديكين حنقا شديدا الآن هو أن ذلك الشخص الكريه نفسه يعود الى الظهور فى تلك اللحظة نفسها . هل دعى الى ذلك ؟ هل جاء من تلقاء نفسه ؟ أليس الأمر

مدبرا ؟ المهم أنه يظهر مرة أخرى بفرجة فمه الكريهة ، ويأخذ يدمدم هو أيضا قائلا بابتسامة وقحة : « ما قوة الارادة هذه ؟ هل نملك شيئا من قوة الارادة أنا وأنت يا ياكوف بتروفتش ؟ ... » .

ورأى جولياديكين نفسه بعد ذلك فى صحبة أناس عرفوا بذكائهم ورقة شعورهم ورهافة ذوقهم . ورأى نفسه لامعا مرموقا بتهذيبه الراقى وبديهته الحاضرة . لقد ملك على الحفل قلوبهم . حتى لقد استطاع أن يفتن عقول عدد من أعدائه الذين كانوا حضورا فى الحفل ، فسره ذلك سرورا عظيما . كان سيد السهرة غير منازع ... وبلغ السيد جولياديكين ذروة المجد حين سمع رب البيت يمدحه لأحد المدعوين على انفراد ... فطار صوابه فرحا بذلك . ولكن سرعان ما ظهر ذلك الشخص الكريه القاسى مرة أخرى على حين فجأة . فما هى الا لحظة حتى كان السيد جولياديكين الأصغر يقلب الوضع رأسا على عقب . فذهب ما حصله بطلنا من انتصار ومجد أدراج الرياح . ان سميّه يكسف نجمه ويمرغه فى الوحل . وأسوأ من ذلك أنه يجعله فى نظر الناس نسخة هو أصلها اللامع ، ويبرهن جازما على أن بطلنا ليس ذلك الرجل الذى قد توهم به المظاهر ، وأن من الواجب ابعاده اذن من كل مجتمع لامع راق . وقد جرى هذا المشهد بسرعة بلغت من الشدة أن بطلنا لم يتسع وقته لأن يفتح فمه بكلمة . كان شبيهه الدنىء قد استولى على عقول المدعوين استيلاء كاملا ، فاذا هم ينأون عن السيد جولياديكين المسكين باحتقار شديد . لم يستطع أحد منهم أن يقاوم سحر الغاصب . لقد استأثر بهم جميعا ، واحدا بعد آخر ، من ألمعهم الى أتفههم . كان هذا الشخص المزيف الصلف يعرف كيف يتملق الناس للوصول الى مآربه . كان من النعومة والحذق فى التملق أن مخاطبه ما يلبث أن يرق قلبه وتهتز عاطفته فاذا هو يأخذ ينشج ساكبا دموع الانفعال دليلا على عمق رضاه وقوة انشراحه . وذلك

كله يتم فى لحظة كومض البرق • ان ما يتصف به تاثير هـــذا الشخص الخبيث الماكر من سرعة لأمر يذهل العقل • فما ان يفرغ من الالتفـاف على أحد الناس وأسره بالزلفى حتى تراه ينتقل الى اخر ، فما هى الا بضع كلمات من تملق تكافئها ابتسامة ودود ، اذا هو يثب بساقيه القصيرتين الصلبتين نحو ثالث ، وهكذا دواليك : مزيد من عبارات التزلف وجديد من مظاهر الود ؛ فما يكاد المرء ينشق نسمة هواء حتى يكون صاحبنا قد التفت على رابع فظفـــر به • لكأن الأمر ســحر •• ان جميـــع الناس يستقبلونه باشين فرحين ، ويعطفون عليه ويميلون اليـه ، ويحملونه الى السحب•وهم جميعا يعلنون على رءوس الأشهاد أنه بآدابه الرفيعة وروحه الفكهة وفكره النقاد يتفوق على السيد جولياديكين الأصلى تفوقا عظيما • لقد أُذل بطلنـا المسـكين ، بطلنا البرىء ، وأهانه خصـمه وسامه ســوء العذاب • ان الناس الآن ينبذون هذا الانسان الذى يفيض قلبه رحمـة ومحبة لأخيه الانسان ، ويرهقونه ، ويمطرونه بوابل من اللطمات بأطراف سباباتهم •

ويسرع بطلنا المسكين هاربا الى الشارع وهو يرتعد خوفا ورعبـا وحنقا • وها هو ذا يبحث عن عربة • انه يريد أن يطير فورا الى صاحب السعادة يشكو اليه أمره ، فان لم يجده فليطر الى آندره فيليبوفتش • ولكن ما من حوذى يرضى أن يقله وا أســفاه ••• فالحوذيون جميعـا يقولون له : « لا يا سيدى ••• يستحيل علينا أن نقل رجلين متشـابهين تشابها مطلقا ••• وما ينبغى لرجل شريف يريد أن يعيش حياة شريفة، ما ينبغى أن يكون له مثل ••• » • وينظر السيد جولياديكين حواليه وهو يهذى من فرط الغيظ ، فيلاحظ أن الحوذيين وبتروشكا الذى كان منضما اليهم هم جميعا على حق ما فى ذلك ريب • ذلك أن شبيهه الدنىء كان على مسافة خطوتين منه ، يتهيأ لمقارفة وقاحة جـديدة على عادته المقيتة •

نعم ، ان هـــذا الدجال الكريه الذى يتظاهـر فى كل مناسبة بأدبه الجم وعواطفه النبيلة سيرتكب الآن فعلا حقيرا لا يدل حتما على شىء من حسن التهذيب ورهافة الذوق •

فما كان من بطلنا المسكين ـ السيد جولياديكين الأصلى ـ الا أن فر هاربا وقد امتلأ قلبه شعورا بالعار والحزن ••• انه يركض الآن قـدما على غير هدى لا يدرى أين يذهب • ولكنه كلما خطا خطوة وكلما قرعت قدمه أسفلت الرصيف مرة ، انبجس الى جانبه عدو جديد كأنه يخرج من بطن الأرض ، انبجس جولياديكين جديد ، انبجس ذلك الدجال نفسه رهيبا حقـيرا باعثا على التقـزز والاشمئزاز كما كان • ويأخـذ هـؤلاء الأشخاص ، المتشابهون جميعا ، يأخذون يركضون واحدا وراء آخـر ، فكأنهم سرب من الأوز يطارد بطلنا ويلاحقه • أصبح بطلنا لا يعرف الى أين يهرب • أصبح لا يعرف كيف ينجو من هؤلاء الجولياديكين الذين يجرون وراءه • تقطعت أنفاس بطلنا المسكين • وسرعان ما حاصره هؤلاء الاشخاص المتشابهون من كل جهة • انهم ألوف • انهم مبثوثون فى كل مكان • انهم يجتاحون جميع شوارع العاصمة • وهـذا رجل من رجال الشرطة يرى نفسه مضطرا أمام هذا التراكم الفاضح الى أن يمسك بتلابيبهم فيقبض عليهم ويحبسهم فى مركز مجاور من مراكز الشرطة • واستيقظ بطلنا وقد تجمد من الخوف والذعر وتخدرت أعضاؤه ••• فاذا ••• فاذا هو يرى أن الواقع ليس خيرا من المنام •• ان حلقه يختنق •• خيل اليه أن أحدا يريد أن يلتهم قلبه •• وأصبح السيد جـــولياديكين عاجزا عن احتمال هذا العذاب مزيدا من الاحتمال •

« لا •• لن يتم هذا » ، كذلك أعول يقول عن اقتناع ، وهو ينتفض ناهضا على سريره ، فما ان صاح هـــذه الصيحة حتى استيقظ من نومه تماما ••

الوقت يبدو ضحى • الضوء يغمر الغرفة على غير عادة • أشعة كبيرة من الشمس تتسلل من زجاج النوافذ الذى تشقق جليده عن أشكال كأشكال الأزهار ، وتنتشر فى الحجرة • دهش السيد جولياديكين • انه لم يالف ان تزوره الشمس قبل الظهر ، ولا يذكر أنها خالفت هذه القاعدة اكراما له فى يوم من الأيام ، اذا صدقت ذاكرته • وما ان راودته هذه الدهشة حتى سمع ساعة الجدار ينفلت نابضها الذى يؤذن بانها ستدق • فقال لنفسه وهو يترقب دقات الساعة مغموما : « ها •• سنعرف الآن كم الساعة » • فما كان أشد دهشته حين لم تدق الساعة الا دقة واحدة • صاح بطلنا وهو يثب عن سريره قائلا : « ما هذا ؟ » • وكأنه لم يصدق أذنيه ، فها هو ذا يهرع الى ما وراء الحاجز ، حتى دون أن يتدثر بشىء : كان عقرب الساعة يشير فعلا الى الواحدة ••• ألقى السيد جولياديكين نظرة على سرير بتروشكا ••• فلم يجد أثرا لخادمه لا على السرير ولا فى الغرفة • كان السرير مرتبا • ولم يجد السيد جولياديكين حذاءى خادمه ، وذلك دليل على أن الخادم قد خرج • مضى السيد جولياديكين نحو باب المدخل مسرعا ، فوجده مقفلا ، فأخذ يردد بصوت خافت وقد تملكه انفعال شديد وأخذت أعضاؤه جميعها ترتعش : « ولكن أين بتروشكا ؟ » • وانه لكذلك اذا بفكرة مفاجئة تومض فى ذهنه كالبرق، فيثب نحو الطاولة ، فيفتشها وينبش كل ركن من الأركان • نعم ، لقد صدق ظنه • ان الرسالة التى كتبها فى الليل الى فاخمارايف قد اختفت •• وبتروشكا غائب •• وعقرب الساعة يشير الى الواحدة •• ثم ان الرسالة التى تلقاها أمس من فاخمارايف تشتمل على نقاط غامضة هاهى ذى تتضح الآن •• لم يبق أى شك فيما يتصل بخادمه بتروشكا : لقد رشوه •• لقد رشوه حتما •• رشوه ما فى ذلك ريب •

« ها •• هذه هى عقدة القضية كلها اذن » ، كذلك صاح السيد

جولياداكين وهو يلطم جبينه • أصبح الآن يرى الأمور رؤية أوضح • « اذن فى مغارة هذه الألمانية الغادرة انما تدبر جميع المؤامرات • الآن فهمت • فحين حثتنى نحو جسر اسماعيلوفسكى انما كانت تقوم اذن بمناورة تضليل ، فهى تموه الأمور ، وتحرف انتباهى ، وتمد الفخاخ فى أثناء ذلك • يا لها من ساحرة غدارة ! نعم ، هذه هى المسألة • كل شىء يصبح واضحا تماما متى نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية • وظهور هذا الوغد يصبح واضحا أيضا • الأشياء مترابطة • كانوا يدخرونه منذ زمن طويل ، كانوا يهيئونه ويعدونه للخروج فى اللحظة المناسبة• نعم ، أصبح لكل شىء تعليل ••• أصبح كل شىء مفهوما •• هذه هى المسألة اذن • طيب •• لا ضير •• لم يضع بعد كل شىء ، لم تفت كل فرصة .. ما يزال فى الوقت متسع •• » • وهنا ، فى هذه اللحظة تماما ، تذكر بطلنا مذعورا أن الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر : « ما عسى يكون الحال اذا كان وقتهم قد اتسع منذ الآن ل ••• » ، كذلك قال السيد جولياداكين لنفسه وأفلت من صدره أنين • فقال يطمئن نفسه : « لا ••• انهم يكذبون ••• لما يتسع وقتهم بعد •• سوف نرى على كل حال •• » • ثم أسرع يرتدى ملابسه ، وتناول ورقة وريشة ، فحرر الرسالة التالية :

السيد المحترم ياكوف بتروفتش !

اما أنا واما أنت • يستحيل أن نكون كلانا فى وقت واحد معا ! لذلك أعلن لك أن دعواك الغريبة ، المضحكة ، المستحيلة التحقيق فى الوقت نفسه ، أعنى أن تظهر بمظهر الأخ التوأم لى وأن تستغل هذا الظرف ، فذلك لن يزيد فى آخر الأمر على أن يلطخ شرفك بالعار وعلى أن يضيعك • لذلك أناشدك ، فى سبيل مصلحتك أن تنسحب ، وأن تخلى المكان للناس الشرفاء العقلاء حقا ! والا رأيتنى مضطرا الى اتخاذ اجراءات

قصوى • وعلى هذا أضع قلمى منتظرا جوابك ••• وأظل تحت تصرفك فى جميع الأمور ـ ومنها المسدسات •

ى • جولياداكين

فلما انتهى بطلنا من رسالته فرك يديه بقوة ، ثم ارتدى معطفه على عجل ، ولبس قبعته ، وفتح بات بيته بالمفتاح ، ومضى نحو مكتبه •

حتى اذا بلغه تردد عن الدخول• كانت الساعة هى الثانية والنصف• لقد فات الأوان • غير أن حادثا لا يدل ظاهره على أن له قيمة لم يلبث أن ذهب بتردده • ففى ركن من مبنى الادارة ظهر شخص لاهث أحمر الوجه يمشى ملامسا الجدار مشية فأر ثم يتسلل الى درجات المدخل ، ويتسلل من هناك الى الدهليز • انه كاتب المحكمة أوستافياف • ان السيد جولياداكين يعرفه حق المعرفة • فهو رجل يمكن الانتفاع به ، مستعد لكل شىء فى سبيل عشرة كوبكات •

ان السيد جولياداكين لا يجهل هذا الوتر الحساس فى أوستافياف الذى لا شك أن تغيبه القصير الذى حمله عليه ظمأ قاهر قد زاد ميله الى النقود الرنانة • واذ قرر بطلنا أن يبذل كل ما يجب أن يبذله من تضحيات ، وثب الى درجات المدخل وتوغل فى الدهليز يلاحق أوستافياف وناداه ، ثم انتحى به ركنا مظلما وراء مدفأة ضخمة ، وقد لاح فى وجهه السر ، حتى اذا صار الرجلان هنالك أخذ السيد جولياداكين يسائله :

ـ هيه يا صديقى ••• ماذا يحدث فوق ؟ هل أدركت ما أريد أن أقول ؟

ـ أنا أصغى اليك يا صاحب النبالة ، وأتمنى لصاحب النبالة صحة جيدة •

ـ حسن جدا يا صديقى ، حسن جدا ، سأكافئك يا صديقى • والآن قل لى يا صديقى ماذا يجرى هنالك فوق !

قال كاتب المحكمة وهو يخفى بيده قليلا فمه الذى أوشـــك أن ينفرج :

ـ ما هو السؤال الذى تشرفنى بالقائه على ؟

ـ أنا ؟ طيب •• اسمع •• أسألك عن •• ولكن اياك أن يذهب بك الظن الى أشياء خارقة •• بالمناسبة : هل آندره فيليبوفتش هنا ؟

ـ نعم هو هنا •

ـ والموظفون الآخرون ؟

ـ هم هنا ، كالعادة •

ـ وصاحب السعادة •

ـ صاحب السعادة أيضا •

قال كاتب المحكمة ذلك ، وعاد يغلق فمه بيده • وخيل الى بطلنا أن أوستافياف يتفرس فيه بنظرة غريبة تفيض استطلاعا وتعجبا •

ـ اذن يا صديقى لا شىء خارقا يحدث هنالك فوق ؟

ـ لا •• لا شىء البتة •

ـ طيب يا صديقى ، ألم يأت أحد على ذكرى بشىء ؟ ••• هه ؟ ولو عرضا •• أأنت تفهم عنى يا صديقى ؟

ـ لا •• حتى الآن لم أسمع شيئا •

ومرة أخرى وضع كاتب المحكمة يده على فمه ، وشفع هذه الحركة

بنظرة غريبة ألقاها على مخاطبه • وكان السيد جولياداكين يتفرس هو أيضا فى وجه أوستافياف ، محاولا أن يلتقط أية علامة تكشف عما يخفيه رأس الرجل من أفكار • لا شك فى أن هناك سرا • ثم ان لهجة أوستافياف قد تغيرت • فبينما كان الحديث يجرى فى أول الأمر بتودد ظاهر ولطف واضح أصبحت لهجة أوستافياف الآن خشنة متكبرة • كان يبدو أنه غير حافل بمصالح السيد جولياداكين •

قال بطلنا لنفسه : « هذا من حقه • ما أنا عنده ؟ لعله أخذ مكافأة من الطرف الآخر •• فتغيب من أجل أن •• هذه قوة قاهرة •• يجب على أن أعطيه أنا أيضا •• » •

وأدرك السيد جولياداكين أن ساعة الكوبكات قد دقت .

ـ خذ •• هذا لك •• يا صديقى •

ـ أشكر لك كرمك من كل قلبى يا صاحب النبالة •

ـ سأعطيك المزيد •

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة •

ـ سأعطيك اليوم مزيدا ، وسأعطيك أيضا حين تسوى هذه القضية كلها • هل تفهم ؟

وكان كاتب المحكمة ، المتصلب كأنه وتد ، يتفرس فى السيد جولياداكين صامتا •

ـ والآن تكلم •• هل سمعت شيئا يتناولنى ؟

ـ يخيل الى أننى حتى الآن •• أقصد •• حتى الآن لم أسمع شيئا •

كان أوستافياف يجيب على الأسئلة مقطعا كلامه كما كان يفعل السيد جوليادكين ، محتفظا بهيئة السر ، محركا حاجبيه ، مطرقا الى الأرض ، باحثا عن التعبير المناسب ؛ أى أنه كان يجهد بجميع الوسائل أن يستحق المكافأة الموعودة ، معتقدا أن المال الذى تلقاه قد أصبح منذ الآن ملكا له لا يمكن أن ينازع فيه .

سأله السيد جوليادكين :

ـ ولم يتخذ أى قرار حتى الآن ؟

ـ حتى الآن .. لم يتخذ أى قرار .

ـ طيب .. اسمع .. قد نعرف شيئا بعد قليل .

ـ سنعرف شيئا بعد قليل ما فى ذلك ريب .

قال السيد جوليادكين لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئا . . » . وأردف يخاطب صاحبه :

ـ خذ .. خذ هذا لك أيضا يا صديقى .

ـ شكرا من كل قلبى يا صاحب النبالة .

ـ هل كان فاخمارايف موجودا مساء أمس ؟

ـ نعم .. كان موجودا .

ـ ولم يكن أحد معه ؟ .. حاول أن تتذكر يا صديقى .

غرق كاتب المحكمة دقيقة طويلة بين ذكرياته ، ولكنه لم يظفر بطائل : لم يستطع أن يتذكر شيئا خاصا .

ـ لا .. لم يكن هناك أحد غيره .

ـ هممم ..

وأعقب ذلك صمت .

ـ اسمع يا صديقى .. خذ هذا لك أيضا . والآن قل لى الحقيقة.. الحقيقة كلها .

ـ أنا تحت أمرك .

لقد تأنس أوستافياف الآن . وهذا ما كان يتمناه بطلنا .

ـ والآن قل لى يا صديقى : كيف يعاملونه الآن ؟

ـ معاملة عادية ، معاملة جيدة جدا .

بهذا أجاب كاتب المحكمة وهو يلتهم مخاطبه بعينيه التهاما .

ـ ماذا تعنى بقولك جيدة جدا ؟

ـ أعنى .. أقصد ..

ومرة أخرى أخذ أوستافياف يحرك حاجبيه . الحق أنه أصبح يشعر بأنه محاصر فى طريق مسدود محاصرة ما تنفك تضيق ، فهو لا يعرف بماذا يجيب ليخرج من هذه الطريق .

قال جولياديكين لنفسه : « الامور تجرى مجرى سيئا » .

ـ ألا تعتقد أنه يدبر شيئا مع فاخمارايف ؟

ـ طبعا ... كالعادة .

ـ فكر جيدا .

ـ يقال انهما يدبران شيئا .

ـ ماذا يدبران ؟ قل .. أسرع ..

وعاد كاتب المحكمة يضع يده على فمه من جديد .

ـ أليس ثمة رسائل مرسلة الىّ من هناك ؟

ـ لقد ذهب الخفير ميخايف فى هذا الصباح الى فاخمارايف ... نعم ... فى البنسيون الألمانى . لذلك سأمضى أسأله بعد قليل اذا شئت.

ـ نعم اذهب يا صديقى . قدم لى هذه الخدمة ... أرجوك ... ناشدتك الله .. أقول هذا هكذا .. فلا يذهبن بك الظن الى أى شىء غير عادى . قلت هذا عرضا .. اتفقنا اذن يا صديقى .. اسأله .. حاول أن تعرف هل يدبر شىء ضدى هناك . ماذا يهيىء هو ؟ ذلك هو ما يهمنى أن أعرفه . اذهب وسأعرف كيف أكافئك بعد ذلك يا صديقى ..

ـ أنا تحت أمرك يا صاحب النبالة. ان ايفان سيميونوفتش هو الذى حل محلك فى المكتب هذا الصباح .

ـ ايفان سيمونوفتش ! ها .. نعم .. هل هذا ممكن ؟

ـ آندره فيليبوفتش هو الذى أمره بأن يحل محلك ..

ـ أهذا ممكن ؟ ولكن لماذا ؟ حاول أن تعلم يا صديقى .. ناشدتك الله .. حاول أن تعلم يا صديقى .. حاول أن تعلم ، وأنا سأعرف كيف أكافئك يا عزيزى . ذلك هو ما يهمنى .. ولكن اياك خاصة أن يذهب بك الظن يا صديقى الى ...

ـ تحت أمرك .. تحت أمرك .. سأذهب اليه حالا .. ولكن أليس فى نية صاحب النبالة أن يدخل المكتب اليوم ؟

ـ لا يا صديقى .. لا .. لقد جئت الى هنا عابرا ، لا لشىء غير أن

ألقى نظرة يا صديقى • اذهب وسأعرف كيف أكافئك فى المستقبل ؛ هيا يا رئيسى •

ـ تحت أمرك ••

قال كاتب المحكمة ذلك ثم اندفع يصعد السلم وقد امتلأ همة ونشاطا • وبقى السيد جولياد كين وحده •

قال لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سيئاً ، سيئاً جدا ، آه ! ان وضعنا معرض للخطر • ماذا يعنى هذا كله ؟ ترى ماذا كان المعنى الدقيق لتلك التلميحات التى قالها هذا السكير ؟ من هو الممسك بالأسلاك فى هذه القضية ؟ •• آ •• الآن عرفت من هو الممسك بالأسلاك • الآن فهمت القضية كلها • لا شك أنهم علموا •• و •• عندئذ أحلوه محلى •• لقد أحلوه هناك ، وبعد ذلك ؟ ان آندره فيليوفتش هو الذى أحل ايفان سيميونوفتش محلى • فلأى غرض ؟ لا شك أنهم علموا •• هذا من فعل فاخمارايف ••• لا بل هو من فعل غيره •• ان فاخمارايف غبى ، قليل الذكاء ، بليد ! انهم هم أطلقوا على هذا الكلب المسعور ، للأسباب نفسها •• هم الذين دفعوا تلك الالمانية العوراء الى رفع شكوى علىّ • ولقد تنبأت دائما على كل حال بأن هناك أسبابا خفية تحملهم على تدبير هذه المكيدة كلها ، وأن ثمة شيئا يحاك وراء هذه الثرثرات التى تشبه ثرثرات العجوز الشمطاء ••• لقد قلت لكريستيان ايفانوفتش ، قلت له انهم آلوا على أنفسهم أن يغتالونى ، بالمعنى المجازى لهذه الكلمة طبعا ، وانهم يستخدمون فى سبيل ذلك كارولين ايفانوفنا • ان المرء يشعر بأن هناك يد معلم فى هذه القضية يا سادة • لا ••• ليس هو فاخمارايف • سبق أن قلت ذلك : ان فاخمارايف غبى ، أما ••• أنا أعرف من يدبر هذا كله لهم •• انه ذلك الوغد الحقير ، ذلك الدجال المخادع • وهذا مايفسر

تأثيره في الناس ونجاحه بينهم • الحق أن من المهم أن أعرف دوره وامتيازاته على وجه الدقة •• وأن أعرف على أى قدم يعامل هناك ؟ ولكن لاى سبب أخذوا ايفان سيميونوفتش ؟ ما حاجتهم الى ايفان سيميونوفتش؟ ألم يكن في وسعهم أن يجدوا أحدا غيره ؟ النتجة واحدة على كل حال ، سواء أأخذوه أم أخذوا غيره • الشيء المحقق أننى أشتبه منذ زمن طويل فى ايفان سيميونوفتش هذا • اننى أراقبه منذ مدة طـــويلة • يا له من عجوز رهيب ، عجوز يبعث على الاشمئزاز والتقزز ! يظهر أنه يقرض بالربا وأنه جنى أرباحا كبيرة كأرباح يهودى ! ولكن الدب هو الذى يدبر ذلك كله من وراء ! هو روح المؤامرة • كذلك بدأت المسألة •• بدأت من جسر اسماعيلوفسكى •• نعم لقد انطلق كل شيء من هناك ! » •

جعد السيد جولياديكين خده كأنه عض قشرة ليمونة • لا شك أن ذكرى مزعجة قد استيقظت فى ذاكرته • قال لنفسه : « أوه •• على كل حال •• ليس لهـــذا كله كبير شأن • لنعـــد الى أعمالنا • لماذا تأخر أوستافياف ؟ لا شك أن أحدا قد استوقفه • أحسب أن من حقى أن أمكر أنا أيضا ، وأن أنصب بعض الشباك • يكفى أن أعطى أوستافياف بضعة نقود أخرى ••• فينحاز الى جانبى • ومع ذلك يجب أن أعرف هل هو حقا فى جانبى •• لعلهم رشوه هو أيضا •• ربما كان ضالعا فى المؤامرة منذ الآن ! ان هيئته هيئة لص ، لص عريق • انه يخفى لعبته هذا الوغد! ما ينفك يقول لك : « لا •• لا يوجد شيء قط •• أشكرك من كل قلبى يا صاحب النبالة •• لك كل امتنـــانى •• » • آه ••• يا له من لص عريق ! » •

وفجأة سمع السيد جولياديكين وقع خطـوات • فأسرع يلطو وراء المدفأة • نزل أحدهم على السلم ، وخرج الى الشارع • تساءل بطلنا :

« من عساه يخرج فى هذه الساعة ؟ » • وبعد بضع لحظات سمع مرة أخرى وقع خطوات على السلم • فلم يستطع أن يصبر ، بل جازف فمدّ أنفه •• لكنه لم يلبث أن سحبه كأن ابرة وخزته• ان الرجل الذى كان هابطا على السلم ليس الا ذلك الوغد الحفير ، ذلك النصاب المغتصب، ذلك الفاجر المكار ! كان يتقدم بخطاه القصيرة المعهودة ، بمشيته الوقحة المكردحة ، رافعا قائمتيه القصيرتين عاليا ، كمن يريد أن يضرب بهما أحدا • ودمدم بطلنا يقول : « سافل •• دنيء » • ولكن بطلنا لم يفته ان يلاحظ أن « السافل الدنيء » كان يتأبط المحفظة الخضراء الضخمة ، محفظة صاحب السعادة • قال السيد جولياداكين لنفسه : « وهذه مهمة خاصة أخرى » ، قال ذلك وقد احمر وجهه غضبا ، وأقعا مزيدا من الاقعاء • وما كاد الوغد يختفى ، دون أن يخطر باله أن يكون بطلنا حاضرا ، حتى سمع بطلنا وقع خطوات على السلم مرة ثالثة •• انه كاتب المحكمة • لقد شعر السيد جولياداكين بذلك فورا • وما هى الا لحظة حتى ظهر خلفه وجه مدهش هو وجه كاتب آخر من كتاب المحكمة اسمه بيسارنكو • صعق السيد جولياداكين من ذلك • قال لنفسه : « لماذا يقحم فى هذه القضية ! آه من هؤلاء الهمج ! •• لا حرمة عندهم لشيء ! ••• » •

ثم قال يخاطب بيسارنكو :

ـ هيه يا صديقى ، هل من جديد ؟ من ذا أرسلك يا صديقى ؟

ـ جئت من أجل قضيتك الصغيرة • حتى الآن ما من نبأ جديد • وسنبلغك متى جاءنا نبأ جديد •

ـ وأوستافياف ؟

ـ يستحيل أن يتغيب يا صاحب النبالة • لقـــد قام صاحب السعادة بجولة على المكاتب مرتين • ثم ان وقتى لا يتسع أنا أيضا •••

ـ شكرا يا عزيزى شكرا ، ولكن قل لى ••••

ـ ليس فى وقتى متســـع ، أحلف لك ••• انهم ينادوننا فى كل لحظة ••• ابق هنا لحظة •• فاذا علمنا شيئا جديدا يتصل بقضيتك ••• أبلغناك •••

ـ طيب يا صديقى طيب • اقتراحك جيد جدا يا صديقى العزيز • والآن شىء آخر : اليك هذه الرسالة يا صديقى ، وسأكافئك يا عزيزى •

ـ تحت أمرك •

ـ حاول أن توصلها الى السيد جولياديكين •

ـ جولياديكين ؟

ـ نعم الى السيد جولياديكين يا صديقى •

ـ حاضر • متى انتهيت من الأعمال المستعجلة ، سأحمل الرسـالة اليه • أما أنت فابق هنا الى حين • ما من أحد يمكن أن يراك هنا •••

ـ ولكن ياصديقى لاتصدق هذا •• أنا لا أبقى هنا حتى لا يرانى أحد • لاياصديقى ، لن أنتظر هنا ، بل فى الشارع الصغير ، على جانب • يوجد هناك مقهى • فسأنتظر فيه فاذا بلغك شىء فلا تتأخر عن نقله الى • هل فهمت ؟

ـ طيب ، فهمت • والآن دعنى أنصرف •

ـ وسأكافئك يا عزيزى

كذلك هتف جولياداكين يقول لكاتب المحكمة الذى تملص وابتعد. قال بطلنا لنفسه وهو يخرج من وراء المدفأة : « ان هذا الوغد يصبح أكثر وقاحة .. آ .. ان وراء الآكمة ما وراءها .. هـذا واضح . فى أول الأمر لم يكن هنـاك الا شىء من كتمـان ... على كل حال ربمـا كان مستعجلا حقا . لا شك أنه مشغول كثيرا . اذن لقد تفقد صاحب السـعادة المكاتب مرتين .. لماذا ؟ .. لا بأس .. قد لا يكون لهذا كبير شأن . نتنظر فنرى ... » .

وهم السيد جولياداكين أن يفتح الباب ليخرج ، ولكنه سمع فى هذه اللحظة قرقعة عربة تقف أمام المدخل . انها عربة صاحب السعادة . ولم يكد السيد جولياداكين يثوب الى رشده حتى كان باب العربة قد فتح ، فاذا برجل ينزل من العربة ويصير على درجات المدخل بوثبة واحدة . ولم يكن هذا الرجل الا جولياداكين الأصغر نفسه ، الذى كان قد غادر الوزارة منذ عشر دقائق . تذكر بطلنا عندئذ أن منزل صـاحب السعادة قريب من الوزارة ، على مسافة خطوتين منها .

قال بطلنا لنفسه : « هى مهمة خاصة . ذلك واضح لاريب فيه» . ولكن الدجّال كان قد فتح باب المدخل بعد أن أصدر الى الحوذى بعض الأوامر . انه ما يزال يتأبط المحفظة الضخمة الخضراء ، محفظة صاحب السعادة ، مع أوراق أخرى . وحين فتح الباب أوشك أن يصدم بطلنا ، ولكنه تظاهر بأنه لم يلاحظ وجوده ، فكان هذا اهانة جديدة لبطلنا . واندفع يصعد السلم راكضا .

قال بطلنا لنفسه : « الأمور تجرى مجرى سـيئا ... ان وضعى معرض للخطر ... أما هذا ... آه يا رب ! ... » وظل بطلنا ساكنا فى مكانه نصف دقيقة . ثم لم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هـو يجـرى

صاعدا السلم ملاحقا سميّه • كان قلبه يخفق خفقانا شديدا • وكان يحس برعدات تسرى فى جميع أعضائه • « لا بأس ••• من لم يجازف بشىء لم يظفر بشىء • ثم اننى فى هذه القضية كلها لست الا مشاهدا • » ••• كذلك كان يردد السيد جولياديكين وهو يخلع قبعته ومعطفه وجرموفيه فى حجرة المدخل •

كان الغسق يرين على جو المكتب ، حين دخل السيد جولياديكين • لم يبصر لا آندره فيليبوفتش ولا أنطون أنطونوفتش • كانا كلاهما فى اجتماع بمكتب المدير • وكان المدير من جهته يستعجل الذهاب الى صاحب السعادة فيما يظهر • وكان معظم الموظفين ، ولا سيما الشباب منهم ، قد استغلوا فرصة هذا الغياب وهذه العتمة ، فقعدوا عن العمل واستسلموا للفراغ بانتظار ساعة اغلاق المكاتب • وقد تألفت منهم جماعات تثرثر وتتمازح وتضحك • حتى أن بعض الموظفين الشباب ، وهم أدناهم رتبا ، قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة « الطرة والنقش » فى غمرة هذه الفوضى العامة • وهذا بطلنا الذى يعرف شئون الادارة حق المعرفة ، ويرغب فى التقاط بعض المعلومات النافعة ، يقترب من عدد من الموظفين هم الذين بينه وبينهم مودة ، محاولا أن يسلم عليهم • فما كان أشد دهشته وأقساها حين لاحظ ما فى لهجة أجوبتهم من غرابة وتهرب ! •• لقد بدا له وضعهم باردا جافا بل قاسيا • لم يمد أحد له يده • واكتفى بعضهم برد التحية مختصرة ثم ابتعد عنه ، ولم يزد بعضهم الأخر على أن رد التحية بحركة صغيرة من الرأس • حتى أن أحد زملائه أشاح بوجهه عنه دون أن يرد التحية أصلا • ثم كانت الاهانة الكبرى ، وهى أن عددا من الصبيان السعاة المغترين الذى ليس لهم رتب البتة والذين لا يجيدون شيئا غير لعبة « الطرة والنقش » وغير التسكع فى الأماكن المشبوهة على حد تعبير السيد جولياديكين قد تجمعوا حوله ثم أحاطوا به احاطة تامة فلا

يستطيع أن يخرج من النطاق الذى أحكموا ضربه عليه ، وأخذوا يتفرسون فيه باستطلاع وتعجب واحتقار .

ذلك نذير سيىء . لقد أدرك السيد جولياديكين ذلك ، فقرر أن لا يوليه أى انتباه . غير أن حادثا لم يكن فى الحسبان قط ، جاء يفسد عليه خططه فجأة ، ويبدد آماله كلها جملة .

فمن جمع الشبان الموظفين الذين تحلقوا حول بطلنا فى هذه اللحظة المشئومة ، لم يلبث أن ظهر له سميُّه على حين بغتة . كان السيد جولياديكين الأصغر مرحا فرحا نشيطا على عادته . نعم ، كان كثير الحركة ، متواثب الخطى ، ساخر اللهجة ، شديد التملق ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، خفيف الساقين ، على عهده به ، على ما كان دائما ، ولا سيما أثناء تلك الجلسة التى ما يزال بطلنا يحتفظ منها بذكرى كاوية جدا . انه يدور ويطير مبتسما ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ابتسامة تحيى الجميع . فما هى الا ثوان حتى كان فى وسط الجماعة يصافح الأيدى ويربت على الأكتاف ، يمسك بذراع هذا بينما هو يشرح لذاك المهمة التى عهد بها اليه صاحب السعادة . تكلم عما قام به من مساع وما بذله من نشاط وما حصل عليه من نتائج . حتى لقد مضى به الأمر الى حيث قبّل أحد الموظفين على شفتيه ، وهو خير أصدقائه ولا شك ... الخلاصة أن كل شىء جرى على نحو ما رآه السيد جولياديكين فى منامه . وبعد هذه الأنواع من الرياء المتصنع والسلام الكاذب والتقبيل المتملق مع جميع الناس ، بدا للسيد جولياديكين الأصغر ، على حين فجأة ، أنه نسى أن يحيى أقدم أصدقائه ، عن سهو بدون شك ، فسرعان ما مد يده الى بطلنا مسلما ، وسرعان ماتناول بطلنا هذه اليد ، عن سهو بدون شك أيضا ، لأنه كان قد استطاع خلال ذلك الوقت كله أن يلاحظ مكائد هذا الرجل الدجال ، أقول سرعان ما تناول بطلنا هذه اليد التى مدت اليه فجأة على غير توقع ، تناولها

بشراهة ، وصافحها بقوة ، وأقبل يرد التحية بعاطفة قوية وصداقة خالصة. لقد صافح بطلنا يد صاحبه باندفاع روحي وحنان قلبي . أتراه فعل مافعل لان هذه البادرة من صديقه الوقح قد خدعته ، أم لانها فاجأته سرعتها ، أم لانه شعر في هذه اللحظه بعجزه لا أكثر من ذلك ولا أقل ؟ من الصعب علي أن أقطع في هذا برأي . وانما المهم أن السيد جولياديكين ، بكامل صحوه وملء ارادته ، قد صافح مصافحة قوية ، على مرأى من الناس ، يد ذلك الانسان الذي كان يعد عدوه اللدود .

فما كان أشد الذهول والحنق ، والهول والعار الذي شعر به بطلنا حين رأى خصمه ، حين راى عدوه اللدود يغير موقفه فجأة . لقد أدرك الدجال الكريه الخطأ الذي ارتكبته ضحيته المسكينة البريئة ، فاذا هو ينتزع يده من يدبطلنا بحركة مفاجئةفظة متعجرفة، وببرود كامل لانخالطه أية عاطفة من عواطف الرحمة الانسانية ، ثم اذا هو ينفض يده كمن يريد أن يطهرها من رجس علق بها نتيجة لملامسة تثير الاشمئزاز والتقزز ، واذا هو يشفع هذه الحركة ببصقة على الارض وبحركة كريهة وقحة ، واذا هو يزيد على ذلك فيخرج منديله ويأخذ يمسح به أصابع يده التي صافحها بطلنا . وكان المغتصب الدنيء يشفع هذه الحركات كلها بنظرات يجيلها حوله على عادته ، كأنه يريد أن يتخذ من الحضور شهودا على سلوكه الحقير ، وهو يتفرس في الأعين كأنه يريد أن ينفخ فيها الكره والاحتقار للسيد جولياديكين . غير أن هذا الموقف المستفز المتحدي الذي وقفه هذا الشخص المقيت بدا أنه أثار استنكار الحضور واستياءهم ، فقامت هنا وهناك دمدمات واحتجاجات . وسمع السيد جولياديكين هذه الضجة . ولكن الدجال لم يلبث أن طلع على الحضور بمزحة فكهة موفقة ، فاذا بالمزحة تحطم وتبدد آخر آمال بطلنا . لقد مالت كفة الميزان مرة أخرى الى جهة عدوه القاسي الحقير .

« انظروا الى فوبلاس الروسى ، الى فوبلاسنا القومى • اسمحوا لى أن أقدم اليكم ، ايها السادة ، الفتى فوبلاس • » • كذلك دوى صوت الغاضب رنانا وقحا على عادته المألوفة ، وهو يتطاير وسط الموظفين مشيرا الى جولياديكين الأصلى ، الواقف ساكنا متجمدا • ثم أضاف الى ذلك يقول بلهجة ألفة لا تطاق ، وهو يتقدم نحو الشخص الذى يستهزىء به : «هيا تعانق يا حبيبى • » • ووجدت مزحة هذا الشخص الدنيء صدى حسنا لدى بعض المشاهدين ، لا سيما وأنها تومىء ايماء مباشرا وقحا الى حادث يبدو أن جميع الناس يعرفونه •

أحس بطلنا بيد أعدائه ثقيلة على كتفيه • فلم يلبث أن اتخذ قرارا ، فاذا هو ، وقد اتقدت عيناه ، واصفر وجهه ، وانفرجت شفتاه فى جانب ، يتملص من الجمهور على نحو من الانحاء ويتجه نحو مكتب صاحب السعادة بخطى مترنحة صغيرة • فلما وصل الى حجرة المدخل وجد نفسه وجها لوجه أمام آندره فيليبوفتش الذى كان خارجا من مكتب المدير • كان فى الحجرة عدد من الأشخاص ليس لهم أى شأن بهذه القضية ، ولكن ذلك لم يؤثر فى صاحبنا ، فسرعان ما عزم أمره ، وجمع شجاعته (وهو يكاد يدهش من جرأته ويغبط نفسه عليها) ، واتجه الى آندره فيليبوفتش الذى بهته هذه الهجمة التى لم تكن فى الحسبان •

سأله آندره فيليبوفتش دون أن يصغى الى كلامه المضطرب :

ـ ها ••• هذا أنت ••• ماذا تريد ؟

فقال بطلنا بصوت واضح رصين وهو يحدق الى مخاطبه صامدا :

ـ آندره فيليبوفتش ••• أريد ••• هل أستطيع أن ألتمس حديثا خاصا مع صاحب السعادة يا آندره فيليبوفتش ؟

ـ ماذا تقول ؟ ... طبعا ... لا .

ونظر آندره فيليبوفتش الى بطلنا من رأسه حتى قدميه :

ـ أقول لك ذلك يا آندره فيليبوفتش لأنه يدهشنى أنه لما يحسر أحدا حتى الآن القناع عن وجه الدجال الحقير !

ـ كيف ؟

ـ أقول : الحقير ، يا آندره فيليبوفتش !

ـ من تعنى ؟

ـ أعنى شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ، أعنى شخصا بعينه ياآندره فيليبوفتش ... وأنا على حق ... أعتقد يا آندره فيليبوفتش أن رؤساءنا لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات (أضاف جولياديكين ذلك خارجا عن طوره) ... وأنا على يقين من أنك تفهم معنى مبادرتى هذه الكريمة الشريفة .. ان علينا كما يقال أن نعد رئيسنا أباً لنا يا آندره فيليبوفتش . وأنا أحب أن يكون هذا الرئيس العادل بمثابة أب لى أضع مصيرى بين يديه يتصرف فيه كما يشاء . سوف أقول له ... (هنا أخذ صوت السيد جولياديكين يرتجف ، واحمر وجهه ، وسقطت دمعتان من عينيه) ...

بهت آندره فيليبوفتش من أقوال السيد جولياديكين ، وبلغ من الدهشة والذهول أنه تراجع خطوتين على غير شعور منه ، وأخذ ينظر حواليه خائفا قلقا .

كان يصعب على المرء أن يتصور لهذا المشهد مخرجا ... ولكن باب مكتب صاحب السعادة فتح فجأة ، وظهر صاحب السعادة فى العتبة يصحبه عدد من الموظفين . هب جميع الحضور واقفين . ونادى صاحب

السعادة آندره فيليبوفتش • وترك الرجلان الحجرة سائرين جنبا الى جنب متحدثين فى شئون تتصل بالعمل • وتبعهما الآخرون • فلما بقى السيد جولياديكين وحيدا استرد شعوره وثاب الى رشده ، ثم مضى يلطو خاضعا طائعا تحت جناح أنطون أنطونوفتش الذى كان يسير فى آخر الموكب مهدم الهيئة متجهم الوجه •

قال السيد جولياديكين لنفسه شاكيا : « آ ••• لقد أخطأت مرة أخرى ••• غلطت مرة أخرى ••• على كل حال ، لا ضير •• » • ثم قال يخاطب أنطون أنطونوفتش مدمدما بصوت ناعم مرتجف من الانفعال بعض الارتجاف :

ـ آمل أن لا ترفض أنت على الأقل أن تستمع الى كلامى وأن تنظر الى حالتى بعين الاعتبار • اننى حتى الآن لا أستطيع أن أفهم أقوال آندره فيليبوفتش • فهلا شرحتها لى يا أنطون أنطونوفتش اذا كان ذلك فى وسعك !

فأجابه أنطون أنطونوفتش بلهجة قاسية وهو يفصل كلماته :

ـ سيُعرف كل شىء فى حينه •

أدرك السيد جولياديكين أن رئيس دائرته لا يحب أن يواصل الحديث معه • وأضاف أنطون أنطونوفتش قوله :

ـ على كل حال ، ستكون على علم بالأمر قريبا • ستبلغ رسميا فى هذا اليوم نفسه •

ـ ماذا تعنى بقولك « رسميا » يا أنطون أنطونوفتش ؟ لماذا تقول : « رسميا » ؟

كذلك سأل السيد جولياديكين خائفا وجلا • ،

ـ ليس لنا أن نناقش فى قرارات رؤسائنا يا ياكوف بتروفتش ...

ـ ما علاقة الرؤساء بهذا الأمر يا أنطون أنطونوفتش ؟ ما شأنهم فى هذه القضية؟ اننى لاأرى أى داع الى ازعاج رؤسائنا ياأنطون أنطونوفتش؟ أتراك تقصد حوادث الأمس يا أنطون أنطونوفتش ؟

ـ لا .. ليس الأمر أمر ما جرى بالأمس . ان فى قضيتك شيئاً آخر يعرج !

ـ ما الذى يعرج يا أنطون أنطونوفتش ؟ يخيل الىّ يا أنطون أنطونوفتش أنه ما من شىء يعرج !

قاطعه أنطون أنطونوفتش يقول بلهجة خشنة :

ـ مع من كان فى نيتك أن تتآمر ؟

فقد السيد جوليادكين رباطة جأشه ، وارتعش ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا . قال ثائراً :

ـ طبعا يا أنطون أنطونوفتش ... اذا لم يُستمع الا الى وشايات الأعداء ، دون الاصغاء الى أقوال المتهم ، فمن الطبيعى عندئذ ...

كذلك تمتم السيد جوليادكين بصوت مختنق ، وأردف يتم كلامه :

ـ نعم من الطبيعى فى هذه الحالة يا أنطون أنطونوفتش أن يُدان برىء وأن يتألم ظلما وعدوانا .

ـ ها .. وما قولك فى فعلك الدنىء مع فتاة شريفة أوشكتَ أن تدنس سمعتها ؟ فتاة غمرتك أسرتها الكريمة السخية التى يجمع الناس على احترامها بأنواع الخيرات ...

ـ عن أى فعل تتكلم يا أنطون أنطونوفتش ؟

ـ ها ... ولا شك أنك تريد أن تنكر أيضا الأذى الذى ألحقته بفتاة أخرى ، متواضعة المركز الاجتماعى طبعا ، ولكنها من أسرة أجنبية محترمة !

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفيتش ... اصغ الى كلامى من فضلك يا أنطون أنطونوفتش !

ـ وما قولك فى موقفك الدنىء من شخص آخر ، فى وشاياتك عليه ، فى اتهاماتك اياه بأفعال أنت وحدك مقترفها ؟ هه ؟ ما قولك فى هذا ؟

تمتم بطلنا مبهورا لاهثا :

ـ أنا يا أنطون أنطونوفتش ؟ ولكننى لم أطرده أبدا من بيتى ... لم آمر بتروشكا أبدا ... أقصد لم آمر خادمى أن يطرده .. لقد أكل من خبزى يا أنطون أنطونوفتش ... استفاد من ضيافتى (أضاف السيد جولياديكين ذلك بصوت أجش يفيض انفعالا ، وكانت ذقنه ترتعش ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع)

أجاب أنطون أنطونوفتش ساخرا :

ـ تلك حكايات يا ياكوف بتروفتش !

فهزت لهجته الساخرة السيد جولياديكين هزا عميقا .

ـ اسمح لى يا أنطون أنطونوفتش أن ألقى سؤالا أخيرا : هل صاحب السعادة على علم بهذه القضية كلها ؟

ـ طبعا ... والآن دعنى ... لا أملك من الوقت ما أضيعه معك . سوف تُبلَّغ اليوم كل ما يتصل بك .

ـ ناشدتك الله يا أنطون أنطونوفتش ... أتوسل اليك ... دقيقة واحدة أخرى ...

ـ سيتسع وقتك لقص كل شيء .

ـ لا لا يا أنطون أنطونوفتش ... أنا ... استمع الىّ .. أرجوك ياأنطون أنطونوفتش ... أنا لا أناصر الأفكار الهدامة ... أنا أتحاشى الأفكار الهدامة . أنا مستعد كل الاستعداد لأن أسلم بأن ... حتى لقد أعلنت رأيى قائلا ...

ـ طيب طيب ... لقد سمعت هذا ..

ـ لا لا . هذا لم تسمعه يا أنطون أنطونوفتش . لا ... أقصد هنا شيئا آخر يا أنطون أنطونوفتش ، شيئاً حسنا ، حسنا جدا ، يسرُ سماعه .. لقد أعلنت رأيى يا أنطون أنطونوفتش ، وشرحته قبل الآن . اليك رأيى الذى أعلنته وشرحته : قلت ان الله قد شاء أن يخلق شخصين متماثلين تماثلا كاملا مطلقا ، فأحدهما عين الآخر تماما ، وان رؤساءنا الكرام الذين يملكون البصيرة الصادقة قد أدركوا مشيئة الله ، فشملوا برعايتهم وحمايتهم التوأمين كليهما ... هذه فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش ... أنت ترى أنها فكرة حسنة يا أنطون أنطونوفتش . انني بعيد عن الأفكار الهدامة ، كما ترى . وأعتقد أن قلوب رؤسائى تفيض محبة ورأفة كقلوب الآباء . هذا هو رأيى : فهناك من جهة أولى رؤساء تفيض قلوبهم كرما ورأفة ، وهناك من جهة أخرى شاب يحتاج الى عمل ... كن لى عونا وسندا يا أنطون أنطونوفتش . دافع عنى واحمنى يا أنطون أنطونوفتش . أنا لم أفعل سوءا يا أنطون أنطونوفتش . أرجوك ... دعنى أقول كلمة أخرى يا أنطون أنطونوفتش ..

ولكن أنطون أنطونوفتش كان قد ابتعد • أما بطلنا فقد أصبح لا يعرف أين هو ، ولا يعرف ماذا يسمع ، ولا ماذا يصنع ، ولا ماذا يصنع به ، ولا ماذا سيصنع به ••• لقد اضطربت نفسه اضطرابا عميقا مما سمعه ومما وقع حتى الآن ••

أخذ يبحث فى جمهرة الموظفين عن أنطون أنطونوفتش ، بنظرة ضارعة متوسلة • كان يريد أن يبرىء نفسه فى نظره • كان يريد أن يقول له بضع كلمات اخرى ، كلمات جميلة بريئة طاهرة ، كلمات يمكن أن تدل على نبل نياته •

وفى أثناء ذلك كان شعاع جديد يتسلل شيئا فشيئا الى قلب هذا الاضطراب فى عواطف بطلنا ، شعاع جديد رهيب يكشف له فجأة عن آفاق فسيحة لأحداث ليست فى الحسبان ، أحداث لم يكن بطلنا قد تصور أنها ممكنة حتى الآن •

وفى هذه اللحظة صدمه أحدهم فى خاصرته •

فالتفت فرأى أمامه بيسارنكو •

ـ هذه رسالة لك يا صاحب السعادة •

ـ ها ••• لقد أوصلت اذن رسالتى ؟

ـ لا بل جيء بهذه الرسالة الى هنا فى الساعة العاشرة من الصباح • ان الخفير سرجى ميكايف هو الذى حملها من السكرتير فاخمارايف •

ـ طيب يا صديقى ، طيب جدا ، سوف أكافئك يا عزيزى •

قال السيد جولياد كين هذه الكلمات ودس الرسالة فى جيب ردنجوته عاقدا أزراره بكثير من العناية • ونظر حواليه ، فما كان أشد دهشته حين

رأى أنه قد أصبح فى الدهليز الكبير وسط سائر الموظفين • انهما ساعة انصراف الموظفين واغلاق المكاتب • لم يكن السيد جولياديكين قد شعر بذلك أبدا ، لا ولا فهم ما هى الظروف التى جعلته الآن موجودا فى الدهليز ، لابسا معطفه منتعلا جرموقيه حاملا قبعته بيده • كان الموظفون جامدين ساكنين ينتظرون فى وضع يدل على الاحترام • ذلك أن صاحب السعادة كان واقفا فى أسفل السلم ينتظر عربته ، ويتحدث فى كثير من الحماسة مع اثنين من مستشارى الدولة ومع آندره فيليبوفتش • وعلى بضع خطوات من تلك الجماعة كان يقف أنطون أنطونوفتش مع اثنين أو ثلاثة من الموظفين يبتسمون وهم يرون صاحب السعادة ضاحكا ممازحا ، وكان سائر المستخدمين المحتشدين فى أعلى السلم يبتسمون هم أيضا، ويرصدون كل ضحكة جديدة يطلقها صاحب السعادة • كان هنالك رجل لا يبتسم: انه البواب الضخم فيدوستش • انه واقف وقفة التأهب العسكرى ، قابض على مقبض الباب ، ينتظر بفارغ صبر أن ينال نصيبه اليومى من المتعة • وكانت متعته هى هذه : أن يفتح أحد مصراعى الباب عريضا بدفعة واحدة ثم يدع لصاحب السعادة أن يمر وقد حنى هو ظهره كالقوس احتراما واجلالا ••• أما الشخص الذى كان يشعر بأكبر فرح أثناء هذا الانتظار العارض ، فلا شك أنه ذلك العدو الكريه الفاجر اللدود ، عدو السيد جولياديكين •

كان فى هذه اللحظة لا يعرف أحدا من سائر الموظفين • كان فى هذه اللحظة لا يتواثب بينهم ولا يدور ، على عادته المقيتة الحقيرة • كان لا يحاول أن ينتهز الفرصة المواتية للتحبب اليهم وكسب مودتهم • هو الآن أبصار وأسماع كله •• انه متجمع على نفسه فى وضع غريب ، ليرهف السمع عن غير شك • انه يلتهم صاحب السعادة بعينيه ؛ ولا تظهر

على وجهه الا بضع جعدات تشنجية من حين الى حين تكشف عما فى قرارة نفسه من حركات عميقة خفية .

قال بطلنا لنفسه : « يا للوغد ! انه يصطنع هيئة من له حظوة ! يا له من لص ! ... وددت لو اعرف اسباب نجاحه بين الناس . انه لا يملك شيئا ، لا فكرا ولا ثقافة ولا خلقا ولا ارادة ولا عاطفة ... انه محظوظ هذا الفاسق ! رباه رباه ! ما اعجب ما يمكن أن يحصل عليه انسان من نجاح سريع ومن ثقة كبيرة ! ولسوف يمضى فى هذا الطريق قدما . يمينا انه سوف يمضى فى هذا الطريق قدما ، هذا الوغد ... لسوف يحقق هدفه . ان الحظ معه ، هذا اللص ! ليتنى أعرف بماذا كانوا يتهامسون منذ هنيهة ! ما هى الأسرار التى بينه وبين الاخرين ؟ بماذا كانوا يتهامسون خفية ؟ رباه ! ماعساى أصنع ؟ ما عساى أفعل ؟ ... أأمضى أقول له : « لقد تبت ... اننى أعترف بخطئى .. ففى زماننا هذا لابد لرجل شاب من أن يعمل يا صاحب السعادة .. ولست أشعر بخجل من هذه المصادفة التى تبعث الاضطراب فى النفس . أعدك بأن لا أرفع صوتى بعد الآن باحتجاج . أعدك بأن أحتمل بعد الآن كل شىء طائعا صاغرا صابرا . ترى أهذا ما يجب أن أفعله ؟ ... لا .. ان هذا لا يجدى مع شخص فاجر كهذا الشخص . ليس للكلمات من تأثير فى نفسه . يستحيل رد عقل غبى كعقله الى سبيل الصواب والرشاد. ولكن فلنحاول . قد تواتينى فرصة مناسبة . لماذا لا أجرب حظى ؟ ... » .

أحس السيد جولياديكين ، وهو فيما هو فيه من حيرة واضطراب وقلق أنه لا يستطيع أن يلبث فى مكانه هذا على هذه الحال . أحس أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فلا بد له أن يكاشف أحدا بالأمر . وشيئاً شيئا أخذ يشق لنفسه طريقا الى المكان الذى يقف فيه ذلك الرجل الدنىء العجيب الذى كان رفيقه فى ذات مساء .

ولكن قرقعة عربة تقف لم تلبث أن سمعت فى هذه اللحظة نفسها. انها العربة التى كان صاحب السعادة ينتظرها منذ مدة طويلة . شد فيدوستش الباب ، وفتح الطريق لصاحب السعادة منحنيا كالقوس . وأسرع الموظفون الآخرون نحو الباب فى الوقت نفسه . فانفصل السيد جولياديكين عن سميّه فى غمرة هذا الاندفاع .

انسل السيد جولياديكين فى صفوف الجمهور مرددا لنفسه دون أن يحول بصره عن الرجل الذى يريد أن يدركه « لا ... لن تفلت منى». وتبعثر الجمهور أخيرا ... فأصبح بطلنا حرا طليقا ، فأسرع يطارد عدوه .

الفصل الحادي عشر

أنفاس السيد جولياداكين فى صدره . كان يطير ، كأن له جناحين ، ملاحقا عدوه الذى يبتعد سريعا .. ان بطلنا يشعر بحماسة عظيمة وحميا شديدة. ومع ذلك فان كل شيء يحمل على الاعتقاد ، رغم هذا الاندفاع القوى ، أن فى وسع ذبابة أن تقلبه على الأرض بسهولة اذا هى لطمته بجناحها لطمة صغيرة ، هذا اذا وجد ذباب فى بطرسبرج فى مثل هذا الفصل من السنة . كان السيد جولياداكين يحس بأنه عاجز عن مواصلة السير ، وكان يحس فى الوقت نفسه أن قوة غريبة مستقلة عن جسمه استقلالا تاما كانت تجره جرا ، فلولا هذه القوة الغريبة عن جسمه لما استطاع أن يخطو أيسر خطوة ، لأن ساقيه كانتا تصطكان وترفضان أن تسعفاه . وظل يتابع جريه متقطع الأنفاس وهو يردد لنفسه كالآلة : « ما يزال يمكن أن يسوى كل شيء على أحسن وجه ، نعم على أحسن وجه ، أو على أسوأ وجه ...

« ومهما يكن من أمر فقد ضاعت قضيتى ، ما فى ذلك ريب لقد دمرت .. دمرت تماما .. هذا أكيد .. محقق .. لا عفو ولا غ .. ليس فى الامكان اجراء أى تغيير .. » . ومع ذلك ففى اللحظة استطاع فيها بطلنا أن يمسك بحافة معطف عدوه ، أحس كأنه يبعث جديدا دفعة واحدة . لكأنه حقق نصرا عظيما . لقد نادى العدو ا عربة ، وهم أن يركبها ، فصاح بطلنا يقول : « سيدى ، سيدى ، منك أن ... » . فأجابه عدوه القاسى الذى وضع احدى قدميه العربة :

ـ لا ... لا تأمل منى شيئا ، أرجوك ...

فلما حاول أن ينقل الى العربة قدمه الثانية ، حركها فى ا مضطربا ، ولم يستطع أن يحافظ على توازنه الا فى كثير من العناء ، و فى الوقت نفسه ، يحاول أن يتملص من تشبث جوليادكين به ، و بطلنا تمسك بمعطف خصمه بكل ما وهبته الطبيعة من قوى .

ـ ياكوف بتروفتش ، عشر دقائق فقط ..

ـ آسف .. ليس فى وقتى متسع .

ـ أرجوك يا ياكوف بتروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك ... فضلك يا ياكوف بتروفتش .. من فضلك .. هى مفاتحة صريحة بلا مواربة .. بلا لف ولا دوران .. لحظة واحدة يا ياكوف بتروفت

ـ ليس فى وقتى متسع يا صديقى العزيز جدا .

كذلك أجاب الدجال المرائى المنافق .

وكان تلطفه المتصنع يكشف عن مودة وفظاظة كلتاهما جارحة

وأردف يقول :

ـ دع هذا ليوم اخر .. صدقني .. سيسرني آن أستمع بقلب مفتوح .. احلف لك .. أما اليوم فمستحيل فعلا .

قال السيد جولياديكين لنفسه : « ما أجبنه ! » . ثم أعول يقول وقد فاض قلقا وخوفا :

ـ ياكوف بتروفتش ، ياكوف بتروفتش ، أنا لم أكن عدوك في يوم من الأيام . ان ألسنة سوء قد اتهمتني ظلما .. أما انا فمستعد لأن .. ياكوف بتروفتش ، هلا دخلنا لحظة الى هذا المقهى فتكاشفنا بصراحة ، بقلب مفتوح على حد تعبيرك الصحيح جدا . سنتكلم لغة صريحة رفيعة .. وسوف ترى : سوف يصبح كل شيء واضحا . نعم يا ياكوف بتروفتش، سوف ترى ، سوف يتضح كل شيء حتما .

ـ في هذا المقهى ؟ موافق .. ولم لا أوافق ؟ لندخل هذا المقهى . ولكني أضع شرطا ، شرطا واحدا ، يا عزيزي ، هو أن يتضح كل شيء آخر الأمر ، مرة واحدة . نعم ، مرة واحدة الى الأبد ، يا صديقي اللطيف .

كذلك قال جولياديكين الأصغر وهو ينزل من العربة ويلطم كتف بطلنا بدون حياء . وأضاف يقول :

ـ آه منك أيها الرفيق القديم ، انني مستعد في سبيلك لأن أسير في هذا الطريق الضيق ، كما اقترحت عليَّ هذا في المساء الأول ، هل تتذكر ؟ ... آه ما أخبث هذا الياكوف بتروفتش ! انه يصنع بي مايشاء (هذا ما أضافه الرفيق المنافق المرائي ، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ويدور حول بطلنا ويلتف) .

كان المقهى يقع فى زقاق صغير بعيد عن الشوارع الكبرى بالعاصمة. فلما دخلاه كان خاليا خلوا كاملا ، الا من المانية سمينة ظهرت لهما وراء البسطة حين سمعت رنين فتح الباب . مضى السيد جوليادكين ورفيقه الشرير الى الغرفة المجاورة حيث كان هناك صبى بدين حليق شعر الرأس يتحرك حول المدفأة محاولا أن يؤجج النار بقبضة من نشارة . وجىء للزبون بقدحين من الشكولاته تنفيذا لطلب السيد جوليادكين .

قال جوليادكين الأصغر لصديقه وهو يغمز غمزة خبيثة :

ـ امرأة بضة شهية .. هه ؟

فاحمر وجه بطلنا وحاذر أن يجيب .

ـ ها ... معذرة .. لقد نسيت تماما .. أنا أعرف ذوقك . نحن من عشاق الألمانيات النحيلات الرشيقات يا سيدى . نعم يا عزيزى الشهم ياكوف بتروفتش ، نحن ، أنا وأنت ، ميالون الى الالمانيات النحيلات ، شريطة أن لا يعوزهن شىء من فتنة واغراء طبعا : نستاجر فى بيوتهن غرفا ، ثم نغويهن ، وفى مقابل أطباق الطعام الصغيرة التى يقدمنها لنا ، وفى مقابل صحون الحساء بالبيرة وصحون الحساء باللبن التى نطعمها عندهن ، نعطيهن قلبنا وبضع سندات .. هذه طريقتنا فى العمل . آه منك أيها الناوى الذى يسحر قلوب النساء ويفتن عقولهن ! آه منك يا فوبلاس !

قال السيد جوليادكين الأصغر هذه الغمزات واللمزات الموجعة الوقحة مصحوبة بابتسامات لطيفة ومداعبات . وكان هذا المنافق يبسط عواطف الصداقة ويعرب عن فرحته بوجوده مع السيد جوليادكين. ولكن بطلنا لم يكن من الغباء والسذاجة بحيث تنطلى عليه هذه الأحابيل ، فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك أسرع يبدل أسلوبه

ويلعب باوراقه مكشوفة • فما ان نطق الدجال الحقير بتلك الكلمات الدنيئة حتى بادر يضع يده على كتف جاره طويلا غير متحرج أى تحرج، رافعا الكلفة الى حد يثير الحفيظة ويبعث على السخط والحنق ؛ ثم لم يكفه ذلك فاندفع فى أمازيح أخرى غليظه بذيئة ، ثم أراد أن يكرر فعلته الكريهة التى فعلها أمس حين قرص وجه بطلنا ، رغم ما اظهره بطلنا من مقاومة وأعلنه من احتجاج واستياء • فغلى الدم فى عروق بطلنا ازاء هذه الوقاحة • ومع ذلك كبح جماح نفسه ولزم الصمت •• كان ينتظر ساعته •

أجاب بصوت مضطرب بعض الاضطراب ، ولكنه ما يزال مسيطرا على نفسه :

ـ هذه مزاعم أعدائى •

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب • كان يخشى أن لا يندفع مخاطبه الذى كان واضح المرح والارتياح فى مزاحة مزعجة ثقيلة فى مكان عام ، مزاحة لا يمكن احتمالها فى مجتمع محترم على كل حال •

أجاب الدجال على قول السيد جولياديكين وهو يضع قدحه الذى أفرغه فى جوفه بشراهة لا حياء فيها :

ـ فى هذه الحالة أوافق • فى هذه الحالة أوافق ، ولم يبق ما يقوله أحدنا للآخر •• كيف صحتك الآن يا ياكوف بتروفتش ؟

قال بطلنا بهدوء ووقار :

ـ لن أقول لك الا شيئا واحدا يا ياكوف بتروفتش ، هو أننى لم أكن عدوك فى يوم من الأيام •

ـ همم ... هذا شيء يجب التثبت منه ! وبتروشكا ؟ ما اسم ذلك القرد ؟ بتروشكا ، أليس كذلك ؟ نعم هو كذلك . كيف هو الآن ؟ أحسب أن حالته جيدة ! أهو على ما كان عليه دائما ؟

قال السيد جولياديكين مدهوشا بعض الدهشة :

ـ حالته حسنة ، مثلما كان دائما يا ياكوف بتروفتش . لا أدرى ماذا يجب ان اقول يا ياكوف بتروفتش ... ولكنني من جهتي ... بكل صدق وبكل صراحة .. اخيرا أنت تعرف يا ياكوف بتروفتش .

قال السيد جولياديكين الاصغر بصوت شجيٍ معبر ، مصطنعا هيئة انسان حزين اعمق الحزن ، نادم اشد الندم ، هيئه انسان جدير بالاشفاق والرثاء والرحمة :

ـ ولكنك تعلم أنت نفسك يا ياكوف بتروفتش ، تعلم أنت نفسك أن هذا الزمان صعب .

ثم أضاف وقد عقد النية واضحة على أن يتملق بطلنا :

ـ انظر يا ياكوف بتروفتش ، سوف أشهدك أنت نفسك : انك رجل ذكى تستطيع أن تحكم حكما منصفا .. هل الحياة سهلة ؟ ... لا يا ياكوف بتروفتش .. ليست الحياة لعبا .. انك تعرف ذلك حق المعرفة يا ياكوف بتروفتش .

بهذا ختم الماكر المنافق كلامه بلهجة سيد ذكى مثقف ، أهل لان يناقش أخطر مشكلات الحياة وأرفع مسائل الوجود .

قال بطلنا بحماسة :

ـ سوف أخاطبك من جهتي يا ياكوف بتروفتش بلغة صريحة

جريئة لا احاول ان الف وان ادور • ساقول لك يا ياكوف بتروفتش ، بكل صدق واخلاص واستقامة وشرف ، انني برىء كل البراءة ••• نعم يا ياكوف بتروفتش ، اؤكد لك ذلك • ثم انك تعرفه بنفسك يا ياكوف بتروفتش • المسألة ، في حياتنا نحن ، يا ياكوف بتروفتش مسالة سوء تفاهم متبادل ـ وكل شيء ممكن في هذه الحياة ـ سوء تفاهم فاقمته احكام المجتمع ، احلام الناس رعاع عمى عبيد •• أنا أكلمك بصراحة يا ياكوف بتروفتش : اعود فاقول لك ان كل شيء ممكن في هذه الحياة ••• واضيف الى ذلك أنا اذا ارتضينا أن ننظر الى القضية كلها نظرة صادقه رفيعة سامية ، كان في وسعي أن أؤكد لك ، بغير خجل زائف ، أنه يكاد يسرني أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء وما وقعت فيه من ضلالات ••• نعم ، ولسوف يبهجني أن أكشف عن هذه الأخطاء والضلالات • أنت انسان ذكي شريف • وانك لتدرك بنفسك حق الادراك كل ما اعترفت لك به • نعم أنا أؤكد لك أنني مستعد لأن أبوح بكل شيء ، لأن أعترف بكل شيء ، اعترافا شريفا صادقا لا يخالطه حياء كاذب ولا خجل زائف •

هكذا ختم بطلنا كلامه وقد لاحت في وجهه رفعة ونبالة ووقار •

ـ مصير ! قدر ! ياكوف بتروفتش ••• دعنا من هذا كله الآن • ولنستعمل هذه اللحظات القصار التي تهيأت لنا في حديث أمتع وأفيد • ذلك أليق بزميلين ••• ثم انك لم تتح لي أن أقول كلمتين طوال هذه المحادثة •• وليس الذنب في هذا ذنبي يا ياكوف بتروفتش •

فقاطعه بطلنا يقول بحماسة :

ـ ولا هو ذنبي ، ولا هو ذنبي ••• أشهد على ذلك قلبي يا ياكوف بتروفتش ••• قلبي يؤكد لي أنني غير مسئول عن هذه القضية كلها •

ثم أضاف يقول بلهجة المصالحة :

ـ فلنحمل القدر تبعة ذلك كله .

وكان صوته ما ينفك يزداد ضعفا .

قال المنافق بصوت رقيق عذب :

ـ ماذا بك ؟ وكيف حالك عامةً فى هذه الأيام ؟

قال السيد جولياديكين بصوت أرق وأعذب أيضا :

ـ أعانى من سعال قليل .

ـ يجب أن تحاذر. هذا أوان الأمراض المعدية . ماأسرع مايصاب المرء بالتهاب فى الحلق فى هـــذه الأيام ! أنا من جهتى لا أكتمك أننى ألبس قميصا داخليا من صوف .

ـ أنت على صواب يا ياكوف بتروفتش . ما أسرع ما يصاب المـرء بالتهاب فى الحلق !

وأضاف بطلنا بعد صمت قصير :

ـ ياكوف بتروفتش ، انني أدرك الآن أخطائى ... وأتذكر بكثير من الحنان تلك اللحظات الجميلة التى سعدت بقضائها معك فى مسكنى الذى أصفه بأنه متواضع ولكننى أتجرأ فأصفه أيضا بأنه مضياف .

فأجابه مخاطبا بلهجة فيها شيء من العنب ، المسوَّغ على كل حال :

ـ ليس هذا ما عبرت عنه فى رسالتك .

(والواقع أن السيد جولياديكين الأصغر كان فى هذه اللحظة ، فى هذه اللحظة فقط ، صادقا كل الصدق منصفا كل الانصاف) .

ـ كنت مخطئا يا ياكوف بتروفتش ... اننى أرى اليوم بوضوح أننى كنت مخطئا حين كتبت لك تلك الرسالة اللعينة . اننى أستحى أن أنظر اليك الآن يا ياكوف بتروفتش .. أقسم لك .. اسمع .. أعد الىّ تلك الرسالة .. سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بتروفتش .. اقرأها معكوسة ، معكوسة تماما ، أقصد حملها معانى صداقة ومودة ، افهم كل كلمة من كلماتها على غير معناها ، افهم كل كلمة من كلماتها بضد معناها. لقد أخطأت خطأ كاملا ، خطأ قاسيا يا ياكوف بتروفتش .

قال الصاحب المرائى وقد لاح فى وجهه ذهول وعدم اكتراث :

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول اننى قد أخطأت خطأ كاملا يا ياكوف بتروفتش ، واننى مستعد ، بغير حياء زائف أو خجل كاذب ، لأن ...

ـ آ .. نعم .. صحيح .. لقد أخطأت أنت .. صحيح جدا .

كذلك قال جولياديكين الأصغر بلهجة خشنة .

قال بطلنا بوقار وصدق دون أن يدرك الازدواج الرهيب فى سلوك صاحبه الوقح :

ـ حتى لقد خطرت ببالى فكرة يا ياكوف بتروفتش .. نعم خطرت ببالى الفكرة التالية : « لقد خلق الله انسانين متمائلين تماثلا مطلقا .. » .

ـ آ .. أهذه هى الفكرة ؟

قال الشخص الحقير ذلك ثم نهض متناولا قبعته . ونهض السيد جولياديكين أيضا . انه لم يدرك المناورات الوقحة التى يقوم بها عدوه . كان يبتسم فى نبل ومودة . كان البرىء يحاول أن يلاطف عدوه ، أن يواسيه ، أن يعقد بينه وبينه صلات صداقة جديدة ...

صاح الدجال فجأة يقول :

ـ وداعا يا صاحب السعادة •

ارتجف بطلنا حين راى فى وجه عدوه ذلك التعبير المسعور الساخر، المعربد •

ومن أجل ان يتخلص السيد جولياداكين من هـذا الشعور وضع اصبعين فى اليد التى مدها اليه الشخص الكريه • وفى هذه اللحظة •• فى هذه اللحظة تجاوزت وقاحة السيد جولياداكين الاصغر كل الحدود . فها هو ذا يقبض على الاصبعين ، ويضغطهما ، ثم ما يلبث أن يكرر مزاحة الصباح امام بطلنا مرة أخرى بسرعة • هنا نفدت مدخرات جميع الصبر الانسانى •

أعاد جولياداكين الأصغر الى جيبه المنديل الذى مسح به يديه ، وخرج •• واسترد السيد جولياداكين أخيرا صوابه ، فاسرع يلحق بعدوه • ولكن عدوه كان قد انسل على عادته ، فأصبح فى الحجرة الأولى• انه الآن واقف قرب البسطة ، مرتاحا ، يلتهم بعض الفطائر فى غير اضطراب ، ويتحدث مع الالمانية بائعة الفطائر بلطف وأدب •

قال بطلنا لنفسه : « لا داعى الى فضيحة أمام سيدة •• » • واقترب هو أيضا من البسطة منفعلا أشد الانفعال •

قال جولياداكين الاصغر :

ـ حقا ان هذه المرأة اللطيفة لا بأس بها •• ما رأيك ؟

وعاد يكرر مزاحاته البذيئة معتمدا على صبر بطلنا •

كانت الألمانية السمينة تنظر الى زبونها بعينين شهباوين لاتعبران عن

شيء ، مع ابتسامه نودد وتلطف • و دن واضحا انها لا تفهم الروسية • نفد صبر بطلنا ، واصبح من فرط اســـتيائه من كلمات الدجال الوقحة لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فاسرع نحو صاحبه ملتهب الوجه حنقا ، يريد أن يمزقه اربا وآن يجهز عليه مرة واحدة • ولكن الشخص الجبان كان قد ابتعد على عادته فى الكيد والحيلة • لقد وثب فجاة فاصبح الان على درجات المدخل • ذهل السيد جولياديكين ولكنه لم يلبث أن أفاق من ذهول اللحظة الأولى ، فهرع يجرى وراء الشخص الذى أهانه جـريا سريعا • ولكن خصمه لم يلبث أن ركب عربة كانت واقفة فى الشارع • لا شك أن حوذى العربة كان متواطئا مع الرجل المخادع الدجال •

وفى هذه اللحظة نفسها أطلقت الالمانية البدينة ، وقد رات زبونيها يهربان ، أطلقت صرخة حادة وهزت جرس الباب بكل ما اوتيت من قوة فالتفت السيد جولياديكين الى خلف وهو يركض ، فرمى اليها مالا ثمن ما شرب هو وصاحبه ، وتابع ركضه نحو العربة دون آن ينتظر أن ترد اليه البقية ؛ واستطاع رغم تأخره أثناء ذلك أن يدرك خصمه من جديد ، وقد تحركت العربة •

تشبث السيد جولياديكين بجناح العربة بكل قواه ، وظل يجـرى معها على هذه الصورة محاولا أن يتسلق الى داخلها ، حيث كان عـدوه يجهد أن يصده بكل ما أوتى من قوة أيضا • وفى أثناء ذلك كان الحوذى يستحث فرسه الضعيفة الهزيلة بضربات من سوطه والزمام والقـــدم ، وكذلك بشتائم وسباب ؛ فاذا بالفرس الضعيفة الهزيلة تأخذ تعدو عـدوا سريعا على غير توقع ، عاضة زمامها رافسة بقائمتيها • واستطاع بطلنـا أخيرا أن يصعد الى العربة ، فأصبح أمام عدوه وجها لوجه ، مديرا ظهره لمقعد الحوذى • تداخلت ركب الرجلين ، وأمسك الســد جوليـادكين

بيده اليمنى باقة الفراء المهترىء من المعطف الذى كان يرتديه خصمه العانى الدنى ..

العربة تعدو بسرعة شديدة . والخصمان المتماسكان صامتان لا يتكلمان . الشارع محفر فالمركبة تهتز، ويوشك بطلنا أن ينكسر ظهره فى كل لحظة . وعدوه ، من جهته ، لا يعترف بأنه غلب ، فهو يستميت فى سبيل أن يدحرج السيد جولياديكين الى الوحل . ومن تمام المصيبة ان الجو كان رهيبا . فالثلج يتساقط أسناخا كبيرة ، ويتسرب الى داخل معطف صاحبنا . ولم يكن فى وسع المرء أن يرى شيئاً من شدة كثافة الثلج والضباب . كان يستحيل على المرء أن يعرف الشارع الذى تجرى فيه العربة سريعة سرعة شديدة . وفجأة شعر السيد جولياديكين بذلك الشعور الذى يحس صاحبه أنه « سبق له أن رأى ما يراه الآن » ... فظل بضع لحظات يحاول أن يتذكر .

ترى ألم يوجس هذا كله فى الليلة البارحة ، فى الحلم مثلا ؟ ... وأخذ قلقه يزداد شدة بغير انقطاع . هو الآن فى ذروة القلق . انه يحتضر . أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوه الذى لا يرحم ... ولكن صرخته فنيت على شفتيه ... ثم جاءت لحظة نسيان كامل . شعر السيد جولياديكين شعورا غامضا بأن كل ما يقع له أمر لا سبيل الى فهمه ... أمر لا فائدة منه .. أمر لا طائل تحته .. أمر لا شأن له به .. باطل وسخف أن يحتج .. وفى هذه اللحظة ، حدثت رجة شقية فغيرت وجه الأشياء .. سقط بطلنا كسقوط كيس طحين ، وتدحرج فى الوحل وهو يردد لنفسه أن كل شىء باطل ، وأنه أخطأ حين تحمس .

فلما نهض أبصر أن العربة كانت تقف فى فناء منزل من المنازل .

وأدرك من أول نظرة أنهم الآن فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى

ايفانوفتش • فتملكه اضطراب لا يوصف ، وهمّ أن يلاحق عدوه الدجال ولكنه توقف فى الوقت المناسب لحسن الحظ • ودفع للحوذى أجره ، وخرج الى الشارع ، وأطلق ساقيه للريح يجرى قدما ولا يلوى على شىء • الثلج ما يزال يتساقط أسناخا كثيفة • والجو مظلم رطب يملؤه الضباب • ان السيد جولياداكين يطير طيرانا ، فيصدم المارة ، ويقلب الفلاحين والنساء والأطفال ، ويتلقى بدوره صدمات تلو صدمات ••• ومن حوله ، ووراءه ، ترتفع صرخات ، وتعلو صيحات ذعر ، ويقوم عياط وشياط ••• ولكن السيد جولياداكين لا يريد أن يرى شيئا ، ولا يريد أن يفهم شيئا •• فلما صار قريبا من جسر سيميونوفسكى استرد صوابه وثاب الى رشده بعد أن صدم بائعتين وما تعرضان ، فقلبهما على الأرض ، وانقلب معهما فى الوقت ذاته • قال لنفسه : « ما هذا بشىء ••• كل أمر يمكن أن يسوى على أحسن نحو • » • ودس يده فى جيبه باحثا عن روبل يعوض به للبائعتين ما فقدتاه من فطائر وتفاح وجوز وغير ذلك من بضائع انسفحت على الارض • غير أن نورا جديدا ظهر فى دماغه عندئذ على حين فجأة • لقد مست يده الرسالة المغلفة التى حملها اليه كاتب المحكمة فى ذلك اليوم •

وسرعان ما تذكر السيد جولياداكين أن هناك ، غير بعيد عن المكان الذى هو فيه ، مطعما حقيرا يعرفه حق المعرفة • فأسرع يمضى الى المطعم ثم أسرع يجلس الى احدى موائده التى تضيئها شمعة ملطخة ، دون أن يضيع من وقته لحظة واحدة •

كان لا يشعر بما حوله ، حتى أنه لم ينتبه الى الخادم الذى جاء يسأله عن طلبه ؛ فض غلاف الرسالة بسرعة ، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر مذهول اللب أعمق الذهول :

« أيها الانسان النبيل ، العزيز على قلبى الى الأبد ،

« أنت يا من تتألم فى سبيلى !

« اننى اتالم ، اننى اتعذب ، اننى اموت عذابا ، فانقذنى .. انرجلا محتالا ، رجلا نماما ، رجلا معروفا بغروره وتفاهته قد أحاطنى بشباكه . نصب لى فخا ، فوقعت فى الفخ . لقد ضعت . ولكننى أكرهه وأمقته .. أما أنت .. لقد باعدوا بيننا .. وحجزوا الرسائل التى كنت أكتبها اليك. وذلك كله من صنع الانسان الدنىء الذى استغل ميزته الوحيدة ، وهى أنه يشبهك .

« أنا أعلم على كل حال أن فى وسع انسان غير جميل ان يفتن بسمو فكره وكرم عواطفه ورفعة أخلاقه وآدابه .

« لقد سقطت .. انهم يزوجوننى رغم ارادتى .. وان أبى ، نعم ، أبى ، مستشار الدولة ، أولسوفى ايفانوفتش ، هو الذى يقود الامر كله . أهى الرغبة فى أن يستفيد من مكانتى فى المجتمع ، ومن علاقاتى بعلية القوم ؟ » .

« ولكننى قد عزمت أمرى ، وسأحتج بكل ما أوتيت من قوة معتمدة على جميع الوسائل الممكنة . انتظرنى هذا المساء ، ابتداء من الساعة التاسعة فى فناء المنزل ، تحت نوافذ مسكننا تماما . سيقام احتفال راقص عندنا . وسيأتى ضابط ملازم جميل . سأنسل من الاحتفال ، وأجىء اليك ، فنهرب معا . ان فى بلادنا وظائف كافية ينفع المرء فيها وطنه . وفوق هذا كله يجب أن تتذكر يا صديقى أن البراءة تستمد قوتها من ذاتها . الى اللقاء . انتظرنى فى الفناء هذا المساء مع عربة . سآتى أحتمى بذراعيك فى الساعة الثانية تماما .

« وسأظل لك حتى الممات •

كلارا اولسوفيفنا

بعد أن قرأ بطلنا هذه الرسالة ظل برهة طويله مشدوه العقل ذاهلا عن نفسه • ثم أخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا مضطرب النفس فلقا ممتقع اللون ، ممسكا الرسالة بيده •

ومن تمام سوء الحظ انه لم يلاحظ ان الانظار جميعها اصبحت متجهة اليه • كانت ملابسه فوضى ، وكان انفعاله ظاهرا ؛ وكان كل ما يراه الناس فيه ، من مشيته فى القاعة او قل ركضه فى ارجائها ، الى حركات يديه ، الى الكلمات الغريبة القليلة التى كانت تفلت من شفتيه على غير شعور ، كل ذلك كان لا يهيىء الناس لان ينظروا اليه نظرة حسنة • حتى الخادم كان يتامله مرتابا محاذرا •• فلما ثاب الى رشده ، لاحظ أنه كان فى وسط القاعة ، وأنه كان يحدق فى رجل عجوز قصير وقور المظهر تحديقا غير لائق ، أو تحديقا لا محل له فى أقل تقدير • كان الشيخ القصير قد فرغ من تناول غدائه ، وانحنى أمام الأيقونة ، فهو الآن جالس على كرسيه لا يحول بصره عن السيد جولياديكين • أجال السيد جولياديكين عينيه فى أرجاء القاعة حائرا قلقا • فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوبة اليه ، وهى أعين تفيض احتقارا وعداوة • وهذا ضابط متقاعد يرتدى بزة ذات ياقة حمراء ، يأخذ يصيح طالبا أن يؤتى بجريدة « رسول الشرطة » •

ارتعش السيد جولياديكين • واحمر وجهه احمرارا شديدا • وخفض عينيه بحركة آلية ملاحظا أن مظهره غير لائق ولا محتشم • ما كان لرجل محترم أن يرتضى لنفسه أن يرتدى هذه الملابس فى بيته

فكيف بين الناس ! كان حذاءاه وسروالاه وكل الجانب الأيسر من ردنجوته ، كان ذلك كله ملطخا بالوحل • وكانت الثنية اليمنى من سرواله منزوعة • وكان الردنجوت ممزقا فى مواضع عدة • فما ان رأى السيد جولياديكين ذلك كله حتى تملكه خوف كاو ، فأسرع يجلس الى المائدة التى كان جالسا اليها حين قراءة الرسالة • فلم يلبث أن رأى الخادم مقبلا عليه • كان فى وجه الخادم وقاحة وشراسة • فاضطرب بطلنا وتحير وتفرس فى المائدة ، فرأى عليها أطباقا وسخة ، ومنشفة ملطخة ، وسكينا وشوكة وملعقة •

تساءل بطلنا : « من ذا أكل هنا ؟ أنا ؟ أهذا ممكن ؟ آه ••• كل شىء ممكن • لقد تغديت دون أن أشعر • فما الذى يجب أن أفعله الآن ؟ » • ورفع عينيه ، فرأى الخادم واقفا أمامه يهم أن يتكلم •

ـ كم الحساب يا صاحبى ؟

كذلك سأل بطلنا الخادم • فسمع من حوله قهقهات صاخبة • حتى لقد سمح الخادم لنفسه أن يبتسم • ففهم السيد جولياديكين على الفور أنه ارتكب غلطة فاحشة ، أنه قارف خطيئة كبيرة • فاضطرب أشد الاضطراب ودس يده فى جيبه باحثا عن منديل • كان فى حاجة الى أن يفعل شيئا ما، الى أن يقوم بحركة ما ، رجاء أن يغطى اضطرابه • ولكن ما كان أشد دهشته وما كان أشد دهشة الحضور أيضا حين لم يخرج من جيبه منديل وانما خرجت زجاجة فيها الدواء الذى وصفه له كريستيان ايفانوفتش منذ بضعة أيام • وهذه فكرة تلمع فى رأسه « جميع الأدوية فى صيدلية واحدة » ؛ وارتعش وهو لا يكاد يستطيع أن يكظم صيحة ذعر • لقد أضاء فكره فجأة • ان السائل الذى تضمه الزجاجة كئيب اللون قاتم الحمرة ، تلألأ حزينا أمام بطلنا • وفجأة أفلتت الزجاجة من يديه وتحطمت •

أطلق السيد جولياد كين صرخة ، ووثب وثبة الى وراء • ان أعضاءه كلهـا ترتجف • وان العرق يتقاطر على جبينه وصدغيه • « لا شك أن حياتى فى خطر » • كذلك قال لنفسه • وكان يسود الغرفة صـــخب شديد وصياح قوى • أحاط الناس بالسيد جولياد كين • كلموه • أمسكوا بذراعيه ، بكتفيه • ظل هو ساكنا صامتا ، لا يرى شيئا ولا يسمع شيئا ولا يحس بشىء •• وأخيرا انتزع نفسه من مكانه ، وأسرع يخرج من المطعم • أرادوا أن يستبقوه • ولكنه أبى ومضى فى طريقه يصـدم كل ما يلقاه أمامه • فلما صار فى الشارع ارتمى فى عربة من العربات خائر القوى على غير وعى ، وأمر الحوذى أن يقوده الى بيته • وفى الدهليز صادف ميخايف ، خفير الادارة ، حاملا اليه رسالة عمل ••• تمتم بطلنا يقول له مصعوقا ، بصوت كامد شاك : «أعرف مضمون الرسالة ياصاحبى ••• أعرف كل شىء •• هى تبليغ رسمى » • قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى الخفير عشرة كوبكات • وكانت الرسالة تتضمن مذكرة رســمية فعلا • انها مذيلة بتوقيع آندره فليبوفتش ، وهى تأمر السيد جولياد كين أن يسلم ايفان سيميونوفتش جميع الملفات والاوراق التى فى عهدته •

فلما دخل السيد جولياد كين بيته رأى بتروشكا منهمكا فى تكديس ملابسه وخرقه وأسماله • ما من شك البتة • ان بتروشكا يستعد لترك مولاه ويتهيأ لمغادرة البيت •

لا شك فى أن كارولين ايفانوفنا قد أغرته ، وأنه ذاهب اليهـا يحل محل أوستاش •

الفصل الثاني عشر

بتروشكا مترنحا • كان غير عابىء ، وكان فى وجهه تعبير غريب عن مرح وفرح ، وعن شعور فظ غليظ بالانتصار •

واضح أنه كان قد وضع خطته • انه يتصرف الآن تصرف انسان حر طليق ، غريب كل الغرابة عن المكان الذى هو فيه ؛ أو قل انه يتصرف تصرف خادم لواحد من الناس لس هوجولياد كين حتما •

قال بطلنا لاهثا :

ـ هأنذا يا عزيزى ! كم الساعة الآن يا صديقى ؟

ذهب بتروشكا الى ما وراء الحاجز دون أن يجيب ، ثم عاد يقول هادئا بلهجة طليقة :

ـ قريبة من السابعة والنصف •

ـ آ ... طيب ... جيد جدا يا صديقى الشهم . اذن اسمح لى أن أقول لك يا صديقى .. أخيرا .. أظن أن كل شىء قد انتهى بيننا الآن .

لم يجب بتروشكا بكلمة واحدة .

ـ طيب .. أما وقد انتهى بيننا كل شىء ، فقل لى بصراحة ، قول صديق لصديق ، أين كنت يا عزيزى الطيب ؟

ـ أين كنت ؟ عند أناس طيبين .

ـ أعرف يا صديقى أعرف . لقد كنت راضيا دائما عن خدماتك يا عزيزى ، وسأعطيك شهادة بذلك ... اذن ستعمل بعد اليوم عندهم ؟

ـ والله يا سيدى .. أنت نفسك تعرف : ما من انسان شريف يفعل فعلا سيئا .. هذا معروف .

ـ نعم ، أعرف يا صديقى الشهم أعرف . الشرفاء قلة فى هذا الزمان . ويجب علينا أن نقدرهم حق قدرهم يا صديقى . كيف الحال هناك الآن ؟

ـ كما كانت دائما .. أما أنا يا سيدى فلا أستطيع أن أبقى فى خدمتك بعد اليوم . وأنت تعرف ذلك جيدا على كل حال .

ـ أعرف يا عزيزى أعرف . أنا أعرف همتك ونشاطك وحماستك فى العمل . لقد لاحظت فيك هذه المزايا دائما ، وقدرتها حق قدرها دائما يا صديقى . اننى أقدرك كثيرا يا صديقى . لقد قدرت دائما الناس الطيبين الشرفاء ، ولو كانوا خدما .

ـ والله هذا شىء معروف . أنت تعلم أن شبانا مثلنا ليس لهم نظير..

هكذا • أما أنا يا سيدى فأجد أن من الصعب أن أعيش بدون أناس شرفاء • هذا أكيد •

ـ حسن جدا يا صديقى الشهم ، حسن جدا • أنا متفق معك فى الرأى •• طيب •• اليك أجرك وشهادتك •• والآن فلنتعانق ياصديقى الشهم ولنفترق •• ولكننى سأطلب منك خدمة صغيرة أخرى ، خدمة صغيرة أخيرة ، يا عزيزى (قال السيد جولياد كين ذلك بلهجة وقورة)• ان كل شىء يمكن أن يقع فى هذه الحياة يا عزيزى • الشقاء موجود فى كل مكان يا صديقى الطيب ، حتى فى المساكن المذهبة • ما من أحد يستطيع أن يفلت منه • يخيل الىّ ياعزيزى أننى كنت دائما لطيفاً معك ، أليس كذلك ؟

ظل بتروشكا صامتا لا يجيب •

ردد جولياد كين يقول :

ـ لقد كنت لطيفا معك دائما ياعزيزى •• قل لى بالمناسبة ياعزيزى: كم بقى لى من ملابس ؟

ـ ملابسك كلها موجودة : ستة قمصان ، ثلاثة أزواج أجربة ، أربع صدرات ، صديرة من صوف ، وهناك أيضا سروالان داخليان • أنت تعرف هذا كله على كل حال • أما أنا يا سيدى ، فلا آخذ منك شيئا البتة فى يوم من الأيام •• اننى أحافظ على كل ما يخصك •• وبالنسبة اليك يا سيدى •• على كل حال •• من المؤكد •• لست ألوم نفسى على شىء يا سيدى ، لست ألوم نفسى على أى شىء •• أنت تعرف ذلك يا سيدى •

ـ أنا أصدقك يا صديقى ، أصدقك •• ما عن هذا أردت أن أتكلم •• اسمع يا صديقى ••

ـ هذا معروف يا سيدى .. جميع الناس يعـرفونه .. حين كنت فى خدمة الجنرال ستوليبنـاكوف .. كان يمنحنى اجازة كلما ذهب الى ساراتوف التى يملك فيها أطيانا .

ـ لا يا صديقى .. ما عن هذا أريد أن أكلمك .. أنا لا الومك على شىء .. لا تعبىء رأسك هكذا يا صديقى العزيز .

ـ هذا معروف تماما : ان اناسا من طبقتنا يسهل اتهامهم .. انت تعرف ذلك بنفسك يا سيدى .. أما انا فقد ارضيت دائما أسيادى ، وزراء كانوا او جنرالات او اعضـاء فى مجلس الشـيوخ أو كونتـات .. لقد خدمت فى كل مكان : خدمت فى منزل الامير سفنتشاتكين ، وفى منزل الكولونيل بيربوركين ، وفى منزل الجنرال نيدوباروف ، وكان ياخذنى معه الى أملاكه .. هكذا ..

ـ صحيح يا صديقى .. هذا حسن جدا ، حسن جدا . والآن فقد جاء دورى أنا للسفر .. لكل انسان طريقه يا عزيزى ، وما من أحـد يعرف الطريق التى رسمها له القدر . طيب .. ساعدنى الآن فى ارتداء ثيابى يا صـديقى .. ضـع بزتى الرسمية مع باقى الأشياء .. وكـذلك السراويل ، والمفارش ، والأغطية ، والمخدات .

ـ هل يجب أن أجعل هذا كله فى رزمة ؟

ـ نعم يا صديقى ، هذا ما يجب أن تفعله .. تحزم جميع الأشياء فى رزمة . من ذا الذى يعلم ما يخبىء لنا المستقبل ؟ والآن يا صديقى ، انزل فاستدع لى عربة .

ـ عربة ؟

ـ نعم يا صديقى عربة . استأجرها لوقت طويل ، واحرص على أن

تكون العربة واسعة • ولكن اياك أن تذهب بك الظنون يا صديقى الى تصور أشياء •••

ـ هل تسافر الى بعيد ؟

ـ لا أعرف يا صديقى •• حقا لا أعرف •• ومن المستحسن أن تضع فى العربة لحافا • ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أعتمد عليك يا عزيزى •••

ـ أأنت مسافر فورا ؟

ـ نعم يا صديقى نعم ••

ـ أفهمك يا سيدى • فى الكتيبة التى كنت فيها حدثت هذه المغامرة نفسها لملازم أول • خطف ابنة أحد كبار الملاكين •

ـ خطف ؟ ماذا تقول ؟ ولكن يا عزيزى •••

ـ نعم ، خطفها وتزوجا فى أبرشية مجاورة • أعد كل شىء سلفا• ولقد لاحقوهما ولكن الأمير ، نعم الامير المتوفى ، قد تدخل وسوّى كل شىء •

ـ اذن تزوجا •• ولكن كيف علمت يا صديقى الشهم بما عقدت عليه النية ؟

ـ الأمر معروف • الاشاعات تسرى سريعة على هذه الارض • نحن على علم بكل شىء ، نعم بكل شىء •• طبعا ، ما من انسان معصوم من الزلل ، مبرأ من الخطايا •• ولكن يجب أن أقول لك يا سيدى ••• اسمح لى أن أقول لك ، لأننى خادم طيب •• ما دامت الأمور قد وصلت الى هذه المرحلة الآن ، فيجب أن أقول لك يا سيدى ان لك عدوا ، ان

لك منافسا ، نعم يا سـيدى ، ان لك منافسا خطـرا يا سيدى .. نعم يا سيدى .

ـ أعلم ذلك يا صديقى ، أعلم . أنت نفسك تعلم يا صديقى ... طيب .. على كل حال أنا أعتمد عليك . ماذا نفعل الآن يا صـديقى ؟ بماذا تنصحنى ؟

ـ والله يا سـيدى ، أما وقد اخترت هذا الحـل فيجب عليـك أن تشترى أشاء كثيرة .. مفارش ، مخدات ، لحافا آخر لشخصين ، غطـاء جيدا .. وهذه الأشياء كلها تستطيع أن تجدها عند الجارة .. هناك ... تحت .. وعندها أيضا فراء ثعلب جيد . فى وسعك أن تراه وأن تشتريه فورا . ليس عليك الا أن تنزل اليها .. هو معطف جميل مغطى بالساتان وله فروة ثعلب .

ـ طيب طيب يا صديقى ، أنا موافق، وأنا أعتمد عليك اعتمادا كاملا يا صديقى . وأنا موافق أيضا على شراء الفروة يا عزيزى . ولكن أسرع أرجوك ، أسرع ، أسرع؛ أنا مستعد لشراء المعطف، ولكن أسرع أرجوك .. لقد اقتربت الساعة من الثامنة . يجب أن نسرع يا صديقى أرجوك يا صديقى ، أسرع .

ترك بتروشكا كدسة الملابس والأغطية والمخدات وغير ذلك من الأثواب التى كان بسبيل جمعها وهرع يخرج من الغرفة .

وأخرج السيد جولياديكين الرسالة مرة أخرى ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ .

فأمسك رأسه المسكين بين يديه وأسند ظهره الى الحائط شارد اللب. انه لا يستطيع لا أن يفكر ولا أن يقوم بأية حركة . كان لا يدرى هـو

نفسه ماذا يحدث فى نفسه ... فلما لاحظ أخيرا أن الدقائق تجرى ، وأن بتروشكا والمعطف لم يحضرا ، قرر أن ينزل ، ففتح باب المدخل ، فسمع ضجة .. انها أصوات كلام ومناقشة وصياح تحت .. هن الجارات يثرثرن ويعولن ويشتجرن . ان السيد جوليادكين يعرف حق المعرفة بصدد أى شىء كن يختصمن . وسمع أيضا صوت بتروشكا ، ثم سمع وقع خطوات تصعد السلم .

« آه .. يا رب ... يا رب ... لسوف يصعدون الى هنا بالعالم كله .. » كذلك تنهد بطلنا يقول وهو يعض يديه حزنا وكمدا ، ثم أسرع عائدا الى غرفته وارتمى على الديوان دامسا رأسه فى المخدة .

أصبح لا يعرف ماذا يفعل . وظل على هذه الحال دقيقة كاملة ، ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بتروشكا ، فدس قدميه فى جرموقيه وارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه ، وتناول محفظته واندفع يهبط السلم ، فلما صادف بتروشكا على السلم تمتم يقول له : « لست فى حاجة الى شىء يا عزيزى . سأفعل كل شىء بنفسى . لست فى حاجة اليك الآن . مايزال يمكن أن يسوى كل شىء على خير وجه ... » . ووصل الى فناء المنزل ، وأسرع الى الشارع . كان قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان .. وهو ما يزال مترددا : ما عساه يصنع ؟ ما الذى يجب عليه أن يقرره ؟ على أى شىء يجب أن يعقد عزمه فى هذه اللحظة الحاسمة ؟ وصاح أخيرا يقول وقد استبد به الكمد واليأس : « ماذا يجب أن أفعل ؟ لكأنه لم يكن فى الامكان الاستغناء عن هذا كله ! .. »

كان ما يزال يجرى قدما بخطى قصيرة لا يلوى على شىء . وتابع يخاطب نفسه : « نعم .. ما كان أغناني عن هذا كله ! لولا هذه القصة ، نعم لولا هذه القصة لكان يمكن أن يسوى كل شىء ... كان يمكن أن

يسوى كل شيء دفعة واحدة ، كان يمكن أن يسوى كل شيء بضربة قوية محكمه واحدة .. قطعت يدى اذا لم يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء ، وانا اعرف حق المعرفه كيف كان يمكن ان يسوى عندئذ كل شيء . كنت سانفرد بهذا الرجل فاقول له : « اسمح لى أن أصرح لك ياسيدى .. أن المرء ، على وجه العموم ، نعم على وجه العموم ، لايتصرف هكذا .. نعم يا سيدى نعم .. ما من أحد يتصرف هذا التصرف . الاغتصاب لا ينجح هنا .. وأنت امرؤ محتال دجال يا سيدى ، أنت رجل لا قيمة له ولا فائدة منه للوطن . نعم ، هل فهمت هذا الكلام ؟ وكان فى وسعى أن أضيف الى ذلك ... ولكن فيم أضيف الى ذلك شيئا .. ذلك كل شيء . ماذا أقول ؟ يا لى من أبله ! يا لى من أبله ؟ أأكون اذن قاتل نفسى ؟ لا لا .. بلى بلى .. انت امرؤ مستهتر .. ما العمل الان ؟ ما عساى أصبح ؟ لأى شيء أصلح ؟ نعم ، لأى شيء تصلح يا جولياداكين؟ ياجولياداكين الدنيء ! والآن ؟ يجب استئجار عربة . لقد طلبت منى عربة . اذن لا بد أن تكون العربة مهيأة . فاذا لم يكن هنالك عربة تبللت أقدامنا الصغيرة ؟ من ذا الذى كان يمكن ان يتصور هذا ؟ آه ... يا آنسة .. يا آنسة .. ان سلوكك مشين .. ان سلوكك معيب .. ما هذا كله الا ثمرة تربية سيئة .. نعم لقد فهمت كل شيء منذ رأيت ما يجرى .. لا شك فى أن هذا كله نتيجة مباشرة لتربية غير أخلاقية .. كان ينبغى أن تستعمل معها الشدة والقسوة منذ طفولتها .. وكان لابد لها من سوط تجلد به من حين الى حين .. ولكنهم بدلا من ذلك كانوا يحشون فمها بأنواع المربيات والحلوى ! .. وهذا العجوز الذى لا ينفك يتباكى أمامها ويقول لها : آه يا حبيبتى الغالية .. انك فى غاية اللطف والظرف ، انك فى غاية الحسن والجمال .. يمينا لأزوجنك بكونت ...» وها هى ذى الآنسة تخرج من الظل وتلقى بأوراقها قائلة : اليكم لعبتى

ايها السادة ، فاعجبوا بى ما شاء لكم أن تعجبوا .. انهم بدلا من أن يلزموها البيت وضعوها فى مدرسة داخليه لدى امرأة فرنسية ، مهاجرة، امراة لا يعرف لها أصل يقال لها مدام فالبالا .. فلا غرابة اذا هى لم تسر فى الطريق القويم ! انحنوا لها أيها الناس ! وما هى النتيجة ؟ هى ما ترون : « انتظرنى فى عربة ، فى الساعة كذا ، تحت نوافذ بيتنا ، وأنا أعتمد عليك لتغنى لى أغنية عاطفية اسبانية ... انى أنتظرك . أنا أعرف انك تحبنى . سوف نمضى معا . سوف نعيش فى كوخ ... »

« ولكن هذا مستحيل .. نعم يا سيدتى ، هـذا مستحيل استحالة مطلقة .. هذا شىء تمنعه القوانين .. ليس من حق انسان أن يختطف فتاة عفة طاهرة من بيت أبيها دون موافقة أهلها. وفيم هذا على كل حال؟ فيم هذا ؟ ما كان عليك الا أن تتزوجى الرجـل الذى هيـأه لك القدر وكفى ! أنا ... ماذا أنا ؟ أنا موظف .. وأنا مهدد بفقد وظيفتى بسبب ذلك كله . نعم يا آنسـة .. انى أعـرض نفسى للمثـول أمام المحاكم بسببك . فاعلمى هذا يا آنسة .. ان الألمانية هى التى تدبر هذه المكائد .. كل المصائب مصدرها هذه الألمانية الشمطاء .. انها هى التى تضـع النار فى البارود . يشون بانسان ، ويسلطون عليه أقاويل ثرثارة نمامة بايعاز من آندره فيليبوفتش ، وتنجح المكيدة . لولا أن الألمانية وراء هذا كله ، أكان يتدخل بتروشكا فى هذه القضية ؟ ما شأنه فى هذا الأمر ؟ ما علاقته بهذه المسألة ، هذا الوغد الحقير ؟! .. لا يا آنسة ، لا أستطيع أن أفعل فى سبيلك شيئا ، لا أستطيع قطعا ! .. معذرة هذه المرة يا آنسة .. أرجو أن تسامحينى .. والحق أنك أنت سبب البلاء كله ، يا آنسة، لا الألمانية ! أنت سبب البلاء رأسا . الألمانية الساحرة امرأة طيبة ، الألمانية الساحرة بريئة من الذنب آنسة .. هذه هى الحقيقة . أنت وضعتنى فى أسوأ ورطة آنسة .. رجل أصبح من ضياعه قاب قوسين .. انه يهـوى

الى العدم .. ولا يملك أن ينقذ نفسه .. ثم تجيئن أنت تحدثينه عن زواج . كيف يمكن أن ينتهى هذا كله ؟ كيف يمكن ان يسوى هذا كله ؟ ليتنى أعلم ذلك ... » .

وفيما كان جولياداكين يستطرد على هذه الصورة وقد استبد به الحزن والكمد ، عاد فجأة الى الواقع ، فلاحظ أنه قد أصبح فى شارع ليتانيايا . كان الجو رهيبا : مطر وثلج وجليد يذوب . كل شىء يشبه تماما تلك الليلة التى لا تنسى ، تلك الليلة التى بدأت فيها جميع مصائب بطلنا فى الظلام . وراح السيد جولياداكين يجتر خواطره : « الزواج ؟ ألا انها نهاية العالم .. أين عساى واجدا عربة ؟ ها .. هاهى ذى عربة ... هناك عند الناحية فيما أظن .. فلأذهب الى هناك لأرى عن كثب . آه .. يارب يارب ! .. » .

اتجه السيد جولياداكين بخطاه المترنحة صوب ناصية الشارع ، حيث حسب أنه أبصر عربة . قال لنفسه : « لا لا .. هذا ما يجب أن أفعله : سأذهب الى هناك ، فأخر ساجدا عند قدميه ، قائلا له : أنظر الى حالتى .. اننى أضع مصيرى بين يديك ، بين يدى رؤسائى .. أتوسل اليك يا صاحب السعادة ، أناشدك الله أن تدافع عنى ، أن تحمينى . هذه هى المسألة .. فعلٌ يحرمه القانون .. لا تتركنى .. لا ترهقنى .. اننى ألجأ اليك كما يلجأ ابن الى أبيه .. أنقذ كرامة انسان شقى ، وشرفه وسمعته . انقذنى من هذا الرجل العاتى المنحط الذى لا خلاق له . نحن ، أنا وهو ، شخصان اثنان يا صاحب السعادة .. هو يعيش على هواه ، وأنا من جهتى أحيا حياة بسيطة هادئة يا صاحب السعادة لا أسىء الى أحد ولا أوذى أحدا ، أؤكد لك يا صاحب السعادة أننى لا أنال أحدا بسوء قط .. أنا لا أشبهه ، أنا لا يمكن أن أشبهه ! فأضرع اليك يا صاحب السعادة ، رحماك يا صاحب السعادة ، غيرّ لى وظيفتى فتنتهى

هذه المشكلة ، ينتهى هذا الاحتيال الوقح وهذا الاغتصاب الدنىء .. حتى لا يكون هذا قدوة سيئة للآخرين يا صاحب السعادة . انني أعدك أبا يا صاحب السعادة . ان الرؤساء الذين يملكون صدرا رحبا وذمة سامية لا بد أن يشجعوا مثل هذه المبادرات . بل ان فى مبادرتى هذه لروحا فروسية . انني أتوجه اليه كتوجهى الى أب .. أضع مصيرى بين يديه ، وأعده بأن لا أعترض على ما يتخذه من قرار ، أنصاع لارادته وأمحى أمامه .. هذه هذه المسألة .. » .

ـ قل لى يا عزيزى .. أأنت حوذى ؟

ـ نعم .

ـ أأنت حر طوال السهرة ؟

ـ هل المسافة طويلة ؟

ـ أنا أستأجر العربة للسهرة ، للسهرة كلها . لا تسأل عن المكان الذى أقصد اليه . ليس لهذا من قيمة .

ـ هل فى نيتك الخروج من المدينة ؟

ـ نعم يا صديقى . هذا ممكن . لا أدرى أنا نفسى بعد . لا أستطيع أن أقطع بذلك يا عزيزى . ومن الممكن أن يسوى كل شىء على خير وجه يا صديقى الشهم . وهذا أفضل يا صديقى .

ـ طبعا هذا أفضل يا سيدى . أنا أتمنى ذلك لجميع الناس .

ـ هو كذلك يا صديقى ، هو كذلك . شكرا يا عزيزى . فما هو الأجر الذى تطلبه يا صديقى الطيب ؟

ـ أأنت مسافر حالا ؟

ـ نعم حالا . أقصد ... سوف نذهب أولا الى مكان ما ننتظر فيه

برهة .. يجب أن ننتظر برهة .. برهة قصيرة يا عزيزى ..

ـ اذا كنت تكترى العربة لليلة كلها، فالأجر ستة روبلات• يستحيل أن أرضى بأقل من هذا فى مثل هذا الجو •

ـ طيب طيب يا صديقى • اتفقنا• وساعطيك مكافأة أيضا ياعزيزى• طيب • والآن هيا بنا يا صديقى •

ـ اجلس .. بل انتظر لحظة • سارتب بعض الترتيب • هه ... تفضل بالجلوس الآن ! الى أين تأمر بأن آذهب بك ؟

ـ الى جسر اسماعيلوفسكى يا صديقى •

صعد الحوذى الى مقعده ، ولكز الحصانين اللذين لم يمكن انتزاع كيس العلف منهما الا فى عناء • وانجهت العربه صوب جسر اسماعيلوفسكى • ولكن السيد جولياد دين لم يلبث أن شد الحبل فجاة ، واستوقف الحوذى وطلب اليه بصوت ضارع ان ينثنى الى وراء وأن يقوده الى عنوان آخر عينه له • دار الحوذى • وبعد دقيقتين كانت العربة تقف أمام العمارة التى يسكن بها صاحب السعادة • نزل السيد جولياد كين وطلب من الحوذى بكثير من الالحاح ، أن ينتظره • ثم اندفع خافق القلب يصعد السلم • فلما وصل الى الطابق الأول ، شد حبل الجرس ، ففتح الباب ، ووجد بطلنا نفسه فى حجرة المدخل •

ـ هل صاحب السعادة فى البيت ؟

كذلك سأل السيد جولياد كين الخادم • فأجابه الخادم وهو ينظر اليه من قمة رأسه الى أخمص قدميه :

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ انما جئت يا صديقى من أجل ... أنا اسمى جولياد كين .. آنا

موظف ، نعم ، أنا الكاتب جولياداكين جئت لأشرح لصاحب السعادة بعض الأمور ...

ـ انتظر لحظة . صاحب السعادة مشغول .

ـ ولكننى لا أستطيع الانتظار يا صديقى . المسألة هامة لا تحتمل أى تأخير .

ـ من أرسلك ؟ هل تحمل أوراقا ؟

ـ لا ياصديقى ، فانما جئت فى زيارة شخصية ... أبلغ صاحب السعادة أننى جئت لشرح بعض الأمور . وسأكافئك يا صديقى ...

ـ مستحيل . لقد مُنعت من ادخال أى انسان . هناك ضيوف . ارجع غدا فى نحو الساعة العاشرة .

ـ أبلغ عنى يا صديقى .. اننى لا أستطيع الانتظار ، فان لم تبلغ عنى كنت مسئولا .

، هيا أبلغ عنه . ماذا يمنعك من ذلك ؟ أأنت خائف على نعليك أن يهترئا ؟

كذلك صاح خادم آخر كان غائصا فى أحد المقاعد ، ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة .

ـ المسألة مسألة نعلين حقا ! أنت تعلم أننى مُنعت من ادخال أحد . لا يستقبل أحد الا فى الصباح .

ـ هيا أبلغ عنه . أأنت خائف أن تبلع لسانك ؟

ـ طيب سأبلغ عنه . ولن أبلع لسانى . ولكننى قلت لك اننى مُنعت من ادخال أى انسان ، مُنعت من ذلك منعا باتا . تعال . ادخل الى هنا .

دخل السيد جولياداكين الى الحجرة المجاورة • وكان على المنضدة ساعة يشير عقربها الى الثامنة والنصف • خفق قلب السيد جولياداكين • حتى لقد همَّ أن يخرج ، ولكن الخادم كان قد وقف على عتبة قاعة الاستقبال ، وصاح يعلن بأعلى صوته :

« السيد جولياداكين » • قال بطلنا يخاطب نفسه وقد تملكه خوف شديد :

« ما هذا الصوت ؟ ألم يكن في وسعه أن يبلغ عني خفية ؟ لقد كان يمكنه أن يقول : ان هذا الرجل يا صاحب السعادة جاء يشرح بعض الأمور متذللا متوسلا •• فهلا تفضلت باستقباله •• أما الآن فان الأمور تجرى مجرى سيئا • لقد غرقت قضيتي في الماء ••• على كل حال ، ليس هذا بشيء ••• » • غير أن أوان التفكير قد فات • فهذا هو الخادم يعود فيقول لبطلنا : « أدخل » ، ثم يدخله الى صالون صاحب السعادة •

شعر بطلنا وهو يدخل أنه أصبح أعمى • فهو لا يرى شيئا • كل ما هنالك أنه أبصر قامتين أو ثلاثاً أمام عينيه • قال لنفسه : « هؤلاءضيوف ولا شك • » • واستطاع أخيرا أن يميز نجمة على رداء الفراك الأسود الذى كان يرتديه صاحب السعادة • وبعد رؤية النجمة ، رأى الرداء • وأخيرا عادت الى بطلنا قدرته على الابصار •••

ـ ماذا هنالك ؟

كذلك سأل صوت يعرفه السيد جولياداكين جيدا •

ـ أنا الكاتب جولياداكين يا صاحب السعادة •

ـ وبعد ؟

ـ جئت لأشرح أمرى ؟

ـ كيف .. ماذا ؟

ـ جئت لأراك وأشرح لك أمرى يا صاحب السعادة .

ـ ولكن من أنت ؟

ـ أنا جولياداكين يا صاحب السعادة ، كاتب فى الادارة .

ـ طيب .. وماذا تريد ؟

ـ المسألة يا صاحب السعادة أننى أعدك أبا . أنا لن أثبت وجودى ، أنا سأنسحب . فاحمنى أنت من أعدائى يا صاحب السعادة . هذه هى المسألة .

ـ ما هذا الذى تقوله ؟

ـ أصبح معروفا ...

ـ ما الذى أصبح معروفا ؟

صمت بطلنا . وأخذت ذقنه ترتجف .

سأله صاحب السعادة :

ـ وبعد ؟

ـ كان قصدى أن أقوم بمبادرة فروسية يا صاحب السعادة . أنا أرى من الفروسية أن يعد المرء رئيسه أبا له ... فأنا أرجوك أن تحمينى .. أتوسل اليك ضارعا ذليلا .. ان بادرات من هذا النوع لابد أن تشجع... أن تشجع ...

أشاح صاحب السعادة وجهه عنه. اضطربت عينا بطلنا برهة. اختنق صدره . أخذ يلهث . بل أصبح لا يعرف أين هو .. كان يشعر بالخجل

والنهار • لقد صعق وانهار •• والله وحده يعلم ماذا حدث بعد ذلك • فلما ثاب بطلنا الى رشده سمع صوت صاحب السعادة يتكلم • كان صاحب السعادة يكلم ضيفين من ضيوفه فى حرارة وحماسة • وسرعان ما عرف السيد جولياد كين أحد الضيفين : انه آندره فيليبوفتش • ولكنه لم يستطع ان يتعرف الثانى • ومع ذلك فقد بدا له وجهه مالوفا معروفا • انه فارع القامة ، بدين الجسم • وهو يبدو متقدما فى السن • وله حاجبان كثيفان• نظرته قاسية معبرة • وهو يحمل وساما يتدلى من عنقه • كان يدخن سيجارا • السيجار لا يترك فمه • وكان هذا الرجل المجهول يهز رأسه فى وقار وهو يلقى على بطلنا نظرة من حين الى حين • شعر السيد جولياد كين بارتباك شديد • حول عينيه ، فسرعان ما لمح ضيفا آخر عجيبا• ففى فرجة الباب التى كان السيد جولياد كين قد حسبها مرآة حتى ذلك الحين ، تماما كما حدث له ذلك فى المطعم ، ظهر الرجل المعروف جيدا ، الصديق الحميم للسيد جولياد كين • كان الدجال قد مكث حتى ذلك الحين فى حجرة صغيرة مجاورة ، يكتب تقريرا على عجل • كانوا فى حاجة اليه ما فى ذلك ريب ••• وها هو ذا يجىء الآن • انه يحمل ملفا تحت ابطه• اقترب من صاحب السعادة ؛ وبانتظار اللحظة التى يلفت فيها أنظار المتخاطبين اليه ، انضم الى الجماعة بمهارة كبيرة • وقف وراء آندره فيليبوفتش تماما ، الى جانب الرجل المجهول الذى يدخن السيجار • كان يبدو على السيد جولياد كين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير • لقد اتخذ وضعا مناسبا ، فهو يهز رأسه علامة الموافقة والتأييد ، ويحرك قدميه ويبتسم ولا يتحول ببصره عن صاحب السعادة ؛ وكأنه يتوسل اليه أن يتيح له ، هو أيضا ، أن يقول كلمة • فال السيد جولياد كين بينه وبين نفسه وهو يتقدم خطوة الى أمام دون أن يشعر : « يا للجبان ! » • وفى

هذه اللحظة نفسها ، التفت صاحب السعادة ، واتجه نحو بطلنا • كان يبدو مترددا بعض التردد •

« طيب ، طيب ، انصرف الآن ، والله يرعاك • سأدرس حالتك ، وسآمر بأخذك الى ••• » • قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة ذات دلالة• فرد الرجل على النظرة بحركة من رأسه علامة التأييد. أدرك السيد جولياديكين رأسا أنهم أخطأوا فى معرفة شخصه ، وأنهم يعاملونه معاملة غير لائقة به • قال لنفسه : « لا بد لى من أن أشرح أمرى بطريقة من الطرق • يجب أن أقول له : يا صاحب السعادة ••• اليك المسألة ! » • ولكنه تحير وطاش صوابه فغض بصره ، فما كان أشد دهشته حين لاحظ على كل حذاء من حذاءى صاحب السعادة بقعة بيضاء• قال لنفسه : « هل يعقل أن يكون حذاءا صاحب السعادة ممزقين ؟ » • ولكنه لم يلبث أن أدرك أن ما حسبه بقعة لم يكن فى حقيقة الأمر الا تلألؤا • فان الحذائين الملمعين بالشمع كانا يتلألآن تلألؤاً ساطعا ، وذلك هو سبب خطأ السيد جولياديكين • قال بطلنا لنفسه : « هذا ما يسمى حقا بالبريق • ان الكلمة مستعملة كثيرا فى ورشات التصوير • أما فى غير ورشات التصوير فيستعمل اصطلاح آخر ••• » •

رفع السيد جولياديكين عينيه ، فأدرك أن عليه أن يتكلم بأقصى سرعة ، والا فان الأمور ستجرى مجرى سيئا ••• فتقدم خطوة الى أمام •

ـ اليك المسألة يا صاحب السعادة ، يجب أن أقول لك •• ما من أحد يستطيع فى أيامنا هذه أن يصل الى شىء بالاحتيال والاغتصاب !

لم يجب الجنرال ، واكتفى بأن شد حبل الجرس شدا قويا • فتقدم بطلنا خطوة أخرى الى أمام •

ـ انه رجل جبان لا خلاق له يا صاحب السعادة •

كذلك قال السيد جولياداكين وهو يختنق خوفا وذعرا ، ولا يدرى ماذا يصنع • وفى الوقت نفسه أومأ باصبعه الى سميّه الذى كان يدور حول الجنرال •

ـ نعم يا صاحب السعادة ، انني أقصد بهذا الكلام شخصا تعرفه••

قامت جلبة عامة شاملة • حرك أندره فيليبوفتش والرجل الذى يدخن السيجار رأسيهما • أمسك صاحب السعادة بحبل الجرس يشده ثم يشده ، وينادى الخادم بلهجة صارمة •

وفى الوقت نفسه تقدم السيد جولياداكين الأصغر وقال : «يا صاحب السعادة ، أتوسل اليك متذللا أن تسمح لى بأن أتكلم » • كانت لهجته قاطعة جازمة • لا شك أن هذا الرجل كان يحس أنه يتصرف تصرفا هو حق من حقوقه •

وقال متجها بالكلام الى بطلنا ، مستبقا جواب الجنرال :

ـ اسمح لى أن أسألك : أأنت تعرف فى حضرة من تتكلم هذا الكلام ؟ أأنت تعرف أمام من تقف الآن ، وفى غرفة من توجد الآن ؟

كان الدجال يبدو منفعلا انفعالاً شديدا • ان وجهه المحمر يشتعل استياء وحنقا وغيظا • حتى لقد ظهرت فى أهدابه دموع •

صاح الخادم ملء حنجرته وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن وصول ضيفين : «السيد والسيدة باسافريوكوف»• فقال السيد جولياداكين لنفسه : « اسم جميل • هى أسرة نبيلة من الأسر الروسية » • وفى تلك اللحظة نفسها شعر بيد تحط على كتفه وتضغط عليها بمودة وصداقة • وما هى الا لحظة حتى كانت يد أخرى تحط على ظهره • كان المحتال

الوقح يتحرك أمامه مشيرا للخادمين الى الطريق التى كانا يدفعان فيها بطلنا. أدرك السيد جولياديكين أنه يقاد نحو أبواب الصالون. قال لنفسه: « هذا عين ما حدث عند أولسوفى ايفانوفتش » . كان قد وصل الى الدهليز . التفت فرأى الى جانبه خادمين من خدم صاحب السعادة و«مثله» الحقير الذى كان يزقزق قائلا : « المعطف ، المعطف ، هاتوا معطف صديقى ، معطف خير صديق لى . » . وانتزع المعطف من يدى الخادم، فرماه من قبيل المزاح ، المزاح الدنىء الجبان ، على رأس بطلنا . وسمع السيد جولياديكين ، بينما كان يحاول التخلص من المعطف ، سمع قهقهات الخادمين تدوى واضحة متميزة . ولكنه أصبح لا يحب أن يسمع شيئا ، وأصبح لا يولى ما يجرى حوله أى انتباه . خرج من الدهليز ، ووجد نفسه على السلم المضاء . وتبعه « مثله » يصيح وراءه :

ـ الى اللقاء يا صاحب السعادة .

ـ جبان ...

كذلك جمجم السيد جولياديكين .

ـ فلنسلم بأننى جبان .

ـ فاجر عاهر .

ـ فلنسلم بأننى فاجر عاهر ...

بهذا أجاب العدو اللدود الدنىء بطلنا المحترم ، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرة تفيض غطرسة على عادته . انه يتفرس فيه دون أن يتحرك ، محدقا الى عينيه ، كأنه يريد بوضعه هذا أن يتحداه وأن يستفزه . فما كان من بطلنا الا أن بصق احتقارا واستياء ، وأسرع يهبط السلم ، وخرج الى درجات الباب .

كان قد بلغ من الانهيار والانعدام أنه لم يشعر كيف ركب العربة ، ولا عرف من الذى ساعده فى ركوبها .

فلما عاد الى رشده ، لاحظ أن العربة تسير على طول نهر فونتاكا، قال لنفسه: « لا شك أن الحوذى يقودنى الآن الى جسر اسماعيلوفسكى». وأراد بطلنا فى هذه اللحظة أن يفكر فى شىء ما ، ولكنه لم يستطع . وكان هذا الشىء مع ذلك أمرا رهيبا لا يتصوره عقل . فما كان منه الا أن خلص من ذلك كله الى أن قال : « لا ضير .. لا بأس .. » . وترك للحوذى أن يقوده نحو جسر اسماعيلوفسكى .

الفصل الثالث عشر

يبدو أنه سيتحسن. فالثلج المبتل الذى كان يهطل غزيرا حتى ذلك الحين أصبح نادرا شيئا بعد شىء، ثم لم يلبث ان انقطع عن الهطول انقطاعا تاما. وأصبح المرء يستطيع أن يرى السماء التى تتلألأ فيها بضع نجوم هنا وهناك. كل ذلك كان يرهق السيد جولياد كين الذى لايكاد يستطيع أن يتنفس. ان معطفه المبتل يثقل على كتفيه ويبدو انه يبلل أعضاءه برطوبة فاترة؛ وساقاه المتعبتان تنثنيان تحت وطأة ملابسه المبتلة. ورعشات حمى تسرى فى جسمه كله كأنها بعوض ظامىء كاو. وجسمه المنهد يفرز عرقا باردا مرضيا. وقد بلغ بطلنا من الكمد أنه نسى أن يردد جملته الأثيرة بذلك الحزم القوى المعهود: «ما يزال فى الامكان أن يسوى كل شىء على خير وجه.» ومع ذلك استطاع بطلنا أن يتغلب على انهياره وأن يحتفظ بشجاعته فعاد يقول مدمدما: «حتى الآن ليس لهذا كله من قيمة». ومسح وجهه الذى تسيل عليه قطرات الماء

منهمرة فى كل اتجاه من قبعته المدورة التى بلغت من الابتلال أنها أصبحت لا تستطيع ان تحجب المطر • « ليس لهذا كله من قيمة » • كذلك ردد بطلنا القول • وجلس على قطعة ضخمة من الخشب كانت قرب كومة من الحطب فى فناء العمارة التى يسكنها أولسوفى ايفانوفتش • لم يبق مجال الآن لاغنيات غرامية اسبانية يحلم بها بطلنا • فانما هو يبحث الآن عن ركن صغير مريح بعض الشىء ان لم يكن دافئا جدا ، ركن صغير مظلم يعتصم به • ولنقل عابرين انه كان يغريه كثيرا أن يكون الآن فى تلك الزاوية الصغيرة من دهليز سلم الخدم ، التى لطا فيها قرابة ساعتين ، فى أولى مغامراته ، بين خزانة الملابس والحواجز العتيقة ، وسط أكوام من الأسمال والثياب الرثة والخرق البالية •

ولنذكر أن السيد جولياديكين ينتظر ههنا منذ أكثر من ساعتين ، فى فناء المنزل الذى يسكنه أولسوفى ايفانوفتش • ولنذكر أيضا أن الركن الصغير المريح الذى سبق أن لطا فيه يشتمل الآن على عيوب لم يكن يشتمل عليها فى الماضى • أول هذه العيوب أنه قد لوحظ واكتشف حتما ، فلا بد أنه محروس حراسة جيدة منذ الفضيحة التى وقعت ليلة الحفلة الراقصة • والثانى أن التجاء بطلنا الى ذلك الركن يبعده عن المكان الذى يجب عليه أن يبقى فيه انتظارا للاشارة التى ستأتى من كلارا أولسوفيفنا•

كان بطلنا على يقين من أنها ستنبهه باشارة ما • ذلك محقق لا ريب فيه : « ثم اننا لسنا من أثار هذه القضية كلها ، ولسنا من يجب عليه أن يختمها • » • قال السيد جولياديكين ذلك لنفسه ثم تذكر جزءا من رواية كان قد قرأها منذ زمن طويل ، وفى ذلك الجزء كان الاتفاق بين بطلة الرواية وحبيبها « ألفرد » ، فى ظروف مماثلة لهذه الظروف مماثلة تامة، أن تنبهه باشارة هى شريط وردى اللون تعلقه على النافذة • أما اليوم ،

فى الليل ، مع هذا الظلام وهذه الرطوبة فى جو سان بطرسبرج ، فليس شريط وردى اللون باشارة مناسبة ، لذلك ليس على بطلنا ان يتوقع ان يرى شريطا وردى اللون تعلقه حبيبته على النافذة بمثابة اشارة • قال بطلنا لنفسه : « الافضل ان الطو فى ركن من الفناء مظلم مختف ••• » واعتصم فعلا فى ركن من الفناء يقع امام النوافذ قرب كومة من الحطب • لا شك أن حركة الذهاب والاياب لا تنقطع فى هذا الفناء : فثمة حوذيون وخدم يتجولون وسط صرير العجلات وصهيل الخيول ••• ولكن المكان مريح مع ذلك • كان السيد جولياديكين قابعا فى الظل ، وليس يهمه كثيرا أن يلاحظه أو أن لا يلاحظه حوذيون • كان يستطيع أن يرى كل شىء فى المنزل ، دون أن يراه من أهل المنزل أحد • النوافذ تسطع بالأنوار • لا شك أن فى منزل أولسوفى ايفانوفتش سهرة كبرى • ومع ذلك لا تسمع موسيقى • « ما هى حفلة راقصة ، بل اجتماع من نوع آخر » ؛ كذلك قال بطلنا لنفسه قلقا • ثم تساءل : ولكن هل الموعد المضروب هو هذه الليلة ؟ أليس ثمة خطأ فى يوم الموعد ؟ ذلك جائز • كل شىء جائز ••• وأغلب الظن أن ماحدث هو التالى : 'كتبت الرسالة وأرسلت أمس ، ولكننى لم أستلمها الا اليوم ، بسبب اهمال بتروشكا ، هذا الوغد الدنىء ••• أو لعل الرسالة كتبت غدا ••• أقصد أن الموعد حدد للغد •• فكان علىَّ أن أجىء أنتظرها مع العربة غدا •• » •

تجمد الدم فى عروق السيد جولياديكين حين تصور هذا الاحتمال• ومن أجل أن يتحقق من صدق الافتراض دس يده فى جيبه • فما كان أشد دهشته حين لم يجد فيها الرسالة ! ••• تمتم بطلنا يقول وقد كاد ينهد : « ماذا جرى ؟ أين عسانى وضعتها ؟ أترانى أضعتها ؟ » ثم أضاف متنهدا : « آه •• هذا ما كان ناقصا ! •• وما عسى يحدث لو وقعت فى أيدى أعدائى ؟ لعلها وقعت فى أيديهم وانتهى الأمر ! آه ••• يارب !••

ما الذى سيقع ؟ لسوف يكون هذا فضيحة فظيعة ! آه .. يا للشقاء ... يا للشقاء الرهيب ! ... » . وسرعان ما خطر بباله « مثله » ، فأخذ يرتعش كورقة فى مهب الريح . لعل عدوه الدنىء ، حين رمى معطفه على رأسه ، قد انتهز فرصة اضطرابه ليسرق الرسالة التى تسرب اليه نبأها بواسطة أعداء السيد جولياديكين .. قال بطلنا لنفسه : « لا سيما وأنه ألف أن يستولى على الأدلة ... ولكن فيم الأدلة ؟ ... » . وبعد أن انتابته نوبة أولى من الذهول والرعب ازدحم الدم قويا عنيفا فى رأس بطلنا . فأطلق صرخة من بين أسنانه ، وأمسك رأسه المحترق بيديه ، وتهاوى على قطعة الخشب الضخمة . وغرق فى التأمل .. دون أن يصل الى تركيز أفكاره . ان وجوها كثيرة تتخاطر الآن أمام عينيه ، غامضة تارة واضحة تارة أخرى ... وأخذت تتخاطر أمام بصره كذلك أحداث كان قد نسيها منذ زمان طويل ، وأخذت تتوافد على ذاكرته ألحان بعض الأغانى التافهة .. كان فى ذروة الخوف والقلق ، كان فى حالة من الخوف والقلق لا سبيل الى وصفها . « آه ... يارب ، يارب ! » كذلك أخذ بطلنا يردد ، عائدا الى رشده ، خانقا نشيجا قويا فى حلقه : « يا رب .. يارب ، هب شيئا من القوة والعزيمة لروحى الغارقة فى هوة من الشقاء ليس لها قرار ! لقد ضعت ، لقد تلاشيت ، ما فى ذلك ريب . هذا من طبيعة الأمور . لا يمكن أن يكون الأمر على غير هذا النحو . لقد فقدت وظيفتى .. فقدتها حتما .. ما كان يمكن الا أن أفقدها . طيب ... فلنفرض الآن أن الأمور يمكن أن تسوى بطريقة من الطرق .. لنفرض أن ما أدخره من مال يكفينى للايام الأولى .. سيكون علىّ أن أستأجر مسكنا آخر ... ولن أستطيع الاحتفاظ ببتروشكا ... طيب .. فى وسعى أن أستغنى عن هذا الوغد .. سأستأجر غرفة لدى بعض الناس.. ذلك أمر يمكن تدبيره .. وسأستطيع أن أخرج وأن أعود متى شئت .

لن يكون هناك بتروشكا الذى يصعر لى وجهه اذا رجعت فى ساعة متأخرة. هذا ميزة من ميزات السكنى عند آخرين • ذلك شىء معروف • طيب • فلنقل اذن أن الأمور حسنة هكذا • ولكننى ما زلت أتكلم فى شىء آخر، فى شىء آخر تماما ••• » • فى هذه اللحظة برقت فى ذهنه صورة وضعه الراهن • فنظر حواليه ، فأخذ يئن قائلا : « آه ••• يا رب ، يا رب ! آه •• يا رباه ! ولكن فيم كنت أفكر منذ هنيهة ؟ » • كذلك سأل بطلنا نفسه مرهقا متحيرا ، وهو يضغط بيديه رأسه المحموم •

خاطبه صوت من فوقه يقول :

ـ هل فى نيتك أن تمضى قريبا ؟

فارتعش السيد جولياديكين ، ورفع عينيه ، فرأى أمامه الحوذى • كان الحوذى مبللا هو أيضا حتى العظام ، مرتعد الفرائص • لقد دفعه نفاد الصبر وفراغ الوقت الى أن يلقى نظرة على السيد جولياديكين القابع وراء كومة الحطب •

ـ لا أعرف لا صديقى •• أنوى أن أمضى بعد قليل ، نعم ، بعد قليل ، يا صديقى •• ولكن عليك بشىء من الصبر ••

انسحب الحوذى وهو يدمدم بكلام بين أسنانه • فسأل بطلنا نفسه دامع العينين : « ما له يتململ ؟ لقد استأجرت عربة للسهرة بطولها ••• ويخيل الى أننى لا أتعدى حقوقى ••• أليس كذلك ؟ لقد استأجرته للسهرة كلها وكفى ! ••• والأجر واحد سواء أبقى هنا أم مضى بى الى مكان آخر •• ذلك رهن بارادتى • أنا حر •• اذا شئت مضيت واذا شئت لبثت هنا وراء كومة الحطب •• وهذا لا يعنيك •• ليس من حقك أن تحتج • مولاك يريد أن يبقى هنا وراء كومة الحطب ••• فليبق ما شاء له هواه أن يبقى ••• انه لا يجور على حقوق أحد • نعم •• نعم ••

تماما ... يجب أن يكون هذا ماثلا فى ذهنك يا آنسة ... أما الكوخ فاعلمى يا انسة أنه ما من أحد يسكن أكواخا فى هذا الزمان • اعلمى هذا • واعلمى أيضا ان التخلى عن الاخلاق لا حظ له من النجاح فى عصر النور الذى نعيش فيه • وأنت فيه مثال على ذلك ... انت على ذلك مثال محزن • لقد قدرت الآنسة أننى ساعمل فى أحد المكاتب ، وأننا سنعيش على شاطىء البحر •• فاعلمى اذن يا آنسة أنه ما من مكاتب على شاطىء البحر •• أما أن تجعلى منى رئيسا فذلك أمر يجب أن لا نفكر فيه • طيب •• لنتصور مثلا أننى تقدمت بطلب ومضيت أقول :

« اليك هذا الطلب يا سيدى ، فعينّنى رئيس مكتب •• واحمنى من أعدائى » • طيب يا آنسة لسوف يكون الجواب هو التالى : « عندنا عدد كاف من رؤساء المكاتب هكذا • » • وأما أنت يا آنسة فلست الآن عند مدام فالبالا الذى كانت تلقنك دروسا فى الأخلاق أنت الآن خير مثال حى محزن عليها •• الأخلاق تقضى يا آنسة أن تبقى فى المنزل يا آنسة ، وأن تشرفى أباك وأن لاتتسرعى فى نشدان الزواج • سيبحث لك عن خطيب متى آن الآوان • يجب أن تعرفى هذا • طبعا يجب على الفتاة أن تنمى بعض المواهب • من المستحسن أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو ، وأن تتكلم الفرنسية ، وأن تعرف التاريخ والجغرافيا بعض المعرفة ، وأن تعرف تاريخ الكنيسة وأن تتعلم الحساب ـ هذا أمر لا جدال فيه ... ولكن لا ينبغى للفتاة اكثر من ذلك •• ها •• هناك أيضا مسألة المطبخ • ان فن المطبخ يجب أن يكون جزءا من تربية كل فتاة لائقة • والآن فلنعد الى مشروعنا • أولا لن يدعوا لك أن تسافرى يا آنستى الجميلة • واذا هربت فسيلاحقونك • وبعد ذلك يحجرون عليك ، ويضعونك فى دير من الأديرة • فماذا عساك تأمرينني عندئذ ؟ هل يجب على فى هذه الحالة ، على غرار بعض أبطال الروايات السخيفة ، أن آتى كل يوم أتأمل من

أعلى أحد التلال المجاورة جدران سجنك المتجمدة ؟ وهل يجب على ازاء هذا المنظر أن انفجر باكيا ، كما تفعل شخصية من شخصيات أحد أولئك الشعراء والروائيين الألمان السخفاء ؟ أهذا ما تريدينه يا آنسة ؟ فاسمحى أن الفت نظرك يا آنسة ، على مودة وصداقة ، أولا الى أن القصص التى من هذا النوع لم يبق لها رواج عندنا ؛ وثانيا الى أنك أنت وأبويك تستحقون بضع ضربات جزاء هذه الرويات الفرنسية التى قرأتموها والتى أعطيت لك من أجل أن تقرئيها .. اعلمى أن هذه الروايات الفرنسية لا تعلم شيئا خيرا .. فليس فيها الا سم .. ليس فيها الا سم زعاف يا آنسة . لعلك تتصورين أن فى وسعنا أن نهرب فلا ينالنا عقاب ، وأن نمضى نعتصم فى كوخ على شاطىء البحر .. حتى اذا صرنا هنالك أخذنا نهدل هديل الحمام ، ونتساقى عواطف الحب ، وقضينا حياتنا سعيدين يغمرنا الفرح وتشيع فى قلوبنا البهجة .. وربما تصورت الى ذلك أن يولد لنا فرخ صغير ، عصفور جميل .. فنمضى نقول لأبيك ، مستشار الدولة أولسوفى ايفانوفتش : « هذا عصفورنا الجميل ، فانس غضبك علينا وباركنا يا أبتاه ! » .. لا يا آنسة .. أعود فأقول لك : لا يا آنسة ما هكذا يكون التصرف السليم ! ... أما أحاديث الهوى والغرام فلا تعوّلى عليها ياآنسة . الزوج فى أيامنا هذه سيد يا آنسة . وعلى الزوجة الشريفة التى أحسن تأديبها أن تحاول جعل حياته ناعمة رضية بجميع ما تملك من وسائل . فى عصر التقدم الذى نعيشه الآن لا يحرص أحد على مظاهر العاطفة الرقيقة والحنان الشديد يا آنسة . لقد ولى عصر جان جاك روسو . عصرنا غير ذلك العصر . الرجل فى عصرنا يعود من عمله فاذا كان جائعا قال لزوجته : « يا عزيزتى أحب أن آكل لقمة أسكت بها جوعى ، أحب أن آكل قطعة من السمك المدخن مثلا ، مع قدح من الفودكا . » . فعليك اذن يا آنسة أن تكونى متأهبة فى كل لحظة لتقديم

شيء من السمك المدخن ومن الفودكا لزوجك متى طلب اليك ذلك • وهذا زوجك يقبل على طعامه يأكله حتى دون أن يرمقك بنظرة يا آنسة وانما هو يكتفي بأن يقول لك : « هيا اذهبي الى المطبخ ، فحضري طعام العشاء يا عزيزتي • » • سقبلك مرة في الاسبوع ، ولن يكون في قبلته كثير من الهوى المتأجج يا عزيزتي • ذلك ما يحدث اليوم يا آنسة • نعم، أعود فأقول لك : هي قبلة قصيرة ليس فيها هوى متأجج • هذا ما سيحدث لك ، اذا نحن أردنا أن نحسن التفكير ، اذا نحن أردنا أن نرى الأشياء كما هي• وما شأني أنا في هذا كله ؟ لماذا تجعلينني شريكا لك في نزواتك الخيالية يا آنسة ؟ أنت تدعين طبعا أنني « رجل كريم مخلص عزيز على قلبك ••• » • ولكن اعلمي أولا يا آنسة أنني لم أخلق لك • فما أنا بالرجل الحاذق في فن الملاطفة والمجاملة ، وأنت تعرفين ذلك حق المعرفة •• انني أكره السفاسف المعطرة الصغيرة التي يزجيها الرجال للسيدات •• انني لا أصلح لأن أمثل دور العاشق المولّه •

« ثم ان شكلي نفسه لا يصلح لذلك • فلن تجدي فيّ لا حبا في الظهور ولا طموحا ولا نفاقا يا آنسة •• انني نعترف لك بذلك صادقين كل الصدق مخلصين كل الاخلاص ! ، نعم ، هكذا نحن ! ان لنا طبعا مستقيما وفكرا سليما • والمكائد لا تعنينا البتة • لست بالرجل الماكر ، وأنا بهذا فخور • تلك هي الحقيقة • انني لا أضع على وجهي قناعا حين أكون بين أناس شرفاء • والخلاصة هي أن •••

ارتعش السيد جولياد كين فجأة • ان لحية الحوذي ، الحمراء المبللة ، قد ظهرت له مرة أخرى من فوق كومة الحطب •

قال السيد جولياد كين للحوذي مثأثئا :

ـ سآتي حالا يا صديقي ، نعم يا صديقي ، أنا آت حالا •

حك الحوذى نقرته ، وطاف بيده على لحيته ، وتقدم خطوة الى أمام ، ثم وقف ونظر الى السيد جولياديكين نظرة تفيض شكا وحذرا ! .

أنا آت يا صديقى . أنا آت . علىّ أن أنتظر قليلا أيضا . لحظة واحدة يا عزيزى الشهم .. هل فهمت يا صديقى ؟

قال الحوذى أخيرا وهو يقترب من بطلنا حازما :

ـ أليس فى نيتك أن تغادر هذا المكان ؟

ـ بل أنا آت يا صديقى أنا آت . اننى أنتظر قليلا يا صديقى .. أرأيت ؟

ـ رأيت .

ـ أرأيت يا صديقى ؟ يجب علىّ .. بالمناسبة : من أية قرية أنت يا عزيزى ؟

ـ لقد ولدت فى منزل أسيادى ؟

ـ هل هم أسياد طيبون ؟

ـ والله ..

ـ طيب يا صديقى . ابق هنا برهة يا عزيزى . أأنت فى سان بطرسبرج منذ زمن طويل ؟

ـ منذ سنة .

ـ أأنت مسرور بها راض عنها ؟

ـ والله ..

ـ طيب يا صديقى ، طيب • يجب علينا أن نحمد الله على ذلك يا عزيزى • اليك هذه النصيحة يا صديقى : ابحث دائما عن الناس الطيبين • لقد أصبحوا قلة فى هذا الزمان يا عزيزى • الرجل الشهم الشريف يوفر لك شرابك وطعامك ، ويعتنى بك ، ويغسلك • أرأيت يا صديقى ؟ رب دموع تظهر أحيانا وسط الذهب • رب انسان يبكى رغم ثرائه • وأمامك الآن مثال محزن على هذه الحقيقة • أرأيت كيف تجرى الأمور يا عزيزى ؟

بدا على الحوذى أنه يشعر نحو السيد جولياديكين بشفقة • قال :

ـ طيب • سأنتظرك • أأنت باق هنا مدة طويلة ؟

ـ لا يا صديقى ، لا •• هل تعرف ؟ لقد بدأ صبرى ينفد منذ الآن يا عزيزى • لم يبق فى نيتى أن أنتظر طويلا •• ما رأيك يا صديقى ؟ اننى أثق بسلامة رأيك وصدق حكمك • أحسب أنه لا فائدة من الانتظار هنا •••

ـ اذن فأنت عدلت عن السفر •

ـ نعم يا صديقى نعم • ولكننى سأعطيك مكافأة حسنة مع ذلك • هذا وعد • كم علىَّ لك يا صديقى الشهم ؟

ـ ما وعدتنى به يا سيدى • لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدى • لا أظن أنك ترضى لى غبنا يا سيدى •

ـ خذ هذا لك يا عزيزى • خذ •••

أعطى السيد جولياديكين الحوذى الروبلات الستة الموعودة • لقد قرر قرارا حازما أن لا يضيع وقته سدى • انه يريد الانصراف مهما كلف الأمر • ثم ان الجسور مقطوعة الآن • لقد صرف الحوذى • ولم

يبق ثمة أى سبب يدعوه الى الانتظار • خرج من الفنـاء ، وتجاوز باب الدخـول ، ودار نحـو اليسـار • ثم أخذ يركض مشرق الوجه لاهث الأنفاس لا يلوى على شىء ، ولا يلتفت الى وراء • قال لنفسه : « ما يزال فى الامكان أن يسوى كل شىء على خير وجه • أما أنا فقد تفاديت بهـذه الطريقة مصيبة كبرى • » •

والحق أن السيد جولياديكين قد شعر فجأة بهدوء وطمأنينة ، وشـعر بارتياح وتخفف • وتنهد يقول : « آه •• شريطـة أن يسـوى كل شىء على خـير وجه » ، دون أن يجـرؤ مع ذلك على الاعتقـاد بأن كل شىء سيسوى على خير وجه • وأردف يخاطب نفسه : هذا ما سأفعله ••• لا بل الأفضل أن ••• أو يمكن مع ذلك أن ••• بل هـــذا ما يجب أن أفعله •••

وفيما هو يستطرد هذا الاستطراد محاولا أن يخرج من حالة الشك والتردد التى هو فيها ، وصل بطلنا الى جسر سيميونوفسكى • فلما صار هنالك اتخذ هذا القرار الحكيم العـاقل ، وهـو أن يعـود أدراجه • قال لنفسه : « هذا أفضل •• من مصلحتى أن أتخذ هـــذا الموقف ، موقف المشاهد المحايد •• المشاهد لا أكثر •• سأكون مجرد مشاهد ، مشـاها غريب عن هذه القضية كلها • ومهما يحدث ، فسأظل خارج القصة لا أسأل عن شىء •• ذلك ما يجب علىّ أن أفعله بعد الآن ••• » •

حتى اذا اتخذ بطلنا هـــذا القرار قفل راجعا • ان هـذه الفكرة الموفقة ، وهى أن يتخذ فى المستقبل موقف المشاهد ، قـد عززت ثقته وطمأنينته • فأخذ يردد قوله : « هذا أفضل ••• هذا أفضل ••• أكون مسئولا عن شىء ، وفى الوقت نفسه أشهد كل شىء ••• نعم •• هذا خير حل ولا جدال ••• » •

عاد السيد جـــوليادكين يقبع وراء كومة الحطب وقد اطمـأن كل الاطمئنان .. انه ملجأ مريح يعصم من كل ســـوء . وركز انتباهه على النوافذ . ولم يطل نظره وانتظاره هذه المرة . فما هى الا برهة قصيرة ، اذ باضـــطراب غريب يظهر وراء جميـع النـوافذ بمسكن أولسـوفى ايفانوفتش . هذه وجوه تظهـر ، وهـذه هى السـتائر تزاح . وها هم الضيوف يهرعون جماعات يحتشدون على زجاج النوافذ . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يبحثون عن شىء فى الفناء . ظل السيد جولياكين معتصما وراء كومة الحطب يراقب بانتبـاه واســتطلاع ، حـــركات هـــؤلاء الناس . وهو يمد رأسه تارة الى يمين وتارة الى شمال ، بمقدار ما كان الظل الذى ترخيه عليه كومة الحطب يسمح له بذلك . وفجأة تجمد الدم فى عروقه ؛ وارتعش ارتعاشا شديدا ، وكاد يسقط مغشيا عليه من فرط الذعر . لقد أحس فجأة أنهم لا يبحثون عن أى شىء ، بل يبحثون عنه هو ، هو السيد جولياكين . كانت جميـع الأنظار مصـوبة نحوه ... وكان يستحيل عليه أن يهرب . ولو هرب لاستطاعوا أن يقبضوا عليه .. تجمد من فرط الرعب ، وتجمع على نفسه ، وشد جسمه الى الأحطاب وأدرك فى تلك اللحظة نفسها أن الظل الخائن قد أخذ يفضحه ، فهـو لا يستر كل جسمه . ما أشد ما كان يفرحه فى تلك اللحظة أن ينقلب الى فأرة حتى يستطيع التسلل بين الأحطاب ، فيختفى فيها هادئا مطمئنا. آه .. ليت هذا كان ممكنا ! ولكنه مستحيل وا أسفاه ! وقرر بطلنا أخيرا، وقد تملكه أشد الرعب ، أن يرفع عينيـه وأن ينظر الى النـوافذ . قال لنفسه : هذا أفضل .. ولكن ما هى الا لحظة واحدة حتى كان متلاشـيا تلاشيا كاملا . انه الآن يحترق شعورا بالعار . لقد أدرك أنهم اكتشفوه. نعم لقد عرفوه . عرفوه جميعا ، فهم جميعا يلوحون له بأيديهم ؛ هم جميعا

ينادونه • وسمع صرير النوافذ وهى تفتح • وسمع أصـــواتا تهتف له بكلام •••

دمدم بطلنا يقول وقد بلغ ذروه اليأس : « يدهشنى أنهم لم يجلدوا هاته البنات بالسوط منـــذ الطفولة ! •• » • وفجأة ظهـر « الرجـل » (والقارىء يعلم من « هو ») على درجات المدخل • كان بغير قبعة ، وبغير معطف • وكان يبدو أنه يلهث • هبط الدرجات وأسرع نحو السـيد جولياديكين ، نشيط الحركة متواثب الخطى ، مظهـــرا أشد الفـرح بلقاء صديقه الحميم •

قال الرجل التافه مزقزقا :

ـ ياكوف بتروفتش ! أأنت هنا ؟ أخشى أن يصيبك برد يا ياكوف بتروفتش • الجو هنا صقيع • تعال ادخل الى البيت •

فأجاب بطلنا بصوت مذعن :

ـ لا ••• ما هذا بشىء يا ياكوف بتروفتش ، ما هذا بشىء !

ـ ولكن •• مستحيل•• يا ياكوف بتروفتش• انهم ينادونك ، انهم يدعونك اليهم باحترام ، انهم ينتظرون حضورك بشوق • لقـد قالوا لى : « من فضلك ائتنا بياكوف بتروفتش • » •

غمغم السيد جوليـادكين يقول ، محترقا متجمـدا فى آن واحـد ، محترقا من الشعور بالعار ، ومتجمدا من الشعور بالذعر :

ـ لا يا ياكوف بتروفتش •

قال الرجل الكريه بصوت يزقزق :

ـ نينى نينى ! •• مستحيل ••

ثم أضاف بصوت آمر وهو يجر بطلنا نحو باب المدخل :

ـ هيا •• تعال ••

أراد السيد جولياد كين أن يقاوم ، ولكن بدا له أن من غير اللائق أن تنشب بينه وبين الرجل مشاجرة على مرأى من جميع الضيوف • فتقدم • لا نستطيع أن نقول انه كان يمشي ، لأنه كان هو نفسه لا يعلم ماذا يصنع وما الذى يجرى • ثم ان هذا كله لا قيمة له •

وقبل أن يثوب الى رشده وأن يسترد شعوره وجد نفسه فى وسط قاعة الاستقبال الكبرى • كان شاحب الوجه ، مشعث الثياب ، منفوش الشعر ، زائغ البصر • ألقى على الحضور نظرة شاملة • يا للهول ! كانت القاعة والغرف المجاورة مكتظة بالناس •• رجالا ونساء • وها هم أولاء جميعا يخفون اليه ويتقدمون نحوه ويحتشدون حوله ، فاذا بهذا البحر المائج الهائج من البشر يدفع بطلنا الى ركن من القاعة • وأدرك هو ذلك• وبرقت فى ذهنه فكرة : « انهم لا يدفعوننى نحو الباب ••• » • والحق أنهم لم يكونوا يدفعونه نحو الباب ، بل نحو المقعد المريح الذى كان يجلس عليه أولسوفى ايفانوفتش هادئا • وقرب المقعد رأى بطلنا كلارا أولسوفيفنا •

كانت شاحبة الوجه تبدو حزينة متعبة رغم تألق زينتها • وانتبه بطلنا ، خاصة ، الى الأزهار الصغيرة البيضاء التى كانت مغروسة فى شعرها الأسود •• انه لمنظر جميل • والى الجانب الآخر من المقعد رأى بطلنا فلاديمير سيميونوفتش مرتديا رداء فراك أسود على عروته وسامه الجديد• اقتيد السيد جولياد كين الى أمام أولسوفى ايفانوفتش • كان يمسكه من احدى يديه سميُّه الذى اصطنع لهذه المناسبة هيئة الوقار والرصانة ، وهذا أمر سر له بطلنا كثيرا ؛ ويمسكه من اليد الأخرى آندره فيليبوفتش الذى كان وجهه يعبر عن الأبهة والفخامة •

تساءل بطلنا : ما معنى هذا كله ؟ » ولكنه حين أدرك أنهم يقودونه

الى أمام اولسوفي ايفانوفتش أشرفت في ذهنه فكرة • لقد خطرت بباله الرسالة المسروقة ••• وهاهو ذا الآن أمام مقعد أولسوفي ايفانوفتش •

تساءل بطلنا وقد تملكه غم لا سبيل الى التغلب عليه : « ماذا يجب على ان افعل ؟ ينبغي أن أتخذ موقفا فيه كبرياء ، موقفا صريحا فيه نبل وفيه رفعة • ومع ذلك علىّ أن أقول : هذه هي القضية أيها السادة ••• غير أن الامر الذى كان يخشاه كثيرا لم يحدث في الواقع • فقد استقبله اولسوفي ايفانوفتش استقبالا لطيفا • ولئن لم يمد له يده مصافحا، فقد نظر اليه طويلا وهو يهز رأسه الاشيب المهيب • هز راسه بوقار وجلال ، ولكن هيئته لم تكن تخلو من لطف وتودد • ذلك كان شعور بطلنا على الأقل • حتى لقد تراءى لبطلنا التماع دمعة في عين الشيخ المضطربة • وحين رفع السيد جولياديكين عينيه تراءت له كذلك دموع على أهداب كلارا أولسوفيفنا • وظهر له فلاديمير سيميونوفتش متأثرا أشد التأثر أيضا • وحتى آندره فيليبوفتش الذى ظل وقورا رصيناً لاتبدو عليه ملامح الاضطراب ، كان وضعه يدل على شيء من شفقة يشعر بها نحو بطلنا • أما الفتى الذى ألمعنا اليه حين تحدثنا عن الحفلة الراقصة ، وقلنا عنه انه يشبه كل الشبه مستشارا من مستشارى الدولة ، فقد انتهز فرصة هذا الانفعال العام الشامل فانفجر باكيا في نشيج مسموع ••• على أن هذا كله ربما كان وهما من أوهام الحواس لدى بطلنا • لقد كان هو نفسه يبكى ويحس بدموعه تجرى سخنة على خديه الباردتين كالصقيع • وبصوت يقطعه النشيج أراد أن يخاطب حاميه القديم وأن يفتح له قلبه •

هو يشعر الآن بأنه تصالح مع الانسانية بأسرها ومع قدره ذاته • انه يحس بالحب يملأ جوانحه ، لا بالحب للشيخ الوقور فحسب ، بل لجميع ضيوفه أيضا ، وحتى لسميّه الشرير الذى أصبح لا يرى الآن أنه

سميّه ولا أنه شرير ، بل انسان عادى محبب لطيف • أراد السيد جولياد كين أن يكلم أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن ازدحام نفسه بالمشاعر حال بينه وبين ذلك • فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، واكتفى بأن وضع يده على قلبه بحركة عريضة ذات دلالة ••• ومن أجل أن يوقى آندره فيليبوفتش الشيخ الحساس من الانفعالات العنيفة قاد بطلنا الى ركن من القاعة وتركه فيه ، لكنه ترك له حرية مطلقة • وهذا بطلنا يشق لنفسه طريقا بين الجمهور الكثيف وهو يبتسم ويدمدم بكلام بين أسنانه• ان الأحداث قد حيرته ، ولكنه يشعر بأنه تصالح مع البشر والقدر تصالحا كاملا • وها هو ذا يتقدم • وها هم الناس يصطفون فى طريقه صفين ، وهم ينظرون اليه نظرة استطلاع غريب وشفقة عجيبة •

وصل بطلنا الى غرفة مجاورة • فاستقبل فيها بمثل هذا الترحيب• وكان يشعر شعورا غامضا بأن جمهرة كبيرة تسير وراءه صفا • كان يحس أن الناس تراقب كل حركة من حركاته وكل اشارة من اشاراته • وكان يسمعهم يتجادلون خفية فى أمرٍ هو على جانب عظيم من خطورة الشأن• كان يراهم يتكلمون ويحركون رءوسهم ويتهامسون ويعارض بعضهم بعضا ويشتجر بعضهم مع بعض اشتجارا حادا ••• تمنى لو يعرف فيم يتناقشون ولماذا يتهامسون ويتشاجرون • والتفت فرأى سميّه الى جانبه • فشعر فجأة برغبة جارفة فى أن يمسك يد هذا الرجل وأن ينتحى به جانبا • وكذلك فعل • رجاه أن يساعده فى جميع الظروف المقبلة ، وأن لا يتركه أبدا فى لحظة حرجة هذا الحرج • فهز السيد جولياد كين الأصغر رأسه بوقار وصافح يد بطلنا ، فشعر بطلنا بقلبه يخفق خفقانا شديدا ويكاد يختنق من فرط الانفعال • كان بطلنا يلهث ويحس أنه مسحوق من كل جهة ، ولا يطيق احتمال جميع هذه النظريات التى تخترقه وتلتهمه وتلاشيه •• ولاحظ السيد جولياد كين ، عرضا ، المستشار الذى

يضع على رأسه شعرا مستعارا، فحدجه المستشار بنظرة قاسية فاحصة لاتتفق وعطف سائر الآخرين •• أراد السيد جولياداكين أن يذهب اليه ، أن يبتسم له ، أن يكاشفه بكلمة • ولكنه لم يستطع • ونسى الواقع خلال لحظة، وفقد الذاكرة والشعور •• فلما ثاب الى رشده لاحظ أنه كان يطوف فى وسط حلقة عريضة من الضيوف • وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحا : السيد جولياداكين • كانت صيحة مباغتة تجاوزت الجموع • فتحرك جميع الناس فى صخب واضطراب ، وأسرعوا نحو أبواب الصالون الأول ، وكادوا يحملون اليه السيد جولياداكين حملا • كان المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا والذى يملك قلبا بغير رحمة، كان قرب السيد جولياداكين • وتناول المستشار يد السيد جولياداكين وأجلسه الى جانبه ، أمام مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، ولكن على مسافة منه من قبيل الاحترام • وأحاط الضيوف بالسيد جولياداكين وآولسوفى ايفانوفتش صفوفا عدة ، وجلسوا حولهما • صمتوا وهدأوا • كان السكون مطبقا • انهم ينظرون الى أولسوفى ايفانوفتش وكأنهم يتوقعون حدثا هاما. ولاحظ السيد جولياداكين أن السيد جولياداكين الآخر وآندره فيليبوفتش قد جلسا الى جانبى مقعد أولسوفى ايفانوفتش ، أمام المستشار ••• وطال الصمت • انه الانتظار •

قال بطلنا لنفسه : « هكذا فى الأسر حين يكون على أحد الأقرباء أن يسافر فى رحلة بعيدة • لم يبق الآن الا أن ينهضوا ويصلوا • » • غير أن خواطره سرعان ما قطعها تحرك الضيوف • فها هم أولاء يرددون جميعا : « لقد وصل ••• لقد وصل ••• » • ولكن لم يبد على أحد أنه دهش •

تساءل السيد جولياداكين وقد هزه احساس غريب ، ارتعش له : « من ذا الذى وصل ؟ » •

قال المستشار الذى يضع على رأسه شعرا مستعارا وهو ينظر الى آندره فيليبوفتش بانتباه : « حان الوقت » • فما كان من آندره فيليبوفتش الا أن رفع عينيه نحو أولسوفى ايفانوفتش ، فهز الشيخ الوقور رأسه برصانة علامة الموافقة • قال المستشار وهو ينهض السيد جولياداكين :

ـ قوموا •

فقام جميع الناس • وتناول المستشار يد السيد جولياداكين الأكبر • وكذلك فعل آندره فيليبوفتش بالسيد جولياداكين الأصغر • وسار الموظفان بالتوأمين متقابلين وجها لوجه ، سيرا هادئا وقورا ، وسط الجمهور المنتبه القلق • وطاف بطلنا ببصره المدهوش على ما حوله ، ولكن سرعان ما نبّه الى ضرورة المحافظة على النظام ، اذ نبّه الى سميّه الذى كان يمد له يده•

« انهم يريدون المصالحة بيننا » ، كذلك قال بطلنا لنفسه ومد يده هو أيضا فى رقة وحنان ؛ ثم مد رأسه بعد يده •• وكذلك فعل سميّه•

خيل الى بطلنا أن صديقه الغدار كان يبتسم له ، ويغمز المشاهدين الذين كانوا يحيطون بهما غمزاً وقحاً • نعم ، تراءى لبطلنا فى وجه الدجال الدنىء تعبير سىء لا يبشر بخير ، فلقد صعر الخائن خده فى اللحظة التى كان يهم فيها أن يقبل صاحبه قبلة يهوذا •

وسمع السيد جولياداكين قرع أجراس يدوى فى رأسه •وزاغت نظراته واضطربت عيناه • وخيل اليه أنه يرى جمهرة ضخمة من أشخاص هم جميعا جولياداكين تظهر فجأة فى القاعة متشابهة كل التشابه متماثلة كل التماثل ، تتدفق من جميع الأبواب فى لحظة واحدة •• ولكن كان الأوان قد فات •• فان القبلة المدوية الخائنة الغادرة كانت قد أخذت أصداؤها تترجع •

وهنا وقع حادث لم يكن فى الحسبان •• فقد انفتح مصراعا باب

الدخول مقرقعين ، فاذا برجل يظهر على العتبة ، واذا بالسيد جولياداكين يتجمد فى مكانه من فرط الذعر حين يراه . تسمرت قدما السيد جولياداكين على الأرض . واختنقت فى حلقه المنقبض صرخة رعب .

يجب أن نقول مع ذلك ان السيد جولياداكين كان قد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل . لقد سبق أن أوجس هذا الموقف . تقدم الرجل مهيبا وقورا ذا أبهة وجلال . ان بطلنا يعرف هذا الوجه حق المعرفة . لقد رآه مرارا كثيرة ، رآه فى هـــذا اليوم نفسه . كان الرجل فارع القامة بدين الجسم . وكان يرتدى رداء أســود . وكانت عنقــه تزدان بصليب كبير . كان لا ينقصه الا سيجار بين شفتيه ، حتى يكون الشبه كاملا .. ان نظرته ، كما قلنا ، قد جمدت السيد جولياداكين ذعرا ورعبا . اقترب من بطلنا المسكين رصيناً ذا فخامة وأبهة . مد اليه السيد جولياداكين يده . فتناول الرجل اليد الممدودة اليه ، وجر بطلنا الشقى وراءه . نظــر بطلنا فيما حوله متحيرا قلقا مشوه الوجه من الذعر .

« انه كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس ، دكتور فى الطب والجراحة . هو صديقك القديم يا ياكوف بتروفتش » ؟ كذلك زقزق يقول صــوت كريه فى أذن بطلنا . فالتفت بطلنا ، فرأى أن الشخص الذى كلمه لم يكن الا سميَّه الدنىء ذا النفس الحقيرة الخــوانة الغدارة . كان وجهــه يتألق فرحا ، فرحا عاتيا مشئوما . وكان يفرك يديه منتشيا ، ويدير رأسه فى جميع الجهات مرحا ، ويتنقل بين الناس مفتنا منتصرا . كان مســتعدا لأن يرقص من فرط الحماسة .

ووثب فجأة الى أمام ، فانتزع شــمعة من يد أحد الخــدم وتقدم يضىء الطريق لكريستيان ايفــانوفتش والسيد جولياداكين اللذين تبعــاه يسيران خلفه .

وسمع بطلنا وقع خطوات المشاهدين جميعا يسيرون وراءهما موكبا كبيرا • كانوا يغذون الخطى ، ويدوس بعضهم بعضا ، ويرددون جميعا أقوال الدجال جوقة كبيرة واحدة : « لا تخف يا ياكوف بتروفتش ••• ما هذا بشيء •• هـــو صديقك القديم ، هو صاحبك القديم كريستيان ايفانوفتش روتنشبتس • • »

وخرجوا الى الدهليز ، ثم الى السلم المضاء اضاءة ساطعة • واندفع جمهور غفير الى السلم • انفتح باب مدخل العمارة مقرقعا • ووجد السيد جولياديكين نفسه على درجات المدخل يصحبه الطبيب • وكانت تقف فى الفناء مركبة تجرها أحصنة أربعة كانت تكدف من نفاد صبرها • وبوثبات ثلاث صار الدجال الكريه أمام العربة يفتح بابهـا • وأشـار كريستيان ايفانوفتش الى بطلنا باشارة مقنعة أن يركب الغُـربة • والحق أن اقنـاع بطلنا لم يكن بذى فائدة • فهناك عدد كاف من الناس ليحمله اليها حملا•

التفت السيد جولياديكين وهو يهذى رعبا وذعرا • كان السلم المضاء يعج بالناس • وهذه عيون مستطلعة تحدق اليه من كل جانب • وهـــذا أولسوفى ايفانوفتش نفسه يرأس الاحتفال من على فسحة السلم فى الطابق الأول • كان جالسا على مقعده ، مقعد المشلول ، يتأمل المشهد فى انتبـاه وشفقة • وكان جميع الناس ينتظرون • فلما التفت بطلنا سرت فى الحشد دمدمة تدل على التململ ونفاد الصبر •

« أرجو أن لا يكون فى هذا كله ما يبعث على لوم •• أو ما يثير القسوة ويلفت الىّ انتباه كافة الناس ••• فيما يتعلق بحياتى العامة » بهذا دمدم بطلنا وقد أعيته الحيلة واضطرب اضطرابا شديدا • وقامت من حوله ضوضـــاء صاخبة • هؤلاء أناس يهزون رءوسـهم علامة الاستنكار • وانبجست دموع من عينى السيد جولياديكين •

« اذا كان الأمر كذلك فأنا موافق ... انني أعهد بمصيرى كله الى كريستيان ايفانوفتش» ، كذلك قال جولياديكين ، فما ان نطق بهذه الاقوال التى يعبر بها عن انه يضع مصيره بين يدى كريستيان ايفانوفتش ، حتى أطلق جميع الشهود صيحات وصرخات رهيبة تصم الاذان ، هى صرخات فرح وانتصار • وسرى صدى هذه الصرخات فى الحشد كله •

امسك كل من كريستيان ايفانوفتش واندره فيليبوفتش باحدى ذراعى السيد جولياديكين ، وأخذا يركبانه العربة • وكان سميّه يدفعه من خلف على عادته الجبانة • ومرة أخيرة ، التفت السيد جولياديكين المسكين الى وراء ، وأجال بصره فى الحضور • فأحس برعدة تسرى فى أعضائه كلها ، كهرة صغيرة سكب عليها قادوس كبير من ماء بارد ، اذا سُمح لنا بهذا التشبيه • وصعد العربة • فسرعان ما تبعه كريستيان ايفانوفتش • فأغلق عليهما الباب • وسمعت قرقعة السوط على خواصر الأحصنة التى تحركت تجر المركبة ... وهرع جميع الناس وراء العربة •

ان الصرخات المسعورة التى يطلقها جميع أعدائه تشيع رحيله • وظل بضع لحظات يميز بعض الوجوه حول بابى العربة التى تقله •

ولكن أعداءه أصبحوا بعيدين شيئا بعد شيء • فأصبح لا يرى أحدا منهم ، الا سميّه الدنيء الذى لبث يرافق العربة مدة أطول • كان يركض على يسار العربة واضعا يديه فى جيبى سرواله الأخضر من ردائه الرسمى. وتشبث بالعربة عدة مرات يرسل قبلات فى الهواء الى صديقه التعيس من قبيل الوداع •

ولكن التعب غلبه آخر الأمر • فأصبح ظهوره أندر فأندر الى أن غاب غيابا تاما •

ان ألما أصم يخنق قلب السيد جولياديكين ، وان دمه الذى يغلى

ويفور ينبض فى صدغيه نبضا قويا • كان يلهث مختنقا • ود لو يفك أزرار سترته ، ود لو يعرى صدره ، لو يدلكه بالثلج ، لو يرشه بماء بارد • ولم يلبث أن غاب عن وعيه غيابا كاملا ••• فلما ثاب الى رشده لاحظ أن العربة كانت تجرى على طريق لا يعرفه • ان على شماله ويمينه غابات • والبرية خالية مقفرة قاحلة ••• وانهار فجأة حين لاحت له عينان من لهب تحدق اليه فى الظلام ، عينان يشرق فيها فرح جهنمى مشئوم •

« ليس هذا كريستيان ايفانوفتش • من عسى يكون هذا ؟ أيكون «هو» ؟ «هو» ؟ لا ••• انه كريستيان ايفانوفتش ، ولكنه كريستيان ايفانوفتش آخر ••• انه كريستيان ايفانوفتش مرعب •

قال بطلنا بصوت وجل مرتجف مرتعش ، محاولا بطواعية ومذلة أن يرق له قلب الطبيب الرهيب :

ـ كريستيان ايفانوفتش •• أنا لم أصنع شيئا •• يخيل الىّ أن ••

فقاطعه كريستيان ايفانوفتش يقول :

ـ سيكون لك حق فى مسكن بالمجان ، مع تدفئة واضاءة وخدمة ، وذلك كله لست جديرا به ولا أنت تستحقه •

دوى جوابه القاسى فى أذنى بطلنا دوى حكم لا رحمة فيه • أطلق السيد جولياديكين صرخة ، وأمسك رأسه بيديه • وا أسفاه ! لقد تنبأ بهذا كله منذ زمن طويل •